الجمهورية الجزائرية الديمقراطية الشعبية

وزارة التعليم العالي والبحث العلمي

جامعة الجزائر

كلية الآداب والعلوم الإنسانية

قسم اللغة العربية وآدابها

الخطابة في النثر الجزائري الحديث

موضوعاتها وخصائصها

(1931م-1954م)

بحث مقدم لنيل شهادة دكتوراه الدولة في الأدب العربي الحديث

إعداد الطالب: عيسى بن ساعد مدور

إشراف: أ.د.عبد القادر دامخي

لجنة المناقشة

أ.د	جامعة	رئيسا
أ.د	جامعة باتنة	مشرفا ومقررا
أ.د	جامعة	عضوا مناقشا
أ.د	جامعة	عضوا مناقشا
أ.د	جامعة	عضوا مناقشا

øL1425- øL1424

ÿ2005-ÿ2004

بسم الله الرحمن الرحيم

إهداء

إلى كل من يعيش آلام الأمة ...

ويحيا آلامها...

أهدي عملي هذا...

مقدمة

لقد استرعى انتباهي وأنا أقرأ في الأدب الجزائري الحديث، وبخاصة النثر منه، موضوع فن الخطابة، الذي يعد من أبرز الفنون القولية تعبيرا عن أحوال المجتمع الوجدانية والسياسية والاجتماعية والدينية والفكرية.

من هنا تكونت لدي رغبة في الإطلاع على أحوال الجزائر، من خلال ما سجلته الخطابة وعبرت عنه. فكان هذا سببا رئيسا في اختياري لموضوع البحث ، الموسوم بالخطابة في النثر الجزائري الحديث: موضوعاتها وخصائصها(1931 م-1954 م) .

وكان لزاما علي تحديد هذه الفترة الزمنية لما لها من أهمية في تاريخ الجزائر الحديث، وتبتدئ ببداية ظهور جمعية العلماء المسلمين الجزائريين سنة إحدى وثلاثين وتسعمائة وألف، وتمتد إلى اندلاع ثورة التحرير الكبرى في عام أربعة وخمسين وتسعمائة وألف، وهذه الفترة تمثل مرحلة النهضة الوطنية التي انبعثت فيها حركة فكرية أخصبت الحياة العامة، وأنعشت الناحية الأدبية حتى أضحت قمة للنهضة الثقافية في تاريخ الجزائر الحديث.

فاختيار هذه الفترة الزمنية ومعالجتها نحسب أنها تثري الأدب العربي بوجه عام، وفي الجزائر بوجه خاص، وعليه فإني عزمت كل العزم على أن أتناول موضوع الخطابة في النثر الجزائري الحديث؛ لأنها سلاح المجتمع الإنساني منذ القدم لدى الزعماء والساسة في قيادة أممهم إلى حياة أفضل، ثم هي ضرورة من ضرورات المجتمع تخدم مقاصد الدعوة الإصلاحية وتنادي في الناس إلى الانضمام إليها، كما أنها تعد أشد الأنواع الأدبية التزاما بقضايا الأمة، وترتبط ارتباطا جذريا بمصيرها؛ لذا فهي جديرة بأن تدرس لاعتمادها أيضا على عناصر تفردت بها عن غيرها من الفنون الأخرى؛ فهي دائما تدعو مستمعيها إلى الانضمام إليها عن طريق المخاطبة التي تشتمل على الإقناع والاستمالة، وهذه العناصر تعد أساسية في الخطابة لكي تحقق مقاصدها.

فالمخاطبة يجب أن تكون موجهة لجمهور من الناس و إلا كان الحديث مألوفا لا يحتاج إلى لهجة خطابية.

والإقناع شرط أساس في الخطابة لأنها إذا خلت من الأدلة المؤيدة للفكرة فإنها لا تؤدي الغرض الذي قيلت من أجله.

أما الاستمالة فهي من المقاصد الأساسية في الخطابة حيث تؤثر في المتلقي ويستجيب للرأي الذي تدعوه إليه.

فهذه العناصر وغيرها هي التي جعلت من الخطابة فنا يستحق العناية والاهتمام والدراسة.

وكل هذه الأسباب وغيرها شجعتني على خوض غمار هذا البحث في موضوع فن الخطابة، وقد بدأت البحث عن عناصره ومراجعه في المكتبات الجامعية والعامة والخاصة في كل من الجزائر وخارجها وبخاصة في المكتبة الوطنية بتونس التي جذبت انتباهي فترددت عليها مرارا أراجع النصوص الخطابية المبثوثة في صحف ومجلات جمعية العلماء المسلمين الجزائريين قصد التحقق منها من خلال ما جمع في آثار ومذكرات الشيوخ ورجال الإصلاح في الجزائر.

وعليه كان اعتمادي منصبا على الآثار والمذكرات في نقل النصوص الخطابية التي أحسبها مصادر هذا البحث، وهذا لا يعني أنني أغفلت المصادر والمراجع الأخرى في بحثي هذا الذي من أهدافه الأساسية قراءة النص الخطابي قراءة واعية لاستخلاص التجارب التي مر بها مصلحو الأمة في وقت يصعب فيه تحمل المسؤولية، لكن بالإيمان والصبر والعلم تحققت المقاصد فلبت الأمة النداء وانتفضت تحطم إرادة المستعمر المحتل وتكسر قيود الاستغلال، وفي هذا عبرة للأجيال الحاضرة.

ومن مصادر البحث ومراجعه نذكر أهمها :

آثار عبد الحميد بن باديس ومحمد البشير الإبراهيمي، ومذكرات محمد خير الدين وأحمد توفيق المدني، ومقالات في الدعوة إلى النهضة الإسلامية في الجزائر للعربي التبسي، وسجل مؤتمر جمعية العلماء المسلمين الجزائريين، وكتاب الجزائر لأحمد توفيق المدني.

ومن المراجع : تطور النثر الجزائري الحديث لعبد الله الركيبي، وفنون النثر الأدبي في الجزائر لعبد الملك مرتاض، والخطابة وإعداد الخطيب لعبد الجليل عبده شلبي، وجمعية العلماء المسلمين الجزائريين وأثرها الإصلاحي في الجزائر لأحمد الخطيب، والحركة الوطنية لأبي القاسم سعد الله.

أما المنهج المتبع في البحث فقد اعتمد على المنهجين التاريخي والتحليلي؛ فالأول يتمثل في تتبع الظواهر والأحداث التاريخية التي كان لها كبير الأثر في البحث، وبدونها لا يمكن صياغة نص نثري مكتمل البنيان؛ إذ أمدنا التاريخ بجملة من المعلومات الكافية التي يسرت لنا الفهم وأعانتنا على الحكم والاستنتاج.

والثاني فهو لتحليل النص الخطابي والوقوف على مقاصده، خاصة فيما يتعلق بموضوعات الخطابة في النثر الجزائري الحديث.

وقد فرضت طبيعة البحث خطة اشتملت على مقدمة ومدخل وأربعة فصول وخاتمة.

فالمدخل تحدثت فيه بإيجاز عن فن النثر في الجزائر، وقبل ذلك أشرت إلى فن الشعر، مركزا حديثي على الشاعر محمد العيد محمد علي خليفة الذي اتخذته كأنموذج للشعراء الجزائريين وذلك قصد الإشارة لا الإحاطة.

هذا عن الحركة الشعرية في الجزائر أما عن فن النثر فقد تحدث البحث عن بعض أجناسه؛ بدءا بالقصة، مرورا بالمسرح والمقالة إلى الرسائل والرحلات، وأخيرا الخطابة التي تعد من أبرز الفنون النثرية، لذلك أفردناها بالبحث والدراسة.

أما في الفصول فتناول البحث في الفصل الأول الحياة العامة في الجزائر إبان الاحتلال الفرنسي الذي بسط نفوذه الضاغط على مقومات الأمة مما أدى إلى تغير صورة الحياة العامة في البلاد ونبدؤها بالحالة السياسية المضطربة التي كانت تهدف إلى المحو التام للكيان الجزائري، ثم الحالة الدينية التي تعرضت للاستهداف من قبل الاحتلال الفرنسي وذلك بإجراء تحويل في عقائد الناس من الإسلام إلى المسيحية، وإذا لم يتسن لهم ذلك فليكن إلى الانحلال والتميع.

أما الحالة الاجتماعية في الجزائر فقد أحدث الاستعمار الفرنسي تغيرات عليها مما أثر سلبا في حياة الأمة، ويظهر ذلك في الهجرة الاضطرارية داخل البلاد وخارجها، وبث التفرقة في الوسط الاجتماعي وبخاصة بين العرب وإخوانهم الأمازيغ، كما يظهر ذلك أيضا في تشجيع الطرقية من قبل الاحتلال حين تحولت إلى مراكز للتخدير والتقاعس الاجتماعي وعدم البحث فيما يهم الأمة، بل أصبحت أماكن الدعاية للأولياء والمرابطين الذين شوهوا صورة الإسلام السمح، لذلك أمنت لها الإدارة الوصية التمويل والحماية قصد دفع الشعب الجزائري إلى الانحلال الاجتماعي وجعله لا يفكر في مصيره.

أما عن وضعية العمال والمرأة وأحوال الصحة العامة فلا شك أنها كانت خاضعة للإدارة الاستعمارية؛ إذ حولت الأمة الجزائرية إلى أمة عمال تخدم مصالحها، وحولت وضعية المرأة تحولا بلغت فيه درجة كبيرة من التخلف والكبت والحرمان المفروض عليها، وعن الحالة الصحية فلا ريب أن تلك الأوضاع البائسة والظروف القاسية التي ألمت بمعظم الشعب الجزائري إبان الاحتلال الفرنسي لغني عن البيان أن يكون عرضة لأخطر الأمراض وشر الآفات الاجتماعية.

هذا عن الحالة الاجتماعية أما الحالة الاقتصادية فكانت تحت سيطرة الاحتلال الفرنسي يتصرف فيها وفق رغبته وما يخدم مصالحه، ولا يولي أي اهتمام لما يخدم مصالح الشعب الجزائري صاحب الحق في بلاده وثرواته.

وأخيرا الحالة الثقافية، فحالها حال ثقافة الأمم والشعوب التي تعرضت للغزو وبخاصة الثقافي منه، وبالتالي كان من الطبيعي أن تنحصر الثقافة ويتراجع العلم وما هي إلا فترة حتى أصبحت البلاد فارغة من العلم، ولكن هذه الأوضاع المضطربة والضغوط والقوانين الخانقة لإرادة الشعب والمصائب التي ألمت به لم تثن من إرادته ولم تضعف من عزمه فقامت طائفة من أبنائه يحاولون فتح كتاتيب وزوايا إدراكا منهم أن العلم يحمي ضمائر الناس ويبعث فيهم الأمل، ويظهر ذلك في النشاط التعليمي الوطني الحر الذي استمر ضمن حدود التعليم القرآني وفقا للطريقة التي كانت متبعة عند أسلافهم؛ إذ كانت السبيل الوحيد للحفاظ على الشخصية العربية الإسلامية أمام خطر الاندماج المهدد لكيان الأمة.

وفي الفصل الثاني أردنا به الحديث عن تاريخ الخطابة في النثر الجزائري الحديث لأن ذلك يمهد الطريق للفصل الثالث؛ فالإطلاع على المراحل التي مرت بها الخطابة في الجزائر تعطينا صورة واضحة عن حقيقتها ومكانتها ودورها.

وقبل ذلك تحدث البحث عن تعريف الخطابة وقيمتها وأنواعها، ثم الحديث عن الخطابة عبر العصور المختلفة وبخاصة عند العرب، وأخيرا الخطابة ومراحلها في الجزائر.

أما الفصل الثالث تناولنا فيه موضوعات الخطابة في النثر الجزائري الحديث بدءا بالموضوعات السياسية التي تعالج قضايا السياسة في الجزائر إبان الاحتلال الفرنسي، وبخاصة في المرحلة التي ظهرت فيها جمعية العلماء المسلمين الجزائريين التي يزعم

البعض أنها لم تهتم أبدا بالشؤون السياسية في البلاد ويعيبون عليها ذلك!.

فالجمعية من مقاصدها الإصلاح الديني ونشر الفضيلة ولكن هذا لا يعني أنها لم تهتم بالحالة السياسية بل كثيرا ما كانت تهتم بالواقع السياسي الجزائري، فهي تدافع عن مكانتها وتواجه الإدارة الاستعمارية مطالبة بحقوقها وحقوق الأمة، ولكن غالبا ما تتريث في مطالبها معتمدة الحكمة والحذر لتحقيق مصالحها والوقوف عند غاياتها. يتجلى ذلك بوضوح من خلال ما تتبعه البحث في النصوص الخطابية ذات الطابع السياسي.

ثم تعرض البحث للخطب ذات موضوعات اجتماعية التي عبرت عن الحالة الاجتماعية المضطربة بسبب تجاوز القوانين الأصلية بمعاملات استثنائية، مما أثر سلبا في حياة الشعب الجزائري، واضطربت لذلك حالته الاجتماعية وعمت الفوضى وانتشرت المفاسد وكل أنواع الآفات، ذلك ما نلمسه من خلال تتبعنا لبعض النصوص الخطابية المختارة في هذا الصدد.

وأخيرا الموضوعات الدينية والتربوية التي تناولتها الخطابة في النثر الجزائري الحديث تعالج واقع الناس وتحاول بناء الإنسان الجزائري بناءا متكاملا من خلال الإصلاح الديني والتربوي، ذلك ما يتجلى بوضوح في أكثر من نص خطابي تعرض لقضايا كثيرة كانت سائدة آنذاك في المجتمع الجزائري.

وفي الفصل الرابع،تناول البحث خصائص الخطابة في النثر الجزائري الحديث.فكان الحديث أولا عن الالتزام والواقعية ثم اللغة والأسلوب.

فالالتزام خاصية من خصائص الخطابة في الجزائر، وهو وليد العصر الحاضر؛ إذ لم يكن معروفا في نظر النقاد من قبل، ومفهومه مرتبط إلى حد بعيد بمفهوم الأدب ومدى علاقته بالحياة وبالدور الذي يقوم به الأدب في توجيه هذه الحياة.

والالتزام الذي نعني به هنا هو أن الأديب صاحب رسالة ينبغي أن يؤديها ويمكنها في قلوب الناس وفق أهداف أمته التي لا يسمح لشاعريته أن تحيد عنها بل يجب أن يشارك بالفكر والشعور الفني في قضايا قومه، فإذا تقيد الأديب بأهداف أمته وقضاياها وسخر نتاجه الأدبي خدمة لتلك الأهداف والقضايا كان أديبا ملتزما.أما الذي لا يتقيد

بمقاصد أمته ولا يعيش قضاياها فهو أديب غير ملتزم، وقد بينا ذلك من خلال نماذج خطابية لبعض خطباء الإصلاح في الجزائر.

هذا عن الالتزام، أما الواقعية فهي تلك الأعمال الأدبية التي تعالج قضايا واقعية وأحداثا فعلية تعيشها الأمة في مختلف مناحي حياتها، ويظهر ذلك من خلال نصوص خطابية مختارة تتبعها البحث قصد الوقوف على أهميتها في الواقع الاجتماعي ومدى معالجتها لأحداثه.

وعن اللغة والأسلوب، فقد اختصت الخطابة في النثر الجزائري الحديث بلغة سهلة مباشرة استطاعت أن تنقل لنا صورة واضحة عن حالة المجتمع الجزائري، كما اختصت أيضا بلغة تقريرية وصفية الأمر الذي يدفعنا إلى القول أنها تسجيل لأحداث تاريخية تعكس ما كان عليه الوضع في الجزائر آنذلك.

وأخيرا اختصت لغة الخطابة في النثر الجزائري الحديث بتمثلها الدين الإسلامي وفكره، وهذا ليس بدعا في مثل هؤلاء الخطباء الذين تشبعوا بروح الإسلام ومبادئه منذ الصغر.فمن يتأمل كتاباته وبخاصة منها الخطابة يلاحظ أنها استلهمت عناصرها من العقيدة الإسلامية التي امتزجت بها امتزاجا كبيرا فأشرقت ألفاظها واستضاءت معانيها بالقرآن الكريم، وقد سقنا بعض النماذج الخطابية التي تنهض دليلا على ما نقول.

أما عن الأسلوب، فإن أساليب الخطابة في النثر الجزائري الحديث متنوعة تنوع الموضوعات التي تناولتها، وقف البحث عند بعضها منها :

الوضوح في الأسلوب الذي اتسمت به الخطابة ويتجلى في سهولة العبارة ووضوح المعنى، وهذا كان يقصد إليه قصدا لأن فهم المعاني أساس لإقناع المتلقي واستمالته، وهنا لا نعني بالسهولة والوضوح أن الكلام يأتي مبتذلا سوقيا لا يوافق بناء اللغة العربية ومقاصدها، بل المقصود أن يكون سهلا في قوة، وساميا في وضوح وسهولة.

وبعد الوضوح تعرض البحث للأسلوب الموسيقي لما للموسيقى من قيمة كبرى في فن الخطابة، بل تعد عنصرا هاما من عناصره، وترتبط به ارتباطا وثيقا لأنها الخاصية الجمالية الجذابة التي تضفي عليه ذلك الوزن الجميل المتمثل في النغم المتزن الأكثر إيثارا للقارئ والسامع على حد سواء.

وأخيرا وقف البحث على أسلوب إثارة الشعور في المتلقي وذلك باستثارة كوامن الرغبة لديه في تحمل مسؤولياته إزاء الواقع الذي يعيش فيه، لأن ذلك من مقاصد الخطابة، والخطيب الناجح هو الذي يتخير أساليبه ويعمد إلى لغة يفهمها الناس ويتأثرون بها، ذلك ما ورد في البحث من خلال نصوص خطابية تناولت كل تلك الخصائص.

وقبل الختام أوجه شكري الجزيل إلى أستاذي المشرف عبد القادر دامخي الذي منحني كل ثقته وشجعني على مواصلة البحث، كما أشكر كل من مد إلي يد العون لإنجاز هذا البحث.

وختاما فلست أزعم أن ما قدمته في البحث هو كل ما يستحقه هذا الموضوع، ولكن ذلك هو جهدي المقل بذلته في سبيل العلم والمعرفة قصد إدلاء دلوي في هذا الباب، فإن وفقت فمن الله وإن أخطأت فمن نفسي والشيطان، والحمد لله من قبل ومن بعد عليه توكلت وإليه أنيب.

مدخل

إن فن الأدب في مجاله الإبداعي هو ((أحد الفنون الجميلة الخمسة : كالرسم، والنحت، والرقص، والموسيقى))[1]؛ إذ لا يختلف عنها من حيث المقاصد التي يصبو إليها كل فن جميل.

والأدب ينقسم في مجموعه إلى فني المنظوم و المنثور، وقبل الحديث عن فن النثر في الأدب الجزائري الحديث يجمل بنا أن نعطي لمحة موجزة عن فن الشعر الذي وجد عناية واهتماما من الدارسين وبخاصة بعد تأسيس جمعية العلماء المسلمين الجزائريين التي فسحت

---

[1] **د.ميشال عاصي ، الفن والأدب ، مؤسسة نوفل ، بيروت ، لبنان ، ط3 ، سنة 1980 ، ص 77.**

المجال في صحفها للشعر؛ إذ ((لم يكد يغادر غرضا من الأغراض التي كانت تشيع في الشعر العربي يومئذ إلا عالجه وعني به))[2].

وهذه الأغراض المختلفة قد نالت اهتمام كثير من الشعراء الجزائريين، ويظهر ذلك من خلال بعض النماذج المختارة عالجها الشاعر (محمد العيد محمد علي خليفة) وهي للتمثيل لا الحصر.

ففي موضوع الإسلاميات يقول من قصيدة طويلة له عن شهر الصيام :

أطل على البرية ولح باليمن يا شهر الصيام
بالسلام * وحل على بني كريما بين رعي و
الإسلام ضيفا * وعيدا احترام تعود عليهم
باللطائف والهدايا* في كل عام كلام
ألم ينزل إليهم فيك الله بورك من كلام
قدما * نفحت المسلمين من القرآن مفتر الكمام
بمثل ورد * هززت قلوبهم وسقت لها الهدى
هز الروابي * فهم سوق الركام ببر
مهما قررت قررت الشيخ منهم
عينا * والغلام [1]

وفي **موضوع الإخوانيات** يهدي الشاعر هذه القطعة إلى صديقه الأستاذ (الطيب العقبي) ومعه السيد (عباس التركي) بعد أن أطلق سراحهما من السجن ظلما من طرف الاستعمار الفرنسي ،يقول :

---

[2] د.عبد الملك مرتاض ، فنون النثر الأدبي في الجزائر (1931م-1954م)، ديوان المطبوعات الجامعية ، الجزائر ، سنة 1983 ، ص 68.

[1] محمد العيد محمد علي خليفة ، الديوان ، مطبعة البعث ، قسنطينة ، الجزائر ، 1967م، ص 151.

خذا لكما عني من الشعر باقة* كـذكركما الزاكـي تـضوع
مضت لكما في الدهر أيام محنة* وتعبـق وسـاعات عـسر
بهـا يمحـص الله المحقـين فـي بالأماثل تلحق ويسحق دعوى
الـورى* ففـي ذمـة التـاريخ المبطلـين ويمحـق وذكـرى
بلـوى مريـرة* إذ كمثل الجمر في القلب تحرق
الجـور صـادي الـصوت والعـدل إذ الغـي عـالي الـرأس والحـق
خافـت* مطرق بجنح الـدجى أو أدمع
ولا همـس إلا زفـرة إثـر زفـرة * تترقـرق ولا زال فـي
رعى الله يوما فيـه أفـرج عنكما * الأيام كالنجم يشرق(2)

أما **موضوع الثوريات** يلقي الشاعر قصيدة من قصائده الثورية التي كانت كإرهاص للثورة الجزائرية المسلحة ، فقد نظمها قبلها بعدة سنين يقول :

شباب الجزائر طب بالإخا * ء فقـد حـزت فـي رعيـه
وطـف حـول مـورده الأسبقيه كما طافت النحل
المـستطاب * أناديـك للخيـر حول الخليه وأوصيك بـالحق
خيـر النـداء * ذر حق الوصـيه فمـن هـاب
الخوف تعرف ثنايا السلوك خـاب وضـل الثنيـه فخـاطر
* رأيت المنايا سبيل المنـى تصب منية أو منيه فلا
* إذا زلزلـت خيـر فـي حـذر أو تقيـه
بالخطوب البلاد * تولى ووافـى زمـان الفـدى
زمـان الرضـى بـالهوان * والضحيه(1)

فالشاعر محمد العيد لم يقف عند هذه الموضوعات فحسب، بل

(2) **المصدر نفسه ، ص 395.**

(1) **المصدر السابق ، ص 417.**

نظم في غيرها من الموضوعات الأخرى. وفي الفترة التي برز فيها الشاعر (محمد العيد محمد علي الخليفة) ظهر معه عدد كبير من الشعراء تتفاوت قدراتهم الشعرية من شاعر لآخر، بل ألفينا الكثير من الكتاب الجزائريين يحاولون قرض الشعر وبخاصة في المجال الإصلاحي، فجسدوا بذلك إحساسهم بالواقع المعيش فيما كتبوه من كتابات في ألوان أدبية متنوعة.

هذا عن الحركة الشعرية، أما عن فن النثر الأدبي في الجزائر فإنه عرف تغيرا في الصياغة والشكل منذ بداية الاحتلال وذلك أنه ((تحرر من القوالب المحفوظة وتحرر من السجع إلا ما جاء عفو الخاطر أو لا تكلف فيه مقصودا لذاته، كما مال الأسلوب إلى السهولة والبعد عن التعميم، فاللغة تحررت من تلك الألفاظ الأعجمية القاموسية الغريبة، وأصبح هدف الكاتب هو التعبير عن أفكاره في وضوح دون بهرجة أو تنميق أو زخرفة لفظية لا تحوي معنى جيدا أو رأيا مبتكرا))[1].

وألوان الفنون النثرية في الجزائر كثيرة نقف عند بعضها لإعطاء صورة واضحة عنها، وبخاصة في الفترة التي ظهرت فيها جمعية العلماء المسلمين الجزائريين.

وهذه بعض أجناسها نبدؤها بالقصة التي تعد ((من أهم أنواع الأدب، وقد اتخذت القصص لقربها من قلوب القارئين وسيلة من أكثر الوسائل فاعلية لنشر النظريات الاقتصادية والاجتماعية والدينية وكل الطبائع البشرية وما يعرض لها من حوادث تصلح لأن يكون موضوع قصة))[2].

والفن القصصي في الجزائر قد تأخر ظهوره لأسباب كثيرة في مقدمتها الاستعمار الفرنسي الذي وقف موقفا سلبيا إزاء الثقافة العربية الإسلامية الأمر الذي نتج عنه تخلف الأدب الجزائري عامة و القصة منه خاصة التي لم تنل اهتماما كافيا، بل كان الاهتمام منحصرا على الشعر وحده ((وليس أدل على هذا مما كانت تفعله جريدة (البصائر) عام 1937، بل وحتى عام 1955 من تخصيصها بابا يحمل عنوان (الأدب الجزائري) ولا يتناول إلا الشعر والشعراء))[3].

---

[1] د.عبد الله ركيبي، تطور النثر الجزائري الحديث (1830-1974)، دار نافع ، سنة 1979م ، ص 8.

[2] مجد محمد الباكير البرازي ، في النقد الأدبي الحديث ، مكتبة الرسالة الحديثة ، عمان -الأردن - ط1 ، سنة 1986م، ص 143.

[3] د.عبد الله ركيبي ، تطور النثر الجزائري الحديث (1830م-1974م)، ص 161.

وقد أدت هذه النظرة وبخاصة صحافة الحركة الإصلاحية التي كانت تعنى بالشؤون الثقافية والأدبية إلى إهمال هذا اللون من الأدب.

و من العوامل الأخرى التي كانت سببا في تعطيل ظهور القصة وتطورها في تلك الفترة؛ التقاليد الاجتماعية التي يمارسها المجتمع ولهذا كان من الصعب أن تتعرض القصة لكثير من الموضوعات وتعالجها.

إلى جانب هذه العوامل التي أسهمت في إعاقة ظهور القصة هناك ضعف النقد الموجه، و انعدام وسائل التشجيع على الكتابة في هذا اللون من الأدب، وكذلك عدم وجود المتلقي لهذه الأعمال القصصية إن وجدت.

ولكن لم يبق الوضع على ما هو عليه بل تغير بعد الحرب العالمية الأولى فظهور الحركات والأحزاب السياسية وبخاصة الحركة الإصلاحية ((التي نادت بإحياء التراث القومي و الحفاظ عليه من لغة ودين وتاريخ مما كان له أثره الواضح في الثقافة العربية))[1] ، وبما قامت به من نشاط تعليمي أوجد طبقة من المثقفين باللغة العربية التي اهتمت بمختلف فنون الأدب مما ساعد على ظهور القصة بالعربية.

وهناك مؤثرات أخرى أثرت في القصة تتجلى في صلة الجزائر بالشرق هذه الصلة التي أثرت في الأدب الجزائري بعامة إلا أن فن القصة لم ينل ما نالته بعض الفنون الأدبية الأخرى من التأثير.

من هنا يتضح لنا أن القصة لم تتهيأ لها أسباب الظهور كما هو الشأن بالنسبة للشعر، ولهذا وجدناها قد سبقت بأشكال قصصية تفتقد سمات وخصائص القصة الفنية ولكنها في ذات الوقت كانت سببا رئيسا في تمهيد الطريق للقصة الفنية. ومن هذه الأشكال المقال القصصي الذي يعد ((صورة من المقال الإصلاحي الديني وخاصة في مضمونه ووظيفته، أما من جهة الشكل فهو مزيج من المقالة و الرواية والمقال الأدبي))[1].

وهذا اللون من فنون النثر الأدبي كان الدافع إليه إصلاح المجتمع وبناء الإنسان بناء متكاملا ؛ يظهر ذلك في خدمة الإصلاح الديني ونبذ الأوهام والخرافات العالقة بأذهان الناس.

والناظر بإمعان في المقال القصصي يلحظ أنه لا يولي اهتماما لتلك السمات التي تميز القصة القصيرة ، وإنما كان اهتمام كتابه يظهر

---

[1] المرجع السابق ، ص 163.

[1] د.عبد الله ركيبي ، تطور النثر الجزائري الحديث (1830م-1974م)، ص 165.

في السرد والحوار والدعوة الملحة إلى الفكرة التي يدعون إليها.
وعموما فإن المقال القصصي قد لعب دورا هاما في الحياة الأدبية ويكفي أنه ساهم في التمهيد لتطور القصة الفنية إلا أنه في مراحله الأولى غلب عليه الجانب الإصلاحي للمجتمع، فموضوعاته كثيرا ما كانت تتناول إصلاح المجتمع، بينما وجدناه في المرحلة الموالية بدأ يهتم أكثر بالناحية الأدبية والدعوة ((إلى أدب جزائري يواكب الحياة والإلحاح على وجود القصة فنا قائما بذاته))(2).

فظهور القصة الفنية الناضجة في الجزائر يعود أساسا إلى عوامل منها :

اليقظة الفكرية التي تميز بها المثقف الجزائري وبخاصة تلك التي أعقبت الحرب العالمية الثانية، وأحداث 8 مايو، وعوامل أخرى تتمثل في تلك البعثات الثقافية إلى الشرق العربي التي سهلت الطريق للإطلاع على نماذج من القصة القصيرة العربية مما أتاح للقصة الجزائرية أن تقتبس منها سواء في الشكل أو في المضمون وبذلك وضعت اللبنات الأساسية لهذا الفن،وأخيرا تأتي الثورة التي تعد عاملا مهما في دفع القصة الجزائرية قدما إلى الأمام بأن جعلتها تكشف عن الواقع وتسايره وتأخذ مادته منه حتى أصبح هذا اللون من الفن القصصي واضح المعالم يتميز بسمات القصة القصيرة وعناصرها.

وقد تناول القصاصون الجزائريون مختلف الموضوعات التي تعالج واقع الأمة أهمها : موضوعات عاطفية ، وموضوعات اجتماعية ، وموضوعات نفسية ، وموضوعات أخلاقية وموضوعات إصلاحية.

فهذه الموضوعات التي تناولها كتاب القصة القصيرة في الجزائر عبرت بصدق عما يتصل بحياة الشعب الجزائري ومصيره السياسي ؛ لذا يمكن اعتبار هذا النتاج القصصي خلال فترة الاستعمار المشحونة بمظالمه مرآة صادقة للمجتمع الجزائري ((وإن لم يبلغ من حيث المستوى الفني منزلة رفيعة))(1).

أما عن الفن المسرحي فإنه قد تعرض هو الآخر للتضييق كغيره من الفنون الأخرى من قبل الاستعمار الذي استخدم كل السبل ليمنع الجزائريين من أي شكل مسرحي خشية أن يصبح أداة للانتفاض و الثورة عليه، ولكن هذا لا يعني أن المسرح في الجزائر قد اندثر

---

(2) المرجع نفسه ، ص 166.
(1) عبد الملك مرتاض ، فنون النثر الأدبي في الجزائر (1931م-1954م)، ص 190.

تماما بل بقي رغم محاصرته على أشكاله البدائية ((التي عرفت في العالم العربي، مثل عرائس الكراكوز أو خيال الظل، وحفلات الذكر في مراكز الطرق الصوفية، مما يعتمد فيها على الحركة والإشارة وعلى تمثيل بعض المشاعر، وبخاصة ما يتصل بالدين مثل يوم عاشوراء وما إلى هذا السبيل))[1].

فالحاجة إلى المسرح دعت إليها ظروف الواقع الجزائري فهو أداة للنقد والإصلاح وتهذيب النفوس و ترقية الشعور، وهذا كان سببا من أسباب انطلاقه حيث يكاد الباحثون ((يجمعون على أن انطلاق المسرح الجزائري بدأ في سنة 1926 ...التي حاول فيها الجزائريون خلق مسرح عربي يستخدم اللغة العربية الفصحى وسيلة للتعبير والتمثيل ، وهذه المحاولة تندرج في مجال المحاولات التي قام بها رواد المسرح العربي في بلدان عربية أخرى مثل سوريا ومصر... وهذه المحاولة تنبع من الفكرة التي تدعو إلى النهضة الحديثة التي تستفيد من الغرب ومن تقدمه الثقافي والحضاري))[2].غير أن هذا الشكل المسرحي لم ينطلق انطلاقة حرة لأسباب كثيرة ، منها ضعف الثقافة العربية في المجتمع الجزائري وانتشار الأمية في المتلقي وارتباط النهضة الأدبية بالحركة الإصلاحية التي كانت تركز على الجانب الإصلاحي قبل الاهتمام بالجانب الأدبي الفني.فكل هذه العوامل وغيرها كانت سببا في تراجع المسرح باللغة العربية الفصحى ليحل محله مسرح شعبي عني بالمشاكل الاجتماعية واتخذ اللهجة العامية أداة للتعبير ، والفكاهة في الأسلوب.

ويعتبر (رشيد القسنطيني) رائدا للمسرح الشعبي في الجزائر ، وقد كان يعتمد فن الإضحاك والهزل في عروضه التي لاقت قبولا عريضا في الجمهور.

والفن المسرحي في الجزائر عرف قبل كثير من الفنون الأدبية الأخرى كالفن القصصي مثلا وهذا يعود لعوامل أهمها :

-الجمهور المتفرج :

من السهولة أن تستقطب جمهورا متفرجا على عكس من إيجاد جمهور من القراء فالعملية تحتاج إلى وقت مناسب لطلب العلم، وهذا كان متعذرا في الجزائر بسبب مواقف الاستعمار الفرنسي من الثقافة العربية الإسلامية ، على الرغم من ذلك فإن جمهور المتفرجين كانوا

---

[1] د.عبد الله ركيبي ، تطور النثر الجزائري الحديث (1830-1974)، ص 212.

[2] المرجع نفسه ، ص 214.

يستوعبون ما يعرض أمامهم من موضوعات وبخاصة الهزلية منها.

-الهدف التربوي المباشر من المسرحية :

إن عملية التربية المباشرة للجماهير قد وجدت طريقا لها وذلك بالاعتماد على حضور الجمهور المتفرج بمختلف مستوياته . فالكاتب المسرحي يستطيع أن يخاطب عددا كبيرا من الناس بينما يتعذر ذلك مع الفنون الأخرى كالقصة والمقالة لأن هذا يحتاج إلى جمهور قارئ وهذا ما لم يحصل لظروف مر ذكرها.

-الحفلات المدرسية :

كانت المدارس العربية الحرة قد ساهمت في إنعاش المسرح الجزائري وبخاصة بعد تأسيس جمعية العلماء المسلمين الجزائريين.فكان نشطاء هذه المدارس الحرة ينظمون احتفالا بمناسبة انتهاء السنة الدراسية أو مناسبة عيد المولد النبوي الشريف أو مناسبات أخرى تعرض فيها مسرحيات هادفة.

-زيارة الممثل المصري جورج أبيض للجزائر :

إن زيارة فرقة جورج أبيض للجزائر كان لها أثرها المباشر في الأوساط المسرحية، بل بدأ المسرح الجزائري يخطو خطوات ثابتة ساعدت على ظهور وتكوين فرق مسرحية قدمت أعمالا جادة ونشطت نشاطا واسعا في أهم مدن الجزائر، وبذلك تطور وبلغ المسرح الجزائري مكانة طيبة كلما تقدمت به الأيام، وقد اتجه اتجاهين متباينين من حيث التعبير : أحدهما شعبي يتبنى العامية في تبليغ رسالته و الآخر يعتمد الفصحى ومثلته جمعية العلماء المسلمين الجزائريين.

وعموما فإن غاية الاتجاهين كانت واحدة والمصب واحدا هو الشعب الجزائري.

أما الموضوعات التي عالجها الفن المسرحي الجزائري فهي موضوعات تناولت جوانب مختلفة منها التاريخي، والاجتماعي، والديني، والأدبي.

فالموضوعات التاريخية في المسرح الجزائري معظمها قد تناولتها أقلام الكتاب باللغة الفصحى، وقد لاقت رواجا كبيرا في أهم مدن الجزائر الكبرى. والمقاصد التي كان يرمي إليها كتابها هي ربط الماضي بالحاضر للتطلع إلى المستقبل وذلك بتنبيه الجماهير إلى أهمية ومكانة تاريخ الأمة لأن ذلك من شأنه أن يوقظ الرغبة في النفوس لمراجعة الذات ، ويقذف في القلوب إيمان الارتباط بماضي

الأسلاف.
وهذا كله كان ردا على الاستعمار الذي عمل جادا من أجل إلغاء ماضي الشعب الجزائري حتى يتسنى له التحكم فيه وتوجيهه توجيها يخدم مصالحه، ولكنه أخفق إخفاقا ذريعا بحيث تصدى له الكتاب الجزائريون بأعمال مسرحية تاريخية تذكر الجمهور بماضيه الحافل بالبطولات و تبعث فيه الحمية الوطنية و الشعور بالمسؤولية لتغيير واقع الأمة التي تعاني من مظالم الاستعمار.
وفي هذا الباب ألقيت مسرحيات كثيرة عالجت موضوعات تاريخية وإسلامية، منها: حنبعل لأحمد توفيق المدني، ويوغرطة : لعيد الرحمن ماضوي، وعنبسة لأحمد رضا حوحو، والخنساء : لمحمد الصالح رمضان ، وبلال بن رباح للشاعر محمد العيد علي خليفة.
والواقع أن هذه المسرحيات كانت دعوة للشعب الجزائري إلى اقتفاء أثر الأسلاف ومقاومة المستعمر بالصبر و النضال من أجل العقيدة و الوطن.
هذا عن الموضوعات التاريخية، أما الموضوعات الدينية فإن معظمها كانت تمثل في ذكريات المولد النبوي الشريف والهدف منها ربط الشعب الجزائري بدينه وإحياء العقيدة الصحيحة في نفسه ليتسنى له مقاومة الاحتلال وعدم الرضوخ لإدارته، ومن هذه المسرحيات مسرحية المولد النبوي : لعبد الرحمن الجيلالي، ومسرحية الناشئة المهاجرة : لمحمد الصالح رمضان، وقد تعرض لهما لأول مرة بالدرس الدكتور عبد الملك مرتاض[*].
أما الموضوعات الاجتماعية ففي معظم أحوالها كانت من نصيب الأقلام بالعامية، وقد نالت عناية كبيرة من الكتاب الجزائريين ؛ إذ كانوا يميلون كثيرا إلى معالجة المشاكل الاجتماعية وتصويرها تصويرا دقيقا، وقد وجدوا الطريق إلى ذلك من خلال الفن المسرحي.
وكانت هذه المسرحيات ((تهدف إلى إصلاح المجتمع وتدعو إلى التحرر من سيطرة الماضي وسحره والتخلص من رواسبه، كما أنها تهاجم المساوئ التي غزت البيئة الجزائرية بسبب الاستعمار وأفكاره التي حاول أن يغرسها في البيئة الجزائرية))[1].

---

[*] أنظر : د.عبد الملك مرتاض، فنون النثر الأدبي في الجزائر (1931م-1954م)، ص: 224 ... 229.
[1] د.عبد الله ركيبي ، تطور النثر الأدبي في الجزائر (1830-1974)، ص 228.

وأخيرا الموضوعات الأدبية التي تعرض لها (أحمد رضا حوحو) ويعد الوحيد الذي عالج مشاكل الأدب والأديب وترجم ذلك في كتابات مسرحية رائعة منها : أدباء المظهر، والأستاذ.

بهذا نكون قد رسمنا صورة واضحة لهذا الفن الأدبي في الجزائر وما لحقه من تطور، وما بلغه من نشاط في الواقع الاجتماعي.

ومن الفنون النثرية أيضا المقالة التي اتخذت اللغة العربية لسانا لها وعبرت عن آراء ثلة من الكتاب والأدباء الذين ساهموا في انتعاشها وتطويرها.

ومن العوامل التي ساهمت في ظهور المقالة في الجزائر يعود أساسا إلى انتشار الصحافة العربية التي لعبت دورا هاما في إذاعة هذا اللون النثري الذي اتخذه جل الأدباء والمثقفين الجزائريين بابا واسعا لنشاطهم يعبرون فيه عن آرائهم الحرة ((وينشرون ما يعن لهم من أفكار، وما تجود بهم قرائحهم من موضوعات كانوا يحاولون تدبيجها بأسلوب أدبي راق))[2].

كذلك فإن هناك عوامل أخرى أذكت جذوة المقال الأدبي في الجزائر تتمثل في الصلة بالمشرق واقتفاء الأدباء والكتاب لأثر المشارقة في الكتابة ومعالجة القضايا المتعلقة بالمجتمع، إلى جانب الحركات السياسية والإصلاحية التي قامت بدور فاعل في اليقظة الفكرية، الأمر الذي أتاح لبروز كتاب للمقالة بأنواعها المختلفة، رغم وقوف الاستعمار في وجه الفكر الحر واضطهاد الصحف العربية ولكن هذا لم يمنع من ظهور أدب المقالة.

وتعد فترة أيام نشاط الحركات السياسية والإصلاحية وبخاصة جمعية العلماء المسلمين الجزائريين من أزهى فترات نشاط المقالة التي عرفت طبقة متميزة من كتاب المقالة الأدبية الذين أسهموا في تطورها وانتعاشها.

ومن الأعلام الذين عرفوا في هذه الفترة وعرفت بهم المقالة كثيرون نذكر واحدا منهم قصد التمثيل وهو الشيخ محمد البشري الإبراهيمي الذي نالت المقالة حصة الأسد في أدبه.

وللوقوف على حقيقية و طبيعة المقال عند الإبراهيمي يجمل أن نستشهد بأنموذج من مقالاته وذلك للتمثيل لا الحصر.

يقول في مقال له كتبه في أوائل سنة 1954 يتحدث فيه عن

---

[2] د.عبد الملك مرتاض ، فنون النثر الأدبي في الجزائر (1931-1954)، ص 85.

(فلسطين واليهود)، القضية التي أسالت الكثير من الحبر، وأقضت مضجع كل غيور على مقدساته.فأوضح الأمور وبين حقيقة اليهود وكشف عن أخلاقهم وطبائعهم وما يتميزون به من دسائس ومكائد في كل حركة يأتونها لعل ذلك يحمس العرب والمسلمين في حرب اليهود للدفاع عن مقدساتهم، لأن قضية فلسطين تعد من القضايا الكبرى للمسلمين التي لا يستهان بها ((قضية فلسطين في جوهرها وحقيقتها واعتبارها التاريخي قضية إسلامية من حيث إن فيها المسجد الأقصى ثالث المساجد المقدسة في حكم الإسلام، وهو أول قبلة صلى إليها المسلمون قبل الكعبة، ولئن نسخ هذا المعنى فإن الخصائص الأخرى من الاحترام الديني وشد الرحال إليه لم تنسخ، وأن المتوسمين في آيات الله المستخرجين لدقائق الحكم منها يتلمحون من الإسرار في اختيارها قبلة أولى وفي كونها كانت نهاية للإسراء وبداية للعروج ما يضعها في موضع الاحترام يوجب الدفاع عن مشاعرها، ودفع كل معتد على حرماتها أن تدنس بوثنية، وتطهيرها من كل من يريد بها شرا أو يريد فيها بإلحاد وأنها ميراث النبوة وضعه الله في أيد قادرة على حمايتها مدة أربعة عشر قرنا كاملة، وحاربت عليها أمم الأرض، وما سلبها الله من اليهود وأورثها المسلمين إلا لأن اليهود كانوا أعجز الناس عن حمايتها))[1].

ففلسطين هي رمز لملك الإسلام وامتداد له، وموطن أقدام الأنبياء ومدافنهم ((ومن حيث أن فيها الصخرة التي هي أول محطة لاتصال الأرض بالسماء، ذلك الاتصال الذي كان سببا فيما فاض على الأرض من بركات السماء، ولو شاء الله لكان المعراج بعبده محمد من مكة التي هي موطنه ولكن كانت له في هذه الرحلة الأرضية حكم ولنا فيها عبر، فقد كانت رمزا إلى أن ملك الإسلام سيتسع حتى يبلغ في مرحلته الأولى ممالك النبوة قبله ومواطنهم ومواطئ أقدامهم ومدافنهم، وسينشر فيها هدايته وسيبسط عليها حمايته وكذلك وقع، ومواريث النبوة لا يستحقها إلا الأنبياء والمضطلعون بها من أممهم))[2].

فضياع فلسطين لم يكن أبدا بالقوة العسكرية وإنما ضاعت وسلمت بأيدي المنفذين لإرادة الاستعمار من ملوك العرب وزعمائهم ((من التزوير على التاريخ أن يقال أن اليهود دخلوا فلسطين بالقوة

---

[1] محمد البشير الإبراهيمي ، آثاره، جمع وتقديم، د.أحمد طالب الإبراهيمي ، دار الغرب الإسلامي ، بيروت، جـ4 ، ط1 ، سنة 1997م، ص 397.
[2] المصدر نفسه ، جـ4 ، ص 398.

العسكرية كما يحتل القوي الغالب أرض عدوه الضعيف المغلوب، ألا إن كلمة الحق التي يقف الواقع بجنبها شاهدا لا يكذب هي أن ملوك العرب وزعماءهم المتحكمين في مصائرهم المنفذين لإرادة المستعمر هم الذين سلموا فلسطين لليهود سائغة هنية وحققوا للإنجليز غايتهم وما شرطه اليهود عليهم من تسليم فلسطين فارغة من العرب كما تسلم الدار المبيعة فارغة من الساكن، فاصطنعوا لذلك التسليم المقرر وسائل وأعذار من التخاذل والمشاكسات بين القادة العسكريين حتى تم الأمر بذلك التسليم المهين، وكل ذلك تم وفق خطة مدبرة متصلة الحلقات من الإنجليز وأعوانهم منا في مقابلة نفع مادي شخصي زائل ومناصب مضمونة لعدة رجال من العبيد باعوا قومهم بتلك الوظائف، وما زلنا نراهم رأي العين ينتقلون في تلك الوظائف الذليلة وينفذون أغراض الاستعمار ويدافعون عنها، وقد حن لهم الدهر فنالوا ما نالوا.فيما ويحهم إن عقهم الدهر وصحا من تلك اللوثة، وما صحوه منها ببعيد، وما مصرع فاروق وعبد الله ببعيد من الذين باعوا فلسطين بالثمن الزهيد، ومهما تكن تلك الوظائف مضمونة من الإنجليز فإن وراءها الموت والعار والسبة الخالدة ووراءها هبة الشعوب وثروات المكبوتين))[1].

فهذه المقالة نحسب أنها عبرت عن رأي الكاتب في القضية ودلت أيضا على مدى قدرته فقه الواقع واستيعاب قضايا الأمة.

ومهما يكن فإن المقال ((بشقيه الإنساني والإصلاحي قد رصد الواقع وتغيره وعبر عن موقف الكاتب الجزائري تجاه المجتمع ونحو قضايا شغلت أذهان الناس وكانت محور انشغالهم واهتمامهم، بحيث تنوعت الأساليب وتنوعت الموضوعات، وعني بعض الكتاب بالصياغة أكثر مما عنوا بالفكرة كما هو شأن كتاب المقال الأدبي الإصلاحي، بينما عني البعض بالفكرة أكثر من العناية بالصياغة، وكلا النوعين أسهم في تطور المقال الأدبي وفي إثرائه وإثراء الحياة الأدبية بوجه عام))[1].

هذا عن المقال أما الرسائل فهي ((مخاطبة الغائب بلسان القلم.وفائدتها أوسع من أن تحصر من حيث أنها ترجمان الجنان،

---

[1] المصدر السابق ، جـ4 ، ص 398.
[1] د.عبد الله ركيبي ، تطور النثر الجزائري الحديث (1830م-1974م)، ص 159.

ونائب الغائب في قضاء أوطاره، ورباط الوداد مع تباعد البلاد))[2].

وأدب الرسائل قد تبوأ مكانة جد هامة في النثر العربي، ونجده تغلغل في مختلف فنونه بل نجد له حضورا قويا في جميع ميادين الحياة ((ولهذا فإنه كان الوسيلة الفعالة أكثر من غيره من الفنون الأدبية الأخرى سواء كانت نثرية أم شعرية للتعبير عما يجول في خاطر الأشخاص من آراء وأفكار))[3]. والمعروف أن هذا اللون من الفن الأدبي قد عرف نقلة نوعية منذ مجيء الإسلام ؛ إذ عده الوسيلة الفاعلة في تبليغ مقاصده وبخاصة بعد أن اتسعت رقعة الخلافة الإسلامية.

وقد تميز هذا الفن ((بخصائص معينة منها الملاءمة بين الموضوع والأسلوب، والعناية بالصياغة وبالسجع بوجه خاص ومراعاة الفواصل بهدف إحداث المتعة الأدبية أو إظهار البراعة اللفظية))[1].ولكن بعد أن تحولت الرسائل عن هذه الخصائص وعمتها ظاهرة التكلف، وتعطلت طرف البيان، وتراجع الأدب العربي وبخاصة في عصر الانحطاط الذي أصيب فيه فن الترسل في النثر الجزائري بالانحدار و الضعف العام في أساليبه الأمر الذي يتعذر معه البحث عن أساليب جديدة.

وبالرغم من ذلك يمكن التمييز بين اتجاهين في الرسائل من حيث الأسلوب :

-الاتجاه الأول يسجل فيه الكاتب حضورا واضحا من حيث المشاعر والعواطف كما تظهر فيه ثقافته ومدى تمكنه من ناصية اللغة واستيعابه لمفرداتها وتراكيبها وأساليبها المختلفة، وفي الوقت نفسه نلحظ ما يدل على تأثر الكاتب بالقدامى في رسائلهم شكلا ومضمونا مع المحافظة على شخصيته الثابتة دون أن تذوب مع روح العصر المتسم بضعف الأدب العربي في الجزائر بداية الاحتلال.

وهذا الاتجاه يمثله بكل قوة (حمدان خوجة) في رسالة تنسب له كتبها لشيخه حين سافر إلى لندن، يقول : ((الحمد لله وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.سعدت إذ سعدت بك الخليقة واستنرت إذ كنت مظهر أنوار الشريعة والحقيقة، وقابلك باليمن دهر

---

(2) السيد أحمد الهاشمي ، جواهر الأدب في أدبيات وإنشاء لغة العرب ، تحقيق وتصحيح لجنة من الجامعيين ، مؤسسة المعارف ، بيروت ، جـ1، ص 44.

(3) الطاهر محمد توات ، أدب الرسائل في المغرب العربي في القرنين السابع والثامن ، ديوان المطبوعات الجامعية ، الجزائر، سنة 1993م، ص 79.

(1) د.عبد الله ركيبي ، تطور النثر الجزائري الحديث (1830م-1974م)، ص 34.

ختم بمعاليك كمالاته، وواجهك سعد السعود إذ توجك أنفس هالاته فكنت يمين اليمن والربكة وقدوة السكون والحركة، تنثال لديك طرائف المعارف فتقتبس، وتنتمي إليك معاقد المعالي فلا ترام، ولا تختلس حتى أيقنت الأفاضل بأنك مدار الشرف وأذعنت الأعادي بسعادة كونك بقية السلف الأمين على السر المصون، حامل لواء الإمارة من العلم المكنون، تاج الملة الحنيفية ومجدد تاجها ونتيجة الهمم العالية ومادة نتاجها))[1].

فهذا الأنموذج يمثل الرسالة الأدبية التقليدية في الأدب العربي، فالقارئ لها يلحظ مدى اهتمام صاحبها بما تتميز به الرسائل من خصائص فنية وبما تتفرد به من بيان ناصع وتعبير جميل، وهذا يؤكد لنا أن فن الترسل في تلك المرحلة رغم وضوح الطابع التقليدي فيه إلا أنه ما زال يحتفظ بالجمال في الصياغة وطريقة الأداء.

-أما الاتجاه الثاني فإن الكاتب يميل فيه إلى البساطة والسهولة والقصد في المعاني همه توصيل الفكرة وبلوغ الهدف ؛ لذا نلحظ اختفاء أسلوب السجع والبديع الذي ربما يبعده عن المقاصد إلا ما ورد عفوا لخاطر فأصبحت بذلك الرسالة واضحة تؤدي الغرض المطلوب.

ونجد هذا الأسلوب يتجلى بوضوح في رسائل (الأمير عبد القادر) الذي دفع بالنثر الجزائري إلى التحرر من الأساليب العتيقة و التكلف الزائد وجعله وسيلة يساير تلك المرحلة التي تعيشها الأمة، ويعبر بوضوح عن أفكاره ومواقفه تجاه القضايا التي تحدث في الواقع المعيش.

ومن هذه الرسائل ما رد به على القائد(بيجو)حين كتب له مكتوبا يعرض عليه الصلح، يقول الأمير:((إلى حضرة الجنرال بيجو.أما بعد؛ فقد وصلني كتابكم، واحتطت به علما.فذكرتم أن دولة فرنسا؛ أمرتكم بإجراء الصلح –إن أمكن- وإلا فاستعمال السيف.مع أن دولة فرنسا تعرف أنني أشد الناس رغبة في حصول العافية، وأشدهم بغضا لسفك الدماء بدون موجب شرعي.وإنها لتعلم أنني راغب في عقد الصلح وإقامة دعائمه على أساس قوي لا يتضعضع، ويشهد لذلك ما خابرتها به على يد سفيرها في طنجة. فإن ساعدت العناية الإلهية على إجراء هذا الأمر على يدكم فهو دليل على صفاء طويتكم لعباد الله تعالى، وصدق خدمتكم للدولة والشعب معا.فانظروا ما ترغبون فيه، واخبروني به على الفور بواسطة رسولي إليكم حتى أنظر

---

(1) **المرجع السابق ، ص 36.**

فيه))[1].

الناظر في هذا الرد تتضح له طريقة (الأمير عبد القادر) في كتابة الرسائل فهو لا يولي اهتماما للتأنق في التعبير ولا في البحث عن الألفاظ الصعبة والغريبة كما لا يحفل بالسجع، ولكنه يكتب كما يتكلم في لغة سهلة بسيطة تحقق مراده ومقاصده من الرسالة.

بعد ذكر هذين الاتجاهين لا يفوتنا ذكر لون من الرسائل في النثر الجزائري وجد ((في أواخر القرن الماضي لا يرقى إلى أن يكون أدبا أو فنا لا من حيث الأسلوب و لا من حيث الموضوع ولا أيضا من حيث المحتوى، فالأسلوب ضعيف وشخصية الكاتب باهتة، واللغة عادية متهافتة في أحيان كثيرة، كذلك فإن الموضوعات من نوع ما عرف بالإخوانيات أو الموضوعات الخاصة بأصحابها))[1].

وهذا النوع من الرسائل في حقيقة الأمر لا يسترعي الانتباه ولا يستأهل الوقوف والدرس فهي لم تسهم في إضافة الجديد للأدب العربي ولا في تطور فن النثر في الجزائر، وهذا يترجم الوضع السيئ الذي عاشه الشعب الجزائري في تلك المرحلة من حياته جراء تعسف الاحتلال الفرنسي الذي اثر سلبا على حياته الاجتماعية والفكرية بوجه عام .

لكن لم يبق الوضع على حاله، ففي ظل الحركة الإصلاحية التي تتزعمها جمعية العلماء المسلمين الجزائريين فقد أتيحت الفرصة للثقافة العربية الإسلامية وفسح المجال لها الأمر الذي سمح باستعادة فن النثر لمكانته ونشاطه من جانب اللغة والعبارة، أما من حيث الأسلوب فقد وجدنا الرسائل تميل إلى الوضوح ، وفي الطريقة وجدناها تتناول الموضوعات مباشرة مثل ما جاء في رسالة كتبها محمد الغسيري من سكيكدة إلى محمد صالح رمضان مدير مدرسة الحديث بتلمسان يقول : ((سلام وتحيات وأشواق..

وبعد، فقد صرفني عن مكاتبتكم، طيلة هذه المدة شؤون إدارية ومدرسية، لم أتمكن جراها من إنصاف حق الصداقة والأصدقاء، فأقدم على الأقل -بعض مالهم علي من حقوق، إن الأعمال جعلت منا أشخاصا آليين لا يتركون إلا كما تهوى- يخشى كثيرا أن تقتل فينا

---

[1] **محمد بن عبد القادر الجزائري ، تحفة الزائر في تاريخ الجزائر والأمير عبد القادر ، شرح وتعليق د.ممدوح حقي، دار اليقظة العربية للتأليف والترجمة والنشر، بيروت، ج1 ،2 ،ط2 ، سنة 1964م، ص 268-269.**

[1] **د.عبد الله ركيبي ، تطور النثر الجزائري الحديث (1830م-1974م)، ص 43.**

روح الإنتاج الأدبي والفكري، بل وأن تدعنا أشباحا بلا أرواح، أحس من نفسي تثاقلا حين أحاول رفع القلم، وأحس أن القلم يتعاصى حين أريد الكتابة والتعبير، وما أدراك ما التعبير؟ أخاله يسارع في الانحدار إلى العامية الركيكة، فلم أعد راضيا على أية كتابة أكتبها، ولا على أي تحرير أحرره.أخال أن (البصائر) قد أصبحت جريدة بسيطة عادية لا تحمل أية مقالات تستدعي التأمل والتفهم.وأحسب كل ما يرد علينا من المجلات الشرقية لم يعد يسمن ولا يغني . وحتى الأستاذ أحمد أمين لم يجئنا بجديد في كتابه (يوم الإسلام) ...

وإن تضحك فاضحك بأني أصبحت أميل إلى مطالعة مجلة (سندباد)، ومثيلاتها التي تعني بالقصص البدائي أو الابتدائي. وأجدني في شبه فلاة ملؤها السكون الرهيب ، وعمادها الفراغ السحيق الذي لا يكاد يدرك له مدى. إلى أين ألجأ؟ لجأت إلى القرآن أتلوه و أتلوه فوجدت -والحق يقال- فيه ما أغنى وكفى، من الناحية الروحانية واللفظية والبيان ...))[1].

وعن أدب الرحلات فإنه من الفنون الأدبية المعروفة عند العرب منذ القديم، وقد اشتهر من الرحالة العرب كثيرون نقلوا إلينا أخبار الشعوب الأخرى ومستوى حضارتهم.

وفي الجزائر وبخاصة في عصر الأتراك قد أسهم رحالة جزائريون بمجهودات كثيرة في مجال أدب الرحلة وكتبوا في مختلف موضوعاته لا سيما ((تلك الرحلات الدينية التي كان بقصد منها لقاء شيوخ الطرق الصوفية والاجتماع بهم أو السفر لأداء فريضة الحج))[1].

وفي العصر الحديث فهناك العديد من الرحلات تناول أصحابها موضوعات مختلفة منها تلك التي وصفوا فيها البيئة الأجنبية حيث نقلوا لنا عاداتها وتقاليدها، وهذا النوع من الرحلات في الأدب الجزائري الحديث في تلك الفترة قد تطور وبرهن فيه أصحابه عن مدى وعيهم بقضايا كثيرة رغم ضعف اللغة العربية التي أوصدت الأبواب أمامها من قبل الإدارة الاستعمارية .

هذا في القرن الماضي أما في القرن الحالي فإن فن الرحلات قد اختلف عما سبقها هدفا واتجاها وكذلك في المضمون والأسلوب وبخاصة بعد ظهور الحركة الإصلاحية المتمثلة في جمعية العلماء

---

[1] د.عبد الملك مرتاض ، فنون النثر الأدبي في الجزائر (1931م-1954م)، ص 457.
[1] د.عبد الله ركيبي ، تطور النثر الجزائري الحديث (1830م-1974م)، ص 46-47.

المسلمين الجزائريين التي اتجه علماؤها وأدباؤها في داخل الوطن إلى بث الفكر الإصلاحي بين الشعب ودعوته إلى النهوض لتغيير الواقع، كما وجدنا البعض الآخر قد اتجه إلى المشرق وأوروبا خدمة لمصالح الشعب الجزائري حيث يعرفون بقضيته العادلة كما ينقلون إليه مشاهدات تفيدهم وتصلح من أحوالهم .

وهذه الرحلات لدى هؤلاء العلماء والأدباء لم يقصدوا في موضوعاتها المتعة الفنية أو الجمال الفني ووصف المشاهدات وإنما كان همهم هو استقطاب الشعب الجزائري ودعوته للحركة الإصلاحية وربطه بأسلافه حتى يندفع إلى النهوض والعمل الجاد من أجل تحقيق أهدافه. نلمس ذلك بجلاء ووضوح من خلال رحلات ابن باديس التي جعلها تذكيرا للناس ودعوتهم إلى الرجوع لدين الله والإصلاح العام في مختلف جوانب حياتهم، كما كانت هذه الرحلات سجلا تاريخيا يمكن الاعتماد عليه في معرفة الأحداث الواقعة في تلك الحقبة.

ومما جاء في تنقلاته قوله: ((عرفتني من تنقلاتي في بضع قرى، ما في قلوب عامة المسلمين الجزائريين من تعظيم للعلم وانقياد لأهله إذا ذكروهم بحكمة وإخلاص.

ما حللت بقعة إلا التف أهلها حولي يسألون ويستمعون في هدوء وسكون، وكلهم أو جلهم منتمون للطرق من مقدم وشاوش وخوني.

ما كنت أدعوهم في جميع مجالسي إلا لتوحيد الله، والتفقه في الدين، والرجوع إلى كتاب الله وسنة رسوله،ورفع الأمية،والجد في أسباب الحياة من فلاحة وتجارة وصناعة، وعلى اعتبار الأخوة الإسلامية فوق كل مذهب وطريقة وجنس وبلد،وإلى حسن المعاملة والبعد عن الظلم والخيانة مع المسلم وغير المسلم،وإلى التزام القوانين الدولية التي لابد منها لحفظ النظام)) [1] .

وما ينطبق على ابن باديس في أدب الرحلات نجده أيضا عند كثير من رجال الحركة الإصلاحية. فالرحلات لديهم لم تكن لغرض التنزه، وإنما القصد منها توعية الناس ودعوتهم إلى الفكر الإصلاحي.

وأخيرا الخطابة التي هي موضوع البحث، وتعد من أقدم الفنون النثرية عند العرب، وقد تفردت بميزات لا نجدها في غيرها من الأنواع الأدبية الأخرى وهي ((أشد الأنواع الأدبية التزاما، لأنها تهدف أبدا إلى التأثير والإقناع، معبرة عن عقيدة الخطيب، ورأيه في

---

[1] عبد الحميد بن باديس ، آثاره ، من مطبوعات وزارة الشؤون الدينية، دار البعث ، قسنطينة ، جـ4 ، ط1، سنة 1985م، ص 225.

مشكلات الوجود، تشتد باشتداد الأزمات التي ترتبط ارتباطا جذريا بمصير الجماعة وتقرير مستقبلها، وترجحها بين النزعات والتيارات التي تحدق بها))[1].

وما من أمة من الأمم إلا تسلحت بالخطابة تصاول بها الأمم الأخرى ((لذلك لم يخل من الخطابة سجل أمة وعى التاريخ ماضيها))[2]. وهذا يدل على مدى أهمية هذا النوع من الفن الأدبي ومكانته بين الفنون النثرية الأخرى التي تحدثنا بإيجاز عن بعضها، لذلك جعلناها محل اهتمام وخصصناها بالبحث والدراسة.

الفصل الأول

الحياة العامة في الجزائر إبان الاحتلال الفرنسي

أولا : الحالة السياسية والدينية.

أ-الحالة السياسية

ب-الحالة الدينية.

ثانيا : الحالة الاجتماعية والاقتصادية.

أ-الحالة الاجتماعية.

---

(1) إيليا حاوي ، فن الخطابة وتطوره عند العرب ، دار الثقافة بيروت - لبنان - ص 8.

(2) د.أحمد محمد الحوفي ، فن الخطابة ، دار نهضة مصر للطبع والنشر، الفجالة ، القاهرة ، ط4، ص 42.

ب-الحالة الاقتصادية.
ثالثا : الحالة الثقافية.
أ-الاتجاه الطرقي.
ب-الاتجاه الإصلاحي.
جـ-الاتجاه الأدبي.

إن حديثنا عن الحياة العامة في الجزائر إبان الاحتلال الفرنسي يبدأ حين تم الغزو سنة 1830م، ومن الواضح أن وجود الاستعمار الفرنسي في البلاد وبسط نفوذه الضاغط على مقومات الشعب الجزائري قد أدى إلى تغير صورة الحياة العامة مما أوقع الأمة في أتون مكائد الإدارة الاستعمارية . فعمت بذلك البلوى في جميع نواحي الحياة.

من هنا يجمل بنا أن نتلمس بإيجاز تلك الأحداث الهامة في تاريخ الجزائر الحديث لإعطاء صورة واضحة عن واقع الحياة في مختلف أحوالها وبخاصة الثقافية منها.

أولا : الحالة السياسية والدينية :

أ – الحالة السياسية :

إن الاحتلال الفرنسي في الجزائر كان يهدف بسياسته إلى ((المحو التام للكيان الجزائري مع كل ما تستلزمه هذه السياسة من نتائج : محو اللغة، والتاريخ، والحكومة، والرموز الوطنية الأخرى))[1]، من أجل ذلك حملت الإدارة الاستعمارية على كاهلها مسؤولية إدارة تلك الأعمال لتحقيق أهدافها التي تراها من أولويات عملها في تكريس وجودها واستمرارها في الجزائر.فالشعب الجزائري في نظرها ((شعب من الدرجة الثانية أو الثالثة،لا يستحق الاحترام والتقدير، ولا يستأهل العناية والمساعدة والتطور))[2].

لذلك تم عزله إداريا وسياسيا،وهذا أمر طبيعي في رأي القائمين على تلك الإدارة في الجزائر.

وعموما فإن نظرة الاحتلال الفرنسي للشعب الجزائري كانت نظرة احتقار وتهميش ولا يعامل إلا بغلظة وجفاء ((ولا ضرورة لأنه

---

[1] د.أبو القاسم سعد الله ، الحركة الوطنية الجزائرية 1900م – 1930م ،ج2 .ص 61.
[2] د.يحيى بوعزيز ، ثورة 1871م دور عائلتي المقراني و الحداد ، الشركة الوطنية للنشر و التوزيع ، الجزائر ، ص 35-36.

يسوسهم أناس عرفوا بالعبقرية الإدارية والحربية، بل أناس من أوساط القوم يأمرون وينهون، ويفعلون بهم ما شاءت لهم الأهواء أن يفعلوه))[1].

على هذا النمط كانت تدار شؤون الحالة السياسية المضطربة في الجزائر، وبخاصة بعد صدور ما يضمن الحصانة القانونية للمستوطنين ومنحهم كل الصلاحيات في حكم الجزائر باعتبارها أرضا مفتوحة وأن سكانها في نظرهم شعب مغلوب ليس له من الحق والمساواة شيء يذكر، وما زاد الأمر تعقيدا تلك القوانين الاستثنائية الرهيبة التي فرضت على الشعب الجزائري قصد كبح جماحه وفرض العقوبات على الثائرين منه؛ المتمثلة في أنواع المخالفات والجنح التي نص عليها قانون الأنديجينا[2].

قد تأذى الشعب الجزائري جراء تلك القوانين في مصالحه العامة ولم يكن هناك مخرج إلا الثورة كوسيلة للخلاص من ذلك.

فالجزائريون منذ تلك الفترة الزمنية المظلمة لم يغمض لهم جفن ولم يهدأ لهم بال، بل بقوا على هذه الحالة طيلة الحقبة الاستعمارية، وهذا يعطينا صورة واضحة عن حقيقة هذا الشعب المقاوم بثوراته المتعاقبة بدءا من قيام ثورة الأمير عبد القادر الجزائري سنة 1832م إلى الثورة التحريرية الكبرى عام 1954م، ولكن تآمر القوى الاستعمارية وتحالفها ضد الجزائريين أرغمهم على العدول عن خطة المقاومة في مرحلة من مراحل الاستعمار فأغمدوا السيوف و امتشقوا الأقلام و بخاصة بعد صدور قانون* إلغاء معظم الإجراءات التعسفية في اليوم الرابع من شهر فبراير سنة 1919م التي كان يعاني من أحكامها الأهالي، وقد أحدث هذا القانون تغييرا في الساحة السياسية الجزائرية، بحيث أصبح لبعض الجزائريين الحق في الانتخابات العامة كما أتيح لآخرين المشاركة والترشح لبعض المناصب السياسية، مما أحدث تغيرا في الساحة السياسية الجزائرية، حيث ظهرت حركات

---

[1] مجاهد مسعود ، تاريخ الجزائر ، المكتبة الوطنية – الجزائر – ج1، سنة 1966م. ص 126.

[2] أنظر أحمد توفيق المدني، كتاب الجزائر، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر ،سنة 1984م ، ص325-328.

*** هذا لا يعني أن ذلك الإجراء القانوني تم تنفيذه مباشرة من قبل الحكومة الفرنسية بمجرد إصداره ، و إنما لاقى معارضة شديدة وضغطا كبيرا من قبل المعمرين ، بالتالي ظل قانون الأنديجينا قائما في كثير من بنوده .**

سياسية** كان لها الأثر الكبير والدور الفاعل في تغير مجرى الأحداث ورسم صورة للحياة السياسية في الوطن الجزائري، من هذه الحركات السياسية تطالعنا حركة (الأمير خالد) الذي انتهز فرصة صدور قانون فبراير 1919م فأعلن عن حركته الوطنية التي اتجه بها ((اتجاها سياسيا يعتمد على تنظيم صفوف الشعب وتبصيره بقضاياه ومطالبة المستعمرين بحقوقه الوطنية وحقوق شعبه وأمته))[1] ولكن سرعان ما أخفقت هذه الحركة تحت وطأة تضييق الخناق عليها من قبل الإدارة الاستعمارية وتم نفي الأمير خالد.

وفي سنة 1926م أنشئ النجم ((على يد جماعة من أهالي أفريقيا الشمالية ، وكان أكثرهم من الجزائر، وقد أعلن عن الأمير خالد رئيسا شرفيا له، ولكن شيئا فشيئا فقد النجم أعضاءه التونسيين والمغاربة وأصبح منظمة جزائرية خالصة))[1]وقد أحدثت تغييرا عظيما في التاريخ السياسي للجزائر بتدعيم الحركة الوطنية بشكل فاعل، إلا أن النجم واجه عقبات مختلفة من قبل السلطات الفرنسية فتم أخيرا حله، وبعده أعلن عن ميلاد (حزب الشعب الجزائري) الذي احتفظ ((في هيئته الإدارية بأغلب مسؤولي النجم السابقين))[2]، وقد تبنى مبادئ جريئة كان أصحابها من الوطنيين الجزائريين يطالبون بها مما يدل على نضج النظرة السياسية وعمقها لدى هؤلاء المناضلين، ولكن حل الحزب ولوحق أتباعه وسجنوا.

وفي الخامس من مايو سنة 1931 ظهرت حركة إصلاحية دينية أسسها الشيخ عبد الحميد بن باديس الذي انتخب رئيسا لها فيما بعد إلى أن وافته المنية، وقد تعرضت هذه الجمعية هي الأخرى إلى الضيق والمحاصرة مثلها مثل بعض الأحزاب المحضورة آنذاك وتعرض أتباعها للاعتقال.

وبعد إطلاق سراح المعتقلين السياسيين منهم سجناء جمعية العلماء المسلمين الجزائريين سنة 1943م، كانت تلك السنة بداية تحول وانطلاقة جديدة للنشاط السياسي في الجزائر.

**** حديثنا عن هذه الحركات سيكون عن بعضها فقط و ذلك قصد الإشارة لا الإحاطة.**

[1] محمد خير الدين ، مذكرات ، المؤسسة الوطنية للكتاب ، الجزائر، جـ2 ، ص 14-15.

[1] د.أبو القاسم سعد الله ، الحركة الوطنية الجزائرية ، 1900-1930 ، ج2 ، ص 414.

[2] د.أحمد الخطيب ، حزب الشعب الجزائري ، المؤسسة الوطنية للكتاب ، الجزائر، ج1 ، سنة 1986م ، ص 220.

وبهذه المناسبة يحسن بنا أن نعود إلى الحديث عن جمعية العلماء المسلمين الجزائريين التي تعد بحق من أهم الجمعيات التي أدت دورا فاعلا في حياة الأمة بما عرفت به من نشاط إصلاحي في مختلف المجالات.ففي المجال السياسي اتسم نشاطها ((بالمرونة والتكيف مع الظروف، فعندما يشتد الضغط الاستعماري يخف نشاط العلماء وتظهر استعانتهم بعبارات التورية والمسالمة، وعندما يسود التسامح يعود النشاط إلى البروز بوسائل مختلفة، وعلى الرغم من كل الظروف فإن مبادئ العلماء وأهدافهم لم تتغير في جوهرها))[1]، وهذا يعطينا فكرة عن ممارسة الجمعية لنشاطها المحفوف بالأخطار، وبالرغم من ذلك فقد استطاعت أن تتأقلم مع الواقع وتكيف الظروف لصالح مبادئها التي من أجلها تأسست، حتى وإن أدى ذلك إلى التحالف مع معارضيها من أجل تحقيق مقاصدها مما جعلها أحيانا عرضة للنقد ممن لم يفهموا حقيقة خطتها، من ذلك مثلا مسالمة الشيخ عبد الحميد بن باديس للحكومة الفرنسية التي يبدي فيها اعترافا للواقع السياسي دون أن ينسى التأكيد على الشخصية الوطنية الجزائرية التي كانت مستهدفة من الحكومة الفرنسية يقول : ((إن الأمة الجزائرية امة ضعيفة ومتأخرة، فترى من ضرورتها الحيوية أن تكون في كنف أمة قوية عادلة متمدنة لترقيها في سلم المدنية و العمران وترى هذا في فرنسا التي ربطتها بها روابط المصلحة والوداد، فنحن نخدم للتفاهم بين الأمتين ونشرح للحكومة رغائب الشعب الجزائري ونطالبها بصدق وصراحة بحقوقه لديها، ولا نرفع مطالبنا أبدا إلا إليها، ولا نستعين عليها إلا بالمنصفين من أبنائها))[1].

ولفهم المنهجية المتبعة في العمل السياسي لهذه الجمعية لابد من تتبع مراحل نشاطها بدءا من سنة التأسيس إلى اندلاع الثورة التحريرية الكبرى .

ففي السنتين الأوليين من تأسيس الجمعية لم يسجل أي نشاط سياسي يذكر بل كانت تلتزم الحيطة والحذر مراعية الظروف السياسية القائمة، ربما لأنها كانت منشغلة بشؤونها الداخلية التي تحتاج إلى رص الصفوف وتصفيتها من الشوائب كما أنه لم يطرأ أي تغير في الساحة السياسية إلا ما كان يذكر من حديث حول التجنس

---

[1] **د.أحمد الخطيب ، جمعية العلماء المسلمين الجزائريين و أثرها الإصلاحي في الجزائر ، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر ، سنة 1985م ، ص 236-237.**

[1] **الشهاب ، م6 ، جـ11، أوت 1935م ، ص 365.**

والاندماج، وموقفها إزاء هاتين القضيتين كان واضحا ذلك ما يستشف من خلال قول ابن باديس:((إن هذه الأمة الجزائرية الإسلامية ليست هي فرنسا، ولا يمكن أن تكون فرنسا، ولا تريد أن تصير فرنسا، ولا تستطيع أن تصير فرنسا ولو أرادت.بل هي أمة بعيدة عن فرنسا كل البعد في لغتها وفي أخلاقها وفي عنصرها، وفي دينها، لا تريد أن تندمج.ولها وطن محدود معين هو الوطن الجزائري بحدوده الحالية المعروفة))[2].

بهذا الموقف دخلت الجمعية في صراع مع الإدارة الاستعمارية التي تحاول تجني وإدماج الشعب الجزائري والسعي إلى مسخ هويته .

وفي سنة 1936 دعا ابن باديس إلى عقد مؤتمر إسلامي بالجزائر و قد لبت نداءه جمعيات هامة وهيئات سياسية بحضور جمعية العلماء المسلمين الجزائريين.

وخرج هذا المؤتمر بمطالب جادة رفعت إلى الحكومة الفرنسية إلا أن تلك المطالب بقيت رهن المماطلة و التسويف من كل الحكومات الفرنسية المتعاقبة، وبالرغم من ذلك لم ييأس أعضاء المؤتمر الإسلامي من المطالبة، وكان أخر لقاء لهم برئيس الحكومة الفرنسية (دلاديه) الذي واجههم بقوله : إن ((البرلمان معارض لمشروع فيوليت ولا يظهر عليه أن يعتبر المواطنة الفرنسية تتناسب مع الحالة الشخصية الإسلامية.وأمام هذا الوضع فإنني لا أستطيع أن أتولى أي شيء، إنني أسألكم أن تعينوني على الإبقاء على النظام ، ولا تضطروني إلى استعمال القوة التي تملكها فرنسا لأن فرنسا أمة قوية.فرد عليه ابن باديس بقوله : ليس هناك سلطة ولا قوة سوى سلطة وقوة الله . قضيتنا عادلة وسنواصل الدفاع عنها عند كل من يقف في طريقها))[1].

أما المرحلة الثانية من مراحل النشاط السياسي لجمعية العلماء المسلمين الجزائريين فقد تميز بالعمل الجماعي مما أعطى روحا تغيرية للفكر السياسي في الجزائر وفتح مجال واسعا للجمعية في المشاركة الفاعلة لتكوين مستقبل السياسة الجزائرية .

---

[2] **المصدر نفسه ، م1 ، جـ12 ، أفريل 1936م ، ص 44.**

[1] **د.أبو القاسم سعد الله، الحركة الوطنية الجزائرية (1900م-1930م)، معهد البحوث والدراسات الوطنية القاهرة ،جـ3،ط2، سنة 1973م، ص 181.**

وفي ديسمبر 1943م بمدينة قسنطينة أعلن الجنرال (دي قول) في خطاب له عن إصلاحات تنوي الهيئة الفرنسية للتحرير الوطني تطبيقها في الجزائر جاء فيه ((إن هيئة التحرير قررت بادئ ذي بدء إسناد حقوق المواطن الكاملة فورا إلى عدة عشرات من آلاف المسلمين الفرنسيين بالجزائر، ولا يقبل أي منع أو تحديد لممارسة هذه الحقوق باعتراضات أساسها قانون الأحوال الشخصية وسترتفع في نفس الوقت نسبة المسلمين الفرنسيين في مختلف المجالس التي تتناول المصالح المحلية ، ويرتبط بذلك فتح عدد كبير من الوظائف الإدارية في وجه الذين لهم قدرة على الاضطلاع بها))[1].

لقد قوبل هذا المشروع بالرفض من قبل المنظمات الوطنية إذ ندد به الشيخ محمد البشير الإبراهيمي، وواجهه مصالي الحاج بنفس الانتقاد، واتخذ فرحات عباس إزاءه موقفا مشابها، وتقدمت الأحزاب السياسية والجمعيات الوطنية بمقترحات سياسية تطالب بها السلطات الاستعمارية لكن لم تستجب لتلك المقترحات، بل أرادت فرض وصايتها على الشعب الجزائري بما تراه من أوامر إصلاحية تملى عليه.فجاء الرد على ذلك بتشكيل جبهة موحدة تضم النواب وحزب الشعب وجمعية العلماء تحت اسم أحباب البيان والحرية في 14 مارس 1944م.

وقد قامت هذه الجبهة بدور فاعل أقلق الإدارة الاستعمارية وبخاصة في ظل بعض التساهل الإداري مما دفع بأحد غلاة المعمرين إلى القول ((ستحدث اضطرابات وستجبر الحكومة على التراجع في أمر 7 مارس))[2] وقد هيأ هذا أجواء مواتية للتصادم بالقوة.

ففي الفاتح من ماي 1945م ((نظم حزب الشعب مظاهرات احتجاج ضد إبقاء مصالي الحاج في الإقامة الجبرية، أسفرت في العاصمة عن مقتل جزائري ، وجرح عدد من المواطنين ، وكذلك في مدينة سطيف تظاهر أكثر من أربعة آلاف فلاح. وكانت هذه المظاهرات بمثابة إنذار خطير، كان الجو مكهربا، وكانت الحالة تنذر بالويل))[1].

---

[1] شارل أندري جوليان ، أفريقيا الشمالية تسير ، ترجمة المنجي سليم و آخرون ، مراجعة فريد السوداني ، الدار التونسية للنشر ، تونس الشركة الوطنية للنشر و التوزيع ، الجزائر ، سنة 1976 ، ص 326.

[2] المرجع نفسه ، ص 330.

[1] فرحات عباس ، ليل الاستعمار ، ترجمة أبو بكر رحال –المغرب- جـ1 ، ص 187

بعد ذلك جاءت أحداث 8 ماي 1945م حين تظاهر الجزائريون في سطيف يطالبون بحقوقهم الشرعية، لكن تصدت لهم الشرطة محاولة تفريقهم وأخذ الراية من حاملها الذي رفض تسليمها فتم إطلاق النار عليه من قبل الشرطة ، فتفرق المتظاهرون ودبت الفوضى ووقع رد فعل المتظاهرين العزل لكنه أعقبه قمع وحشي من قبل الاحتلال الفرنسي ذهب ضحيته عدد كبير من الجزائريين في سطيف وغيرها من المدن المجاورة في الشرق الجزائري حين أرسلت ((بعثات انتقامية، وصرعوا رميا بالرصاص وبدون محاكمة عشرات من الأهالي أخذوهم على غرة.وشاركت في القمع عناصر من أقصى اليسار ومن (الفاشيين) على حد سواء))[2].

هكذا تمت تلك المذبحة الشنيعة التي تعرض لها الشعب الجزائري على يد الاحتلال الفرنسي،وبالرغم من ذلك فإن من نتائجها المباشرة أن الحياة السياسية قد وجهتها توجيها ثوريا وأكسبتها منطلقات جديدة وأغنتها بالوعي وهيأت لها سبلا تسلكها على بينة من الأمر،وربما كانت أيضا السبب الرئيسي في اندلاع الثورة التحريرية الكبرى في الأول من نوفمبر 1954م التي ألقت بكل الجزائريين في أحضانها إلى أن تم لهم النصر.

ب- الحالة الدينية :

الذي يتصفح تاريخ الجزائر قبل مجيء الإسلام يلاحظ أن البلاد قد تعرضت لهزات عنيفة كانت سببا رئيسا في عدم استقرارها ، ولما جاء المسلمون إلى الجزائر فاتحين ومعهم دستور محكم ((لا يخرجون في أحكامهم عنه ، هو كتاب الله، وأتوا بقاعدة جديدة هي من أسلم فقد أصبح منا له ما لنا وعليه ما علينا))[1].

كان من نتائج ذلك أنه سرعان ما انتهى التصادم و أسلم سكان الجزائر وحسن إسلامهم، وظلوا مدة طويلة من الزمن متمسكين بإسلامهم إلى غداة الهجوم الفرنسي على البلاد سنة 1830م ((وكانت الحكومة الفرنسية في هجومها هذا ترمي إلى هدف غير شريف، فإنها كانت تهدف إلى سلب الشعب حريته بالاستيلاء على بلاده غصبا

---

[2] شارل أندري جوليان ، أفريقيا الشمالية تسير ، ص 335.
[1] أحمد توفيق المدني ، كتاب الجزائر ، ص 77.

واستعمارها استعمارا سياسيا وصليبيا أيضا))[2]، إذ يعد استهداف الدين الإسلامي في نظر المحتلين القضية الأساسية لاستقرار الأوضاع، وذلك بإجراء تحويل في عقائد الناس من الإسلام إلى المسيحية وإذا لم يتسن لهم ذلك فليكن الانحلال والتميع، ولكن واجه الشعب الجزائري هذه التحديات بقوة التمسك بالدين مما جعل الإدارة الاستعمارية تخشى من تحول ((تعليماته ودروسه وعظاته إلى إيمان يملأ نفوس الأفراد والجماعات، وبالتالي تستيقظ هذه الروح النائمة فتهدد كيان وجودها في الجزائر))[3].لذلك شنت حربا صليبية للقضاء على مكونات الشخصية الدينية في الجزائر. مما أثر سلبا في حياة الشعب الجزائري ، وسجل جوا اجتماعيا مضطربا تراجعت فيه الشخصية الدينية ويظهر ذلك في أكثر من مجال من مجالات حياة المجتمع الجزائري.

1- المساجد :

لا يخفى على أحد ما للمسجد من مكانة في نفوس المسلمين ودور هام في حياتهم، فالعناية بالمساجد كانت سمة بارزة في المجتمع الجزائري المسلم، فلا تخلو قرية أو حي من أحياء مدن الجزائر من وجود مسجد يتوسطها مما يدل على أنه((ملتقى العباد، ومجمع الأعيان ومنشط الحياة العلمية والاجتماعية، وهو قلب القرية في الريف وروح الحي في المدينة))[1].

فدور المساجد في بناء الأمة لم يكن خافيا على الإدارة الاستعمارية لذلك كانت تستهدفها، وبالفعل منذ أن بدأ الاحتلال الفرنسي للجزائر كانت جيوشه كلما استولت على مدينة من مدن البلاد تسرع إلى مساجدها تهدمها أو تحولها إلى كنائس أو مخازن أو متاحف...و هذا يدل على مدى حقد الاحتلال الفرنسي على الإسلام وأهله، ويتجلى ذلك بوضوح من خلال خطاب سكرتير الحاكم في قسنطينة أثناء الاحتفال بتحويل مسجد (صالح باي) إلى كنيسة ، يقول : ((إن آخر أيام الإسلام قد دنت، وفي خلال عشرين عاما لن يكون للجزائر إله غير المسيح، و نحن إذا أمكننا أن نشك في أن هذه

---

(2)عبد الرحمان الجيلالي،تاريخ الجزائر العام، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر،جـ3، ط7،سنة 1994م،ص 3.

(3) د. حكمة أبو زيد ، التربية الإسلامية و كفاح المرأة الجزائرية ، مكتبة الأنجلو المصرية ، القاهرة ، ص 102.

(1) د.أبو القاسم سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، دار الغرب الإسلامي، بيروت، جـ1(1500م-1830م)، ط1، سنة 1998م ، ص 246.

الأرض تملكها فرنسا فلا يمكننا أن نشك على أي حال أنها قد ضاعت من الإسلام إلى الأبد، أما العرب فلن يكونوا مواطنين لفرنسا إلا إذا أصبحوا مسيحيين جميعا))[1].

تلك هي مقاصد الاستعمار الفرنسي في الجزائر، فشغله الشاغل القضاء على كل ما له علاقة ببناء الشخصية الوطنية. ومن جراء ذلك كله ألمت بالشعب الجزائري مصائب نكب بها ولكن ((لم تزعزع إيمانه ولم يستول عليه اليأس أو الضعف، بل كان يعتقد أنه إنما يقاسي محنة عارضة فلا بد أن يسترجع يوما ما ضاع من شرف، وسيحيا في أرضه حرا سعيدا)) [2].فنهضت أحزاب وجمعيات تقاوم الاحتلال في الداخل والخارج، و نشير هنا بالتحديد إلى موقف جمعية العلماء المسلمين الجزائريين إزاء قضية المساجد التي تراها مؤسسات تؤدي دورا مهما في تبليغ رسالة الجمعية و مكانا للتعبد ومدرسة لتعليم المجتمع وإصلاحه و توجيهه، و قد أشار ابن باديس إلى ذلك في قوله: ((إذا كانت المساجد معمورة بدروس العلم فإن العامة تنتاب تلك المساجد تكون من العلم على حظ وافر وتتكون منها طبقة مثقفة الفكر صحيحة العقيدة، و بصيرة بالدين فتكمن هي في نفوسها ولا تهمل -وقد عرفت العلم وذاقت حلاوته- تعليم أبنائها وهكذا ينشر العلم في الأمة و يكثر طلابه من أبنائها))[3].

لا شك أن مثل هذا الاهتمام من قبل الجمعية بالمساجد قد أقلق الإدارة الفرنسية مما جعلها تأخذ موقفا عدائيا إزاءها وذلك بإغلاقها ومنع العلماء من إلقاء الدروس فيها حتى تعطل دورها الرسالي في بناء المجتمع، وقد سبب هذا تراجعا خطيرا في الجانب العقدي للأمة وفسح المجال للخرافات والأباطيل و ظهور الكثير من الزوايا والطرق التي ساهمت في ((إحداث وثنية في الإسلام ما أنزل الله بها من سلطان وأصبح شيخ الطريقة أو المرابط في كثير من النواحي يتصف بأوصاف الربوبية ، فهو الذي يعطي وهو الذي يمنع وهو الذي يقبض وهو الذي يبسط هو منبع كل خير ومصدر كل شر))[1] وهذا الوضع استثمرته الإدارة الاستعمارية وانتفعت به مستغلة تلك العلاقة

---

(1) جونسون و آخران ، الجزائر الثائرة ، ترجمة محمد علوي و آخران ، وزارة الإرشاد القومي القاهرة ، سنة 1957م، ص 41.

(2) محمد الطمار ، تاريخ الأدب الجزائري ، الشركة الوطنية للنشر و التوزيع ، الجزائر ، سنة 1981م ، ص327.

(3) الشهاب ، م 6 ، جـ 11 ، ديسمبر 1930 ، ص 692-693.

(1) أحمد توفيق المدني ، كتاب الجزائر ، ص 376.

الحميمة بينها وبين الطرق التي قدمت لها خدمات جليلة ساهمت في تكريس تواجدها.

2- الأوقاف :

الوقف مظهر من مظاهر الحضارة الإسلامية، وجد أساسا للتعبير عن إرادة الخير في المجتمع المسلم ومن إحساسه بالتكافل والتضامن الاجتماعي، وقد نمت الأوقاف في بلاد المسلمين نموا كبيرا فتعددت أوجهها ومقاصدها، وتفننوا في أنواعها لما كانت تؤديه من خدمات جليلة لفئات كثيرة من المجتمع المسلم ؛ إذ كانت تستعمل في العناية بالعلم والعلماء وبناء المساجد والمدارس وفي مساعدة المعوزين ورعاية اليتامى. ومثل هذه الخدمات لا يستهان بها بما تدره من خير يعود على الأمة من أجل ذلك ((أنشأت الحكومة الجزائرية المسلمة هيئة مسؤولة تسهر على هذه المصلحة وتشرف على تسييرها بضبط ما تنتجه من دخل وما ينفق عليها من الخرج وما يقتضيه الحال من بذل الوسع لحفظها من التلف وكل ذلك يجري وفق ما تشير إليه نصوص الواقفين المتركزة على قواعد الشريعة الإسلامية))(1).

وقد انتفعت فئة عريضة من الشعب الجزائري المسلم بهذه الأوقاف وتوسعت دائرتها حتى شملت كثيرا من أنحاء الوطن، وأصبحت عنوانا للتكافل والتضامن الاجتماعي في الجزائر، ولكن بعد تمكن الاحتلال الفرنسي من بسط نفوذه الكامل على التراب الجزائري استولى على أوقاف المسلمين وعطلها عن دورها المنوط بها وجعل يتصرف في أملاكها ويتحكم في رقاب كثير من الأئمة وغيرهم من الموظفين الذين كانوا يتقاضون أجورهم من عائدات الأوقاف، بل ذهب إلى أبعد من ذلك حين بلغ به الأمر ((أن لا يعين إمام أو فقيه إلا إذا شارك في أعمال الجاسوسية الفرنسية، ثم عليه لكي يرتقي في الرتبة أن يثبت قدرا كبيرا من الحماس و الإخلاص للإدارة))(2).

ومثل هذا التصرف كان سببا مباشرا في خنق الحريات وسلب الإرادات وتعطيل الطاقات، بل القصد من وراء ذلك كله إذلال الشعب الجزائري وإرغامه على الردة.

قد اتبع الاحتلال الفرنسي سياسية مجحفة للقضاء على الشخصية الدينية في الجزائر بالرغم من نداءات الأحزاب و الجمعيات المطالبة بحقوق الشعب الجزائري، وبخاصة ما يتعلق بقضية فصل

---

(1) عبد الرحمان الجيلالي ، تاريخ الجزائر العام ، جـ3 ، ص 423.
(2) جونسون و آخران ، الجزائر الثائرة ، ص 172.

الدين عن الدولة التي كثيرا ما طالبت بها جمعية العلماء المسلمين الجزائريين لإدراكها أنه لا يمكن الحفاظ على شخصية المجتمع الجزائري طالما الإدارة الاستعمارية تضع يدها على أوقاف المسلمين تستغلها لصالحها و تنفقها في غير وجهها.

وقد حاولت الجمعية مرارا دفع النواب المسلمين إلى النظر في القضية لكن دون جدوى ، ما دفع الشيخ محمد البشير الإبراهيمي إلى القول محذرا النواب من سياسة المراوغة و الخداع من قبل الإدارة الفرنسية ((أتدرون لماذا أوقف البرلمان الفرنسي تنفيذ قانون الفصل عليكم مع أنه لو تولى تنفيذه لأراح و استراح ؟.

إنها لعبة شيطانية بكم من دهاة الاستعمار ، إنها توريط لكم ، إنهم يريدون أن يحركوا النار بأيديكم، إنهم كانوا على اتصال بالحكومة الجزائرية ، و كانوا على ثقة من أن المجلس الجزائري سيتم كما يريدون ، و قد تم كما أرادوا ، و أنهم لا ينتخبون له إلا كل سامع مطيع، و أن الحكومة ستوحي إليهم بأن لا يرضوا بفصل الدين عنها، فتكون النتيجة التي تذيعها فرنسا في العالم أن المسلمين لم يرضوا بانفصال دينهم عنها ، فتفوز مرتين ، ويخسر المسلمين شيئين: الدين و السمعة))(1).

فالشيخ محمد البشري الإبراهيمي يدرك تمام الإدراك نوايا و مقاصد الإدارة الفرنسية من قضية فصل الدين عن الدولة ؛ فهو يريد من فرنسا أن ترفع يدها عن الإسلام و أوقاف المسلمين في الجزائر حتى يتسنى لهم ممارسة حياتهم الطبيعية و فق عقيدتهم الإسلامية ، لكن فرنسا تعرف أن ذلك يخلط عليها أمورها مما جعلها تتشبث بعدم فصل الدين عن الدولة فهي تسعى دوما لتكريس استمرار حكومتها في تشبثها بقضية عدم فصل الدين عن الدولة ، و هذا ما لم ترض به الأمة ، و دفع بالشيخ الإبراهيمي إلى تحذير النواب المسلمين في البرلمان من خداع و مراوغات الإدارة الاستعمارية و عدم تنفيذها قانون الفصل.

3- القضاء الإسلامي :

عرف القضاء الإسلامي في سائر بلاد المسلمين، ويعد الدعامة الأساسية في بناء الدولة الإسلامية، و قد سجل تاريخ القضاء الإسلامي أروع مثال في استقلاليته ونفاذ سلطانه على الجميع دون

---

(1) **محمد البشير الإبراهيمي ، عيون البصائر، الشركة الوطنية للنشر و التوزيع ، الجزائر ، ط2 ، سنة 1971، ص 199.**

تحيز أو محاباة. وقد كان في الجزائر قبل الاحتلال الفرنسي يحظى بمنزلة مرموقة وسمعة طيبة كما هو الحال في سائر بلاد المسلمين لا يتولاه إلا من توفرت فيه شروط النزاهة والاستقامة وغزارة العلم وجلال التقوى .

ولكن حين وقع الاحتلال على الجزائر بدأت صورة القضاء الإسلامي في التغير وذلك بالتضييق عليه بإصدار أوامر تعسفية تحد من سلطته و تدفعه إلى التراجع عن الحكم بين المسلمين مع إحلال القوانين الفرنسية محله قصد استهداف الشخصية العربية الإسلامية في الجزائر. فكانت تلك القوانين الخانقة للقضاء الإسلامي تصدر تباعا حتى أصبح محصورا في ((الأنكحة والمواريث وتنفيذ أحكام قضايا الصلح))[1]. علما بأن القضاء بين المسلمين في أحوالهم الشخصية والمالية والجنائية جزء لا يتجزأ من دينهم، وفرنسا كانت تعلم ذلك لكنها تريد فقط إلغاء القضاء الإسلامي؛ لذا لا نستغرب حين نسمع قول الأميرال (دي جيدون) : ((يجب أن يزول القاضي المسلم أمام القاضي الفرنسي إننا نحن الغالبون))[1].

فهذا الموقف المجحف أثر سلبا في حياة المسلمين في الجزائر كما سبب اضطرابات وفوضى في المحاكمات مما دفع بهم إلى الشكوى من نتائج تلك المحاكمات الظالمة ووضع حد لهذه الحالة المضطربة.فتقدمت جمعية العلماء المسلمين الجزائريين بجملة من المقترحات في أصول إصلاح القضاء الإسلامي في الجزائر لكن قوبلت بالرفض واللامبالاة من الإدارة الفرنسية ومن هذه المقترحات :

-التعليم القضائي : لا يتم هذا إلا بتوسيع برامج التعليم القضائي باللغة العربية، وفتح باب له علاقة وطيدة بعلوم أساسية تخدمه كالفقه، والأصول ، والتفسير، والحديث وتاريخ القضاء في الإسلام، و فلسفة التشريع ، وعلم النفس.كذلك فسح المجال للعلماء المدرسين المتخرجين من جامع الزيتونة أو غيره لتلقين الطلبة تلك العلوم المتخصصة.

- الوظائف القضائية : و يكون هذا بفتح أبواب التوظيف في سلك القضاء أمام المتخرجين من جامع الزيتونة أو غيره من المعاهد الأخرى.

---

(1) أحمد توفيق المدني ، كتاب الجزائر ، ص 336.

(1) CHR. AGERON. Histoire de l'algerie contemporaine . que sais-je? PUF . PARIS . 1977 . P 62.

- **السلطة العليا** : تتم بتكون مجلس قضائي أعلى مستقل عن القضاء الفرنسي يتولى مهمة اختيار القضاة و التكفل بكل ما يتعلق بهذه الوظيفة.

- **محاكم الاستئناف** : يجب أن تكون محاكم استئناف إسلامية تتولى مهمة تسيير الأحكام القضائية الاستئنافية ؛ إذ تعد هذه القضية من القضايا المهمة في القضاء الإسلامي ، لأن حكم القاضي المسلم لا ينقضه إلا قاضي مسلم[1].

فكل هذه المقترحات لم تلق استجابة من قبل الإدارة الفرنسية مما عمق معاناة الشعب الجزائري بخنق حريته و حرمانه من حقه في دينه الذي لا يريد بديلا له.

4- **التنصير** :

حين تم احتلال الجزائر بدأت الإدارة الاستعمارية في تنفيذ مخططها بشتى الطرق محاولة إغراء الشعب الجزائري و إرغامه على الردة بالتخلي عن دينه و ذلك بابتداع فكرة الإدماج ، لكن هذه السياسة فشلت بتمسك الجزائريين بدينهم ووطنيتهم مما جعل الاحتلال الفرنسي ينظر إلى الدين الإسلامي على أنه العائق الوحيد في عدم إنجاح سياسة التفرقة والإدماج، وهذا جعله يخطط للقضاء على هذا الدين بانتهاج سياسة التنصير التي هي محاولة إفراغ نفوس الجزائريين من دينهم و إحلال محلها عقيدة النصرانية، وقد تجلت هذه السياسة بما صرحت به الإدارة الفرنسية غداة احتلالها لعاصمة البلاد عام 1830م ((بأن من جملة أهدافها من وراء عملية غزو الجزائر هو العمل على نشر المسيحية فيها والقضاء على الإسلام))[2]، وقد باشرت عملها هذا بمساهمة عدد كبير من المبشرين الذين يتلقون الدعم من الحكومة الفرنسية لبسط نفوذها الكامل على التراب الوطني، وعلى هذا الأساس كان التنصير تصحبه أعمال عسكرية توسعية يقودها ((بعض الضباط الذين يعتبرون أنفسهم جنود المسيح في إفريقيا))[1]، وهذا يعطينا فكرة واضحة عن موقف المسؤولين الفرنسيين إزاء التبشير في الجزائر على مستوى أقاليمها.

---

(1) أنظر : محمد خير الدين ، مذكرات ، جـ2 ، ص 41-42.

(2) د.تركي رابح، دراسة تربوية للشخصية الجزائرية، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر ، ط2 ، ص109.

(1) مصطفى الأشرف ، الجزائر الأمة و المجتمع ، الترجمة من الفرنسية د.حنفي بن عيسى ، المكتبة الوطنية للكتاب، الجزائر ، سنة 1983م ، ص 275.

وقد استغل المبشرون نتائج تلك الحرب المعلنة ضد مقومات الأمة فباشروا نشاطهم على النحو التالي :

- **في صورة ترغيب** تتمثل في خدمة الإنسانية وتحريرها من التخلف وتوفير التعليم، وفتح الملاجئ وغيرها من الأعمال الخيرية.

- **عن طريق الترهيب** وذلك باستعمال القوة كالاستيلاء على المساجد وغلق

أبواب منابع العلم وخنق الحريات وغيرها من الأعمال التي كان الهدف من ورائها القضاء على الطابع الإسلامي في الجزائر وإحلال المسيحية مكانه، وما شجع على ذلك أكثر تلك ((الكتابات التاريخية والسياسية والاجتماعية لبلاد الجزائر ومناطقها العديدة، وهي الكتابات التي كتبها بعض العسكريين وغيرهم بدافع السيطرة والاحتلال، وخدمة الأغراض السياسية والدينية للوجود الفرنسي بالجزائر))[2].

وأهم هذه الدراسات تلك التي اهتمت بحياة سكان بلاد القبائل قصد فتح أبواب التفرقة وتشجيع الروح العصبية لما لهذه الصيحات من أثر بالغ في تقويض عرى شبكة العلاقات الاجتماعية وتحطيم كيان الأمة، وبخاصة بعد ظهور بوادر النزعة البربرية ((التي بدأها المستشرقون والمبشرون ثم تولى أمرها بعض من تأثروا بأفكارهم من الأهالي ذوي الثقافة الفرنسية))[1]، لكن لاقت تلك المحاولات التنصيرية معارضة جادة أبداها أكثر من مرة سكان بلاد القبائل الأحرار.

وبهذا الموقف الإيجابي الذي تبناه المسلمون الجزائريون طيلة مدة الاحتلال الفرنسي كان ردا واضحا على مزاعم أولئك الذين يعتقدون أنهم يستطيعون محاصرة الإسلام وإذلال أهله ((وجهلوا بأن الإسلام لا يذل لأنه شريعة الله، وجهلوا أيضا أن إذلالهم للمسلمين هو محنة أو بلاء في عقيدة المسلم لا بد له من تجاوزه، وقد تجاوزه فعلا وانتصر على أعداء الإسلام والمسلمين[2].

5- الطرق الصوفية :

---

[2] خديجة بقطاش ، الحركة التبشيرية الفرنسية في الجزائر (1830م-1871م)، مطبعة دحلب، الجزائر، ص137.

[1] د.أحمد بن النعمان ، فرنسا و الأطروحة البربرية في الجزائر ، مطبعة دحلب ، الجزائر ، ص 117.

[2] بسام العسلي، عبد الحميد بن باديس، وبناء قاعدة الثورة الجزائرية، دار النفائس، بيروت، ط3، سنة 1983م، ص 66.

عرفت الطرق الصوفية في الجزائر منذ أمد بعيد، وتبوأت مكانة محترمة في الوسط الاجتماعي وانتشرت انتشارا واسعا في المدن والأرياف وذلك بما قدمته من أعمال جليلة كالتصدي للأعداء الغزاة في شمال المغرب العربي ونشر مبادئ الإسلام في أواسط إفريقيا، انطلاقا من تلك الزوايا المقامة في أكثر من مكان من بلاد المغرب العربي، والحق أن لبعض الطرق الصوفية مزية تاريخية لا يمكن إنكارها؛ إذ ((أنها استطاعت أن تحفظ الإسلام بهذه البلاد في عصور الجهل والظلمات وعمل رجالها الكاملون الأولون على تأسيس الزوايا- الرباطات- يرجعون فيها الضالين إلى سواء السبيل، ويقومون بتعليم الناشئة وبث العلم في صدور الرجال، و لولا تلك الجهود العظيمة التي بذلوها و التي نقف أمامها موقف المعترف المعجب لما كنا نجد الساعة في بلادنا أثرا للعربية ولا لعلوم الدين))[1].

ولكن بعد موت كثير من مؤسسي تلك الزوايا تحول معظمها من مؤسسات دينية وثقافية واجتماعية إلى أوكار للخرافات والأباطيل تستغل سذاجة الناس وغفلتهم ، مما أغرق المجتمع في أوحال التواكل و الشرك بالله، علما بأن السلطة الفعلية في البلاد كانت في أيدي أولئك الطرقيين الذين أقاموا علاقات طيبة مع الإدارة الاستعمارية مما شجع هذه الإدارة إلى استثمار تلك العلاقات بينها وبين مشايخ الطرق وتبني أفكارهم لما لها من تأثير بالغ في تضليل الشعب، وهذا قد سبب تراجعا في ضمائر الكثير منهم بحيث أصبحوا يعيشون حالة من الفوضى العقدية استثمرتها الإدارة الاستعمارية.

وما زاد الأمر تعقيدا كما ذكرنا آنفا نفوذ المرابطين و الطرق إذ ((جلب لهم احترامهم للنظام القائم تقدير المعمرين الذين يرون فيهم الممثلين لإسلام سليم ومتسامح بالمقابلة مع تعصب طائفة العلماء))[2].

ولكن نفوذ مشايخ الطرق لم يستمر طويلا كما خطط له، بل تعرضت لهم جمعية العلماء المسلمين الجزائريين التي كانت في أول ((تكوينها تحتوي على أخلاط من هؤلاء االرهاط يحضرون جلساتها لا خدمة لغايتها ولا إعانة لإدارتها ولكن عينا عليها فاجرة تبلغ وتشي إلى إدارة الأمور الأهلية))[1].

---

[1] أحمد توفيق المدني ، كتاب الجزائر ، ص 375.

[2] شارل أندري جوليان ، إفريقيا الشمالية تسير ، ص 126.

[1] مبارك محمد الميلي، رسالة الشرك ومظاهره، مكتبة النهضة الجزائرية، الجزائر، ط2،سنة 1966م ، ص268

غير أنهم لم يفلحوا في ذلك مما أدى إلى ضعف سلطانهم وبخاصة بعد كل تلك المواقف الصلبة التي وقفها ضدهم علماء الإصلاح يجادلونهم بالأدلة والبراهين العلمية حتى انتصروا عليهم، وقد أشار ابن باديس إلى تلك الأسس التي انطلقوا من خلالها في مواجهة كيد الاستعمار وأباطيل الطرقية وتضليلها لإعادة سمعة ومكانة الشخصية الجزائرية، في قوله : ((فالإيمان والتقوى هما العلاج الوحيد لحالتنا، فنقطة البدء في أي إصلاح هي تطهير العقائد من الشرك، والأخلاق من الفساد، فلا داعي إذن إلى تحقير أنفسنا، ولا موجب للقنوط من رحمة الله، وليس لنا أن نستهين بما نزيله كل يوم من فساد، فبدوام السعي واستمراره يأتي ذلك القليل من الإصلاح على صرح الفساد العظيم من أصله))[2]

فالشيخ عبد الحميد بن باديس يعلم أن الأمة تعاني من ضغوط الاحتلال الفرنسي ومظالمه، ومن أباطيل الطرقية و تضليلها؛ لذا وجدناه يحاول جاهدا الوقوف في وجه مظالم وأباطيل الأعداء، وذلك بدعوة الأمة إلى التسلح بالإيمان والتقوى، فهما الدعامتان الأساسيتان في تغيير الواقع وعلاج حال المجتمع وتحقيق الإصلاح المنشود في العقيدة والأخلاق.

ثانيا : الحالة الاجتماعية والاقتصادية :

أ- الحالة الاجتماعية :

كان المجتمع الجزائري قبل الاحتلال الفرنسي مجتمعا قوامه ((يومئذ عدة طبقات الإقطاعيون الممثلون في الداي وبعض الأتراك والحكام المحليين والبرجوازية الوطنية الناشئة التي يمثلها أصحاب التجارة الداخلية والخارجية، والبرجوازية الصغيرة الممثلة في الفلاحين وأصحاب الملكيات الصغيرة، وصغار التجار والموظفين، كما كانت توجد طبقة عاملة وليدة ممثلة في عمال صناعة السفن والحبال والنسيج، وبعض المهن اليدوية))[1].

على هذا النحو كانت صورة الحياة الاجتماعية في الجزائر آنذاك، وبالرغم من ذلك فإن الجزائريين كانوا يعيشون حياة سلام وهدوء، ولكن عندما اجتاحت القوات الفرنسية أرض الجزائر أحدثت تغيرات جديدة على الساحة الاجتماعية ، أهمها:

---

(2) د.محمود قاسم ، الإمام عبد الحميد بن باديس الزعيم الروحي لحرب التحرير الجزائرية ، دار المعارف ، مصر، سنة 1968م ، ص 50.

(1) عبد الرحمان الجيلاني ، تاريخ الجزائر العام ، جـ3 ، ص 477.

1- الهجرة :

إن الحكم الفرنسي في الجزائر المتسم بالقساوة و الاضطهاد للشعب الجزائري
كان سببا رئيسا في الهجرة التي بدأت منذ بداية الاحتلال، حيث كان الجزائريون يفرون من منقطة إلى أخرى داخل الوطن طلبا للأمن إلا أن هذه الهجرات الداخلية لم تكن حلا للمعضلة القائمة مما اضطرهم إلى الهجرة خارج الوطن بالرغم ما ترتب عليها من مساوئ لحقت بهم؛ إذ تشتتت كثيرا من الأسر الجزائرية وتفرقت داخل الوطن وخارجه.

وهناك أسباب مختلفة للهجرات التي أصابت المجتمع الجزائري منها :

انعدام الحرية، وبخاصة بعد صدور قانون (الأنديجينا) الذي اتبع سياسة خنق الحريات مع تغييب وسائل التعبير، بحيث أصبحت وضعية المسلم الجزائري قانونا لم تنبن على المعقول والمنطق ((فالمسلم الجزائري من حيث المنطق والمعقول هو مسلم جزائري وكفى، ومن حيث القانون الدولي هو فرنسي، ومن حيث المعاملات الداخلية الفرنسية هو (رعية فرنسية) يقوم بالواجبات ولا يتمتع بالحقوق الفرنسية إلا إذا رضي بالخروج عن أحكام الشريعة الإسلامية في كل ما يتعلق بحالته الشخصية ودخل تحت أحكام القانون المدني الفرنسي))[1].

فهذه الوضعية الصعبة التي يحياها المواطن الجزائري أثرت فيه كثيرا ونغصت عليه حياته مما دفعه إلى عدم البقاء في وطنه.

ومن الأسباب الدافعة إلى الهجرة أيضا الأحوال الاقتصادية، ذلك أن الجزائريين كانوا يشكون من ثقل الضرائب المسلطة عليهم من قبل الإدارة الاستعمارية و هذا منذ سنوات طويلة، إضافة إلى ذلك فقدانهم لأراضيهم التي اغتصبت منهم بالقوة من طرف المستوطنين وحرموا منها، وكذا سوء التوزيع للميزانية غير المتكافئ مما نتج عنه السخط المتواصل من قبل الأهالي، لكن لم يؤثر هذا في المستعمرين و لم يعترفوا لهم بحقوقهم ولم يستجيبوا لمطالبهم مما كرس شقاء وتعاسة المواطن الجزائري.

وهناك سببا آخر لا يقل أهمية عن الأسباب الأخرى دفع الجزائريين إلى الهجرة خارج الوطن يتمثل في تسلط الإدارة الفرنسية

---

[1] أحمد توفيق المدني ، كتاب الجزائر ، ص 350.

على المؤسسات الدينية ومصادرة أملاكها وبسط نفوذها الكامل على جميع الشؤون الإسلامية وهذا أثر سلبا في حياتهم وأصبحوا يشعرون بعدم الأمن حين حرموا من حق التصرف في شؤون دنياهم وبخاصة ما يتعلق بالشؤون الدينية، علما بأنه لا يخف على عاقل ما لها من دور فاعل في حياتهم؛ إذ لا يمكن أن يعيشوا بدون دين مما أثار غضبهم واضطروا إلى الهجرة بحثا عن مخرج لهم.

ومن بين الأسباب التي قادت الجزائريين إلى الهجرة التجنيد الإجباري الذي طال كل المواطنين مما سبب اضطرابا عاما في الوسط الاجتماعي، وهذا أدى إلى الفوضى في حياة الجزائريين فباعوا أملاكهم وغادروا أرض الوطن.

فمثل هذه الأسباب وغيرها هي التي قادت الجزائريين إلى الهجرة الجماعية نحو الشرق الأدنى الذي تمتع فيه المهاجرون الجزائريون ((بحرية وسمعة عظيمة، وتولوا المناصب العالية، ولعلهم حصلوا على هذا الامتياز لشهرتهم كأنصار للجامعة الإسلامية (مجاهدين) حاربوا (الكفار) الفرنسيين ثم ابتعدوا منهم طالبين الملجأ في الشرق الأدنى كمثال للمسلمين الحقيقيين))[1].

فهذه المكانة التي تبوأها المهاجرون الجزائريون في الشرق الأدنى لم ترض المحتلين الفرنسيين مما جعلهم يوقفون تلك الهجرات و يوصدون بوابات الحدود،ولكن قيام الحرب العالمية الأولى أدى إلى الهجرة الجماعية من الجزائريين إلى فرنسا.

والملاحظ أنه إذا كانت هجرة الجزائريين ماضية قدما نحو الخارج وبخاصة فرنسا فإن هناك بالمقابل هجرة أخرى أنشط منها تتمثل في هجرة الأوروبيين إلى الجزائر فبينما ((كنا نرى العمال الجزائريين يهاجرون إلى فرنسا، على أمل الإياب بعد الكسب والغنم، كنا نجد الأوروبيين يهاجرون إلى الجزائر ابتغاء الاستيطان المؤبد))[2]، الأمر الذي أثر سلبا على الأوضاع الاجتماعية في الجزائر.

2- التفريق بين العرب و الأمازيغ :

من خصائص الاستعمار منذ القدم بث التفرقة في الوسط الاجتماعي للشعوب المستعمرة.((وكانت هذه السياسة إحدى الخطط

---

(1) د.أبو القاسم سعد الله ، الحركة الوطنية الجزائرية (1900م-1930م) ، جـ2 ، ص 137.

(2) د.عبد الملك مرتاض ، فنون النثر الأدبي في الجزائر (1931م-1954م) ، ص 27.

التــي اعتمــدت عليهــا فرنــسا فــي الجزائــر، لتوطيــد دعائمهــا طيلــة الاحـتلال، وذلـك بمحاولتها خلـق النزعـات الإقليميـة، وتـشجيع الـروح القبليــة))[3]، للتفريــق بــين ســكان الجزائــر و بخاصــة بــين العــرب وإخوانهم الأمازيغ الذين تشبعوا بروح العقيدة الإسلامية التي اعتنقوها ((عـن طواعيـة واقتنــاع وتمـسكوا بهـا ونـشروها فـي الأوطـان وبقـوا أحرارا في حكم أنفسهم بالشريعة الجديدة دون إجبار أو إكراه وانصهر العرب والبربر في المجتمع الإسلامي العربي الجديد، وزال بذلك أي أثر يمكن أن يفرق –عرقيا أو ثقافيا- بين العنصر البربري والعنصر العربي في الجزائر))[1].

وبالرغم من ذلك فإن الإدارة الاستعمارية لم تول أي اهتمام لهذا المقوم الرابط بين سكان الجزائر فذهبت تعتمد في سياستها على بعض الدراسات التاريخية الخاصة بتكوين الأصل البربري قصد تفتيت الأمة وتقويض عراها الاجتماعية.

وانطلاقا من هذه الدراسات التاريخية المغرضة حاولوا إقناع البربر بأنهم ليسوا عربا بل هم من سلالة أوروبية، وأن لغتهم لغة خاصة بهم ينبغي الحفاظ عليها.فكانوا يمنعون تعلم اللغة العربية ويشجعون اللغة الفرنسية بل قاموا بمحاولات عدة لإحياء اللغة البربرية وبخاصة عندما لاحظوا إقبال أصحابها على اللغة العربية وخروجهم عن المنطقة طلبا لها.

فكــل هــذه المحــاولات الراميــة إلــى تفكيــك شــبكة العلاقــات الاجتماعية بين أبناء الجزائر قوبلت بالتماسك في كثير من المواقف والتصدي لها طيلة مدة الاحتلال إلى أن نالوا حريتهم واستقلالهم.

3- **الطرقية والأولياء** :

بعد أن خرجت الطرقية عن مسارها الصوفي البريء، هيمن عليهــا الاحــتلال الفرنــسي واســتثمر أعمالهــا ووجههــا توجيهــا يخــدم مصالحه، وبخاصة بعد أن تحولت معاهد زواياها من معاهد إحسان وإرشاد إلى ((معاهد خرافات وأباطيل، تستثمر غفلة العامة وبلههم فتنال منهم مال السحت الذي يدفعونه بصفة وعدة أو نذور، وينفقه رجال الزوايا على ملاذهم وملاهيهم ومنكراتهم))[1].

---

[3] **خديجة بقطاش ، الحركة التبشيرية في الجزائر (1830-1871) ، ص 137.**

[1] **د.أحمد بن النعمان ، فرنسا و الأطروحة البربرية في الجزائر ، ص 26.**

[1] **أحمد توفيق المدني ، كتاب الجزائر ، ص 376.**

وقد تحول الكثير من هذه الزوايا والطرق إلى مراكز للتخدير والتقاعس الاجتماعي و عدم البحث فيما يهم الأمة ، بل أصبحت أماكن الدعاية للأولياء والمرابطين الذين شوهوا صورة الإسلام السمح ببدعهم وأباطيلهم المضللة حتى اعتقد كثير من جموع الجهلة أن ذلك هو عين الإسلام فانقادت لهم والتمست منهم حاجاتهم ((وألقت إليهم يد الطاعة ومكنتهم من أعراضها وأموالها أن يأخذوا أموالها سارقين، ثم يورثونها أولادا لهم فاسقين، يبددونها في الخمور والفجور، والسيارات والملابس والقصور))[2].

هذه هي الطرقية ببدعها وأضاليلها التي حرصت الإدارة الاستعمارية كثيرا على إبقائها لاستثمارها والانتفاع بها، إذ أمنت لها التمويل والحماية قصد دفع الشعب الجزائري إلى الانحلال الاجتماعي وجعله لا يفكر في مصيره.

لكن بالرغم من ذلك ظهرت حركات إصلاحية دينية دب فيها الانتباه إلى خطورة الوضع، مما جعل أركان هذه الطرق وأباطيلها تتراجع وتتزعزع وحل محلها توجيه الناس إلى سواء السبيل.وأهم هذه الطرق في القطر الجزائري كما ذكرها صاحب كتاب الجزائر:

-الرحمانية : وقد أسسها سيدي محمد بن عبد الرحمان القشتولي الجرجري من قبيلة إيث إسماعيل بالجرجرة، المولود سنة 1720م ، وتوفي بمسقط رأسه سنة 1794م، ثم نقل إلى العاصمة و دفن بحي بلكور .

- القادرية : و قد أسسها الشيخ محي الدين عبد القادر الجيلاني ولد سنة 1079م بمدينة جيلان في بلاد فارس ، و توفي ببغداد سنة 1166م.

- الشاذلية : أسسها الشيخ أبي الحسن الشاذلي التونسي توفي سنة 1258م ، ودفن بمدينة الحميثرا بالصعيد المصري.

- العيساوية : تنسب إلى الشيخ محمد بن عيسى الإدريسي المولود بمدينة مكناس في القرن الرابع عشر ميلادي، و توفي بمسقط رأسه سنة 1524م.

- السنوسية : أسسها الشيخ محمد بن علي السنوسي الخطابي ولد بمدينة يلل قرب مستغانم سنة 1792م ، وتوفي بواحة سيوة في جنوب برقة سنة 1859م.

---

[2] سجل مؤتمر جمعية العلماء المسلمين الجزائريين ، المطبعة الجزائرية الإسلامية ، قسنطينة ، ص 27.

- **الطييبية** : أسسها مولاي عبد الله بن إبراهيم من أشراف المغرب بمدينة وازان، و توفي بمسقط رأسه سنة 1668م.
- **التيجانية** : تنسب إلى الشيخ أحمد بن محمد المختار التيجاني المولود بمدينة عين ماضي بناحية الأغواط ، وتوفي بمدينة فاس سنة 1815م.
- **العليوية** : مؤسس هذه الطريقة الشيخ أحمد بن مصطفى بن عليوة بمدينة مستغانم سنة 1910م، المولود بنفس المدينة سنة 1867م.وهذه الطريقة تعد من أحدث
الطرق تأسيسا[1]

وكل هذه الطرق قد ساهمت في حفظ الإسلام بهذه البلاد بفضل عقلائها، ولكن بعد موت مؤسسيها الأبرار انقلبت من معاهد إرشاد و إحسان إلى معاهد خرافات وأباطيل ساعدت على تضليل الأمة و تمكين الاحتلال من رقابها.

4- **وضعية العمال** : لا ريب أن الباعث الحقيقي والأول في رأي القائمين على الإدارة الاستعمارية منذ احتلال الجزائر هو استعباد أهلها والاستحواذ على خيراتها، مما نتج عنه تحول الأمة الجزائرية إلى أمة عمال، لهذا تجد الفقر المدقع قد ضرب أطنابه بأنحاء البلاد وأصبحت ((الأغلبية الساحقة للسواد الأهلي تتركب من دهماء الفلاحين والرعاة بين أبناء القرى الجبلية ورحل ضعاف أو متوسطي الحال يغلب عندهم عنصر الزرع على عنصر الرعي))[2].

فأمام هذه الأزمات التي ألمت بالشعب الجزائري و بخاصة بعد انتزاع أملاكه والاستيلاء عليها عنوة تحول كثير منهم إلى عمال في مختلف الميادين يتقاضون أجورا ضعيفة لا تلبي حاجاتهم.

فالبؤس في الجزائر قد عم أغلبية سكانها فلم يستطيعوا صبرا على تلك الحالة التي ساهمت في تدهور الوضع الاجتماعي وتدني مستوى معيشة الأفراد مما اضطرهم إلى مغادرة أرض الوطن قصد العمل من أجل أن يعيشوا وخاصة بأرض فرنس.فاستقبلتهم معاملها يشتغلون فيها أشغالا عادية خالية من الاختصاص مقابل أجور تقل بكثير عن أجور الفرنسيين والأجانب ولكنها في المقابل أكثر مما يتقاضاه إخوانهم العمال بالجزائر.

---

(1) أنظر : أحمد توفيق المدني ، كتاب الجزائر ، ص 378.
(2) شارل أندري جوليان ، إفريقيا الشمالية تسير ، ص 56.

فلا غرابة حينئذ إذا شاهدنا هجرة الجزائريين تزداد نحو فرنسا قصد العمل، ولكن أصحاب المشاريع والمعمرين في الجزائر انزعجوا لمغادرة اليد العاملة، وهذا دفع بالإدارة إلى سن قوانين صارمة تمنع العمال من الخروج إلا بترخيص من الجهة المختصة، وعندما اطمأنت السلطة على وجود ما يضمن اليد العاملة في الجزائر لم تعد تطالب بتنظيم الهجرة أو الوقوف في وجهها.

وعموما فإن مأساة البؤس الجزائري لم يقتصر على الجزائر وحدها، بل امتد أرض فرنسا.فالعامل الجزائري كان يعاني ألوان الظلم والغبن في بلاده وفي غير بلاده جراء تسلط الإدارة الاستعمارية بمنعه من حقوقه.

5- وضعية المرأة الجزائرية :

المرأة الجزائرية قبل الاحتلال الفرنسي كانت تحظى بوضعية طيبة، لكن سرعان ما تحولت تلك الوضعية حين تم الغزو الفرنسي للبلاد الذي أحدث انقلابا شاملا في حياة المجتمع الجزائري برمته.

فبلغت المرأة الجزائرية آنذاك ما بلغه الرجل من درجة كبيرة في التخلف فهي ((تعاني من الجهل الجاثم على العقول والجمود الخانق للطموح، تعيش في حالة من التخلف والكبت و الحرمان المفروض عليها))[1]، وما زاد في تراجعها عن مكانتها وتخلفها عن الدور المنوط بها أن أبناء جلدتها –ولأسباب ذاتية وموضوعية- لم يكونوا في مستوى تحمل المسؤولية إزاءها؛ حيث وجدنا الكثير منهم قد خنق حريتها وسلب إرادتها ومنعها من التعليم، بل حرمها من كل شيء مما جعلها ((فريسة سهلة للخرافات والبدع والسحر والشعوذة، وأصبح نشاطها الاجتماعي يدور حول نقل الأحجبة، وحرق البخور، وزيارة الأولياء))[1]، إلا أن هذه الحالة التي تعيشها المرأة الجزائرية لم تمنعها من وقفات رائدة تبرز فيها في بعض فترات التاريخ، إضافة إلى ذلك أنها كانت ((تمتاز بخلال كريمة وسجايا طيبة، فهي محافظة أتم المحافظة على التقاليد القديمة والعادات التي ورثتها عن الأسلاف، وهي مسلمة متينة الإيمان على قاعدة (إيمان العجائز)، ثم هي زوجة أمينة صبورة وفية، تشاطر زوجها آلام الحياة دون جزع))[2].

---

[1] **د.أنيسة بركات درار ، نضال المرأة الجزائرية خلال الثورة التحريرية ، المؤسسة الوطنية للكتاب ، الجزائر ، سنة 1985م ، ص 7.**

[1] **د.أحمد الخطيب ، جمعية العلماء المسلمين الجزائريين ،و أثرها الإصلاحي في الجزائر ، ص 85.**

[2] **أحمد توفيق المدني ، كتاب الجزائر ، ص 362.**

والمرأة الجزائرية في المدن محافظة متمسكة بالتقاليد تجد أغلبهن محجبات.أما في البادية فقلما تجد للحجاب وجودا، فهي تشارك زوجها وأهلها في كل الأعمال تقابلهم اليد في اليد حتى وإن كانت هذه الأعمال صعبة شاقة.عاشت المرأة الجزائرية أيام الاحتلال الفرنسي حياة البؤس والشقاء، بالرغم من ظهور أصوات على اختلاف مشاربها تقف بجانب قضاياها إلا أن هذا لم يغير كثيرا من حالها.

6- **الحالة الصحية :**

لا شك أن مثل تلك الأوضاع البائسة والظروف القاسية التي ألمت بمعظم الشعب الجزائري إبان الاحتلال الفرنسي لغني عن البيان أن يكون عرضة لأخطر
الأمراض وشر الآفات الاجتماعية.

فالجزائريون الذين يقطنون في المدن والقرى الكبيرة منازلهم غير صحية في أغلبها، وهذا جعلهم يتعرضون لأمراض مختلفة ولا يستطيعون تحمل نفقات العلاج ؛ إذ أن الأغلبية الساحقة من السكان عمال فقراء، أما عن أولئك الذين يسكنون الخيام يعيشون معيشة شقاء يموتون موت العذاب الأليم بسبب تلك الأمراض الفتاكة التي تقضي علىعدد كبير منهم و بصفة مزعجة .

تلك هي الحالة الصحية لغالبية المجتمع الجزائري، أما عن حالة الأطفال فقد نشرت دائرة الإحصاء الصحي في الجزائر تقريرا مفاده أنه في سنة 1919م كانت أموات الأطفال قبل بلوغ العامين في عاصمة الجزائر 44.66 في الألف للأوروبيين و138.17 في الألف للمسلمين ومثل هذا الرقم الأخير يدل دلالة واضحة عن الحالة المقلقة التي يحياها شعب بكامله دون أن ننسى آفات أخرى تنخر كيان المجتمع وذلك بسبب ضعف الوازع الديني في النفوس ما نتج عنه زيادة في فقر الأهالي وضعف في قواه وإقباله على الجرائم المهلكة[1].

ب- **الحالة الاقتصادية :**

لكي نتحدث عن الحالة الاقتصادية في الجزائر لا يسعنا إلا العودة إلى كتاب الجزائر لنعطي صورة واضحة عنها من خلال ما سجله الأستاذ أحمد توفيق المدني.

فالحالة الاقتصادية العامة في الجزائر كانت تحت سيطرة الاحتلال الفرنسي يتصرف

---

[1] أنظر :المصدر السابق، ص 359-362.

فيها وفق رغبته وما يخدم مصالحه، ولا يولي أي اهتمام لما يخدم مصالح الشعب الجزائري صاحب الحق في بلاده وثرواته.
وتظهر مجالات اقتصاد القطر الجزائري فيما يلي :
1- **الفلاحة** :
يعتمد اقتصاد الجزائر على الفلاحة في أغلب الميادين علما بأن الأراضي الفلاحية الخصبة يتولاها الاستعمار يستغل خيراتها بينما يتولى الأهالي معظم الأراضي التي لا قيمة لها رغم كثرتها، مما اضطرهم إلى العمل خماسة عند المستعمرين وهو عمل شاق منهك للقوى.
والفلاحة في الجزائر فهي عند الأوروبيين حديثة تعتمد على رؤوس أموال عظيمة، أما عند الأهالي المسلمين فهي تقليدية تعتمد على مجهودات خاصة لا تفي بالغرض المطلوب.
والأرض الجزائرية معظمها صالح للزراعة لو هيئت لذلك، وبخاصة لو حبست مياه الأودية في السدود وتم توزيعها بعد ذلك على الأرض الفلاحية لأمكنها أن تعول عشرة أضعاف سكان الجزائر.وعلى الرغم من ذلك فإن الإنتاج الفلاحي يعد مشجعا ويفي ببعض حاجات المواطن لولا تسلط المستعمر على ذلك وابتزاز خيرات بلاده.
2- **الماشية** :
تعد الماشية موردا هاما من موارد اقتصاد الجزائر، إلا أنها معرضة لكثير من الحالات التي تعطل نموها وانتشارها، وبخاصة الجفاف الذي يتلفها علما بأنها من أهم ثروات المواطن الجزائري.
وتربية الماشية لم تلق عناية كافية في الجزائر مما جعلها عرضة للتلف والتأخر بسبب الجهل من جهة وشح المياه في أوقات الجفاف من جهة أخرى، لولا ذلك لأصبحت ثروة هائلة في البلاد، وهذه الثروة الحيوانية تتمثل في البقر؛ إذ نجده بكثرة في ناحية التل وبخاصة في منطقة قالمة التي تتميز بنوع من البقر تعرف به المنطقة.والخيول الجزائرية فإنها تحظى باهتمام الشعب الجزائري وتتميز بالصبر والجلد والقناعة لكنها فقدت أهميتها الأولى في التربية بعد الاحتلال الفرنسي.أما البغال فإنها تنتشر بكثرة في المناطق الجبلية الوعرة، والإبل تظهر أهميتها بالخصوص في المناطق الصحراوية وتنعدم أهميتها شيئا فشيئا في الهضاب العليا على عكس الغنم فإن أعدادها تتزايد في الهضاب وبخاصة في السنوات الممطرة وهي تمثل

ثروة مهمة بالنسبة للمواطن الجزائري يعتمد عليها في كثير من شؤون حياته.

3- **الصيد البحري** :

قلة قليلة من الجزائريين الذين يستغلون ثروة البحر ، فالصيد على الساحل البحري قد سيطر عليه الأجانب يصطادون أنواع الأسماك التي تستهلك داخل البلاد وبعضها يرسل إلى الخارج. أما المرجان فمعظمه يرسل إلى الأسواق الأوروبية ؛ إذ صناعته في الجزائر قد فقدت الكثير من أهميتها.

4- **المعادن و المناجم** :

أرض الجزائر غنية بمعادنها و مناجمها الكثيرة لكنها ليست ملكا للمواطنين الجزائريين ، بل هي ملك للأوروبيين يستغلونها استغلالا واسعا يستخرجون الفوسفات والحديد الذي ينقل إلى انجلترا و تستخرج أيضا معاد أخرى كالرصاص و الزنك...

و كل هذه المناجم و المعادن تستغلها الشركات الأوروبية بمختلف جنسياتها.

5- **الصناعة** :

الصناعة في الجزائر تكاد لا توجد فهي ضعيفة جدا سواء ما يتعلق بالصناعة الأوروبية أو الصناعة الأهلية و هذا يعود أساسا إلى الوضع الذي تعيشه الجزائر تحت ضغط الاحتلال و إرادة الإدارة الاستعمارية .

فالصناعة الأهلية تشمل صناعة الزرابي و نسج البرانيس و الحياك و غيرها، وهي صناعة تقليدية لا تستطيع منافسة الصناعة الأوروبية ، غير أن بعض الصناعات كالتطريز و الزرابي و الخزف قد لاقت بعض العناية الإدارية بحيث انتشر بالجزائر معامل للزرابي يشتغل فيها الجزائريون.

و على الرغم من تلك القيود على الصناعة في الجزائر إلا أن بعض الأهالي أخذوا يزاحمون بعض الصناعات الأوروبية بمعامل عصرية كصناعة الخشب و صناعة كل أنواع الطيب و العطور و معاصر الزيت و لكنها قليلة لا تكاد تفي بالغرض المطلوب.

6- **التجارة** :

لا يخفى على أحد ما للبنوك من أهمية بالغة في إنعاش التجارة و ذلك بتوفير المال اللازم لتوسيع نطاق الحركة الاقتصادية، لكن تلك الأموال كانت تغدق على الأوروبيين من تجار و صناع و فلاحين، أما

المواطنين الجزائريين فقد حرموا من ذلك تماما مما اضطرهم إلى التعامل لدى المرابين. علما بأن تجارة الأهالي لا تعتمد على رؤوس أموال قوية . والقليل النادر من التجار من يستطيع جلب بضاعته من الخارج و ذلك بسبب القيود التي وضعتها الإدارة الاستعمارية.

وتجارة الجزائر مع جاراتها كانت غير مفتوحة فالبضاعة لا تدخل أرض الجزائر إلا بمقدار محدد، أما البضاعة الجزائرية فإنها تدخل أرض تونس والمغرب كأنها بضاعة فرنسية لا قيد عليها.

أما الصادرات و الواردات فإنها لم تخضع لميزان الربح ،لأن الجزائريين يشترون أكثر مما يبيعون و هذا يعود أساسا إلا أن المسلمين الجزائريين لا يشاركون في هذه التجارة إلا مشاركة ضئيلة لا تكاد تذكر. فهم إن باعوا بضاعتهم فإنها تمر على يد سماسرة وتجار أجانب ،و إن اشتروا بضائع من الخارج فإنها تمر أيضا على يد سماسرة تذهب إليهم أغلب الأرباح.

7- **طرق المواصلات :**

إن شبكة طرق المواصلات تعد من الأسباب الرئيسة في إنعاش الاقتصاد وتحريك آلياته . فهي في الجزائر تحظى بمكانة معتبرة موزعة بين سكك حديدية وطرق معبدة وطرق ثانوية إلا أن أغلبها يلبي حاجات الاستعمار.

فالطرق المعبدة أغلبها في الشمال الجزائري تستغل لنقل المسافرين والسلع والبضائع، أما السكة الحديدة فإن أهميتها تتجلى في أداء غرض حربي واقتصادي معا.

أما خطوط المواصلات الجوية في الجزائر فإنها لا تكاد تذكر فهي ضعيفة جدا لولا ذلك الخط الذي تسير طياراته المائية بين الجزائر وفرنسا وخط آخر سريع بين عنابة وتونس[1].

ثالثا : الحالة الثقافية :

إن القارئ لتاريخ الأمم والشعوب المختلفة يتبين له أن لا وجود لأمة دون ثقافة تميزها عن سائر الأمم الأخرى؛ إذ تعد عنصرا هاما في بناء كيانها ومظهرا من مظاهر تحضرها.

والثقافة ((تبرز وتنمو متى اعتني بصاحبها وتكمن وتختفي متى أهمل ذلك الصاحب في هذا الوجود))[2].أي أنها تقوى وتزدهر بتوافر دواعيها وتضعف وتنحسر تبعا لقلة تلك الدوافع وفتورها.

---

[1] أنظر : توفيق المدني ، كتاب الجزائر ، ص 359...362.

من هنا ننظر إلى واقع الحياة الثقافية في الجزائر قبل الاحتلال الفرنسي وأثناء الاحتلال لإعطاء صورة واضحة عن ثقافة المجتمع الجزائري آنذاك .فواقع الحياة الثقافية في الجزائر قبل الغزو الفرنسي كان على عكس ((الاعتقاد السائد من أن الشعب الجزائري غير متعلم وأن الاستعمار وفر له التعليم))[3].

فالباحثون والمؤرخون الذين اهتموا بمرحلة الاحتلال الفرنسي للجزائر وبخاصة الفرنسيين منهم يجمعون على أن الثقافة العربية في الجزائر كانت مزدهرة وأن معظم السكان كانوا متعلمين، وطبيعة تلك الثقافة السائدة آنذاك ((كانت بسيطة في معظم أحوالها وعلمية عميقة موسوعية في أحوال نادرة))[1].أي أن المثقف الجزائري كان ملما بالعلوم التقليدية المتمثلة في اللغة العربية، والفقه الإسلامي، والتفسير والمنطق وعلم الكلام، علما بأن هذه الثقافة قلما تشمل الرياضيات و الطبيعيات، وهذا لا يعني أن طبيعة الثقافة في الجزائر كانت تختلف عنها في سائر البلدان العربية الأخرى، بل كانت تغيرها من الدول العربية في طبيعة ثقافتها، فالمواد التعليمية التي تلقن لطلاب العلم في المعاهد الجزائرية آنذاك لم تكن تختلف عن المواد التي كانت تدرس في باقي العالم العربي.

هذا بإيجاز عن واقع الثقافة في الجزائر قبل الغزو الفرنسي، أما عن واقعها وطبيعتها بعد استقرار الاستعمار الفرنسي في البلاد فكان حالها حال ثقافة الأمم والشعوب التي تعرضت للغزو وبخاصة الثقافي منه الذي يعد من أبشع صور الاستعمار الحديث لما يحمله من مقاصد تستهدف أهم مقوم من مقومات الشعوب المستضعفة. فهو في الجزائر يستهدف الدين الإسلامي بالدرجة الأولى يحاول تشويهه و التشكيك فيه، وهذا ما يرمي إليه الغزو الثقافي بتنوع أساليبه و تعدد مجالاته و مظاهره، وبالتالي كان من الطبيعي أن تنحصر الثقافة ويتراجع التعليم في الجزائر((فإذا المثقفون الجزائريون بين فار بثقافته أو مهاجر بها، ومقيم بالجزائر ولكن أي إقامة!؟ إقامة في بطون الأودية السحيقة، أو

---

[2] د.محمد بن عبد الكريم الجزائري ، الثقافة و مآسي رجالها ، شركة الشهاب ، الجزائر ، ص 37.

[3] أندري بريـنان و آخران ، الجزائر بين الماضي و الحاضر ، ترجمة : اسطنبول رابح و منصف عاشور ، ديوان المطبوعات الجامعية ، الجزائر ، سنة 1984 ، ص 211.

[1] د.عبد الملك مرتاض ، فنون النثر الأدبي في الجزائر ، ص 33.

في أعماق البوادي النائية، أو لواذ بقمم الجبال حيث كان يوجد شيء من الأمن والطمأنينة))[2].

إن مثل هذه الأوضاع المضطربة التي فرضت على الشعب الجزائري كانت أمرا طبيعيا في نظر الاحتلال الفرنسي قصد تحقيق ما يصبو إليه فهو يدرك ((أن العلم سيف قاطع. فإذا تسلح به الجزائري أمكنه أن يقاومه. فسعى حينئذ في تجهيل الأمة الجزائرية. فشغله الشاغل هو إخفاء العنصر الإسلامي بالتفقير و تجهيل ما بقي منه، وما هي إلا فترة حتى أصبحت البلاد فارغة من العلم))[1].

ورغم هذه المصائب التي ألمت بالشعب الجزائري لم تضعف من عزمه فقامت طائفة من أبنائه يحاولون فتح كتاتيب وزوايا إدراكا منهم أن العلم يحيي ضمائر الناس ويبعث فيهم الأمل. لكن تخوف الإدارة الاستعمارية من عودة التعليم الوطني جعلها تلجأ إلى سياسة التضييق على الشعب لتحيل بينه و بين طلب العلم. مما جعله يدخل في السرية حتى إذا ((زار حاكم عسكري القرارة (من بلاد ميزاب) لا تفتح المعاهد العلمية ولا يرى التلاميذ في الشوارع))[2].

رغم تلك الضغوط و القوانين الخانقة لإرادة الشعب كما أشرنا سالفا إلا أن النشاط التعليمي الوطني قد استمر ضمن حدود التعليم القرآني وفقا للطريقة التي كانت متبعة عند أسلافهم؛ إذ كانت السبيل الوحيد للحفاظ على الشخصية العربية الإسلامية أمام خطر الاندماج المهدد لكيان الأمة. في مثل ذلك الجو الاجتماعي المضطرب وتلك الحالة السياسية المهتزة السائدة آنذاك يمكن لنا أن نتحدث عن التعليم العام ؛ إذ كانت الجزائر ((ليست خالية من التعليم وليست واقفة تجاه هذا المشكل الأكبر موقف العاجز الخائر القوى، فإن ما هو موجود فيها لا يناسب بالمرة درجة تقدمها المادي ولا يفي أصلا بحاجتها أو ببعض حاجتها))[1].

فإذا نحن نظرنا إلى التعليم العام في الجزائر الذي يعد في نظر الإدارة الاستعمارية ((ميدان آخر كان في ميسور سياسة إدماج الأهالي أن تعطى فيه نتائج عظيمة القيمة))[2].

---

[2] المرجع نفسه ، ص 34.

[1] محمد الطمار ، تاريخ الأدب الجزائري ، ص 326.

[2] محمد علي دبوز ، نهضة الجزائر الحديثة و ثورتها المباركة ، المطبعة العربية الجزائرية، ج2 سنة 1971م ، ص 201.

[1] أحمد توفيق المدني ، كتاب الجزائر ، ص 293.

[2] شارل أندري جوليان ، إفريقيا الشمالية تسير ، ص 52.

المتفق عليه أن التعليم الموجود بأرض الجزائر آنذاك كان خاضعا لقوانين فرنسية وهو إجباري على العموم فلا تجد أبدا من بين أبناء الأوروبيين من لا يرتاد المدرسة، وبالمقابل تجد آلاف الأطفال من أبناء المسلمين محرومين من التعليم يهيمون في البوادي والقرى و المدن يعيشون أميين جهلاء إلا من أسعفه الحظ منهم وألتحق بزاوية أو مكتب قرآني .

ويشمل التعليم الرسمي في الجزائر مراحل مختلفة أولها التعليم الابتدائي الذي يتبع نظام التعليم في فرنسا ويخضع لقوانين فرنسية تتعلق بمجانية التعليم وإجباريته على البنين والبنات من سن السادسة إلى سن الثالثة عشر، إلا أن هذه القوانين لا يخضع لها الأهالي.

والمدارس نجدها موزعة على مدن الجزائر والذين يتلقون تعليمهم بها من الأوروبيين يبلغ زهاء 136 ألف من البنين و البنات علما بأن جملة الأوروبيين 913 ألف أما عدد المسلمين الذين يتلقون تعليمهم بهذه المدارس لا يتجاوز 60 ألف من جملة 6 ملايين، وهذه نسبة قليلة إذا ما قورنت بنسبة المتعلمين من أبناء الأوروبيين[1].

هذا عن التعليم الابتدائي، أما التعليم الثانوي فهو الآخر يخضع لقوانين فرنسية وبرامج فرنسية، والالتحاق بهذه المرحلة من التعليم مباح للجميع إلا أن مشاركة المسلمين قليلة بسبب الفقر من جهة وارتفاع أجور التعليم الثانوي من جهة أخرى.

ومكانة اللغة العربية في هذه المرحلة من التعليم الثانوي ضئيلة جدا اختيارية، أما عن تدريس مادة الدين الإسلامي فهي لمن يطلبها من التلاميذ((في ساعات مخصوصة وبثمن مخصوص قدره 120 فرنكا في السنة))[2].

أما المرحلة الثالثة فهي للتعليم العالي ويشمل كلية الحقوق والآداب وكلية الطب والصيدلة وأخيرا مدرسة العلوم.ويستفيد من هذا التعليم العالي الأوروبيون وقلة من أبناء المسلمين، حيث يوجد حوالي 75 طالبا موزعون على مختلف الكليات.

مما سبق ذكره في مجال التعليم العالي يتبين لنا أن الإدارة الاستعمارية في الجزائر لم تول أي عناية لتعليم أبناء المسلمين وفي الوقت نفسه لم تهتم بالتعليم العربي، بل أهملته إهمالا كليا طيلة الحقبة الاستعمارية إلا أن مناسبة الاحتفال بالذكرى المائوية لاستعمار

---

(1) أنظر : أحمد توفيق المدني ، كتاب الجزائر ، ص 294-295.
(2) المصدر نفسه ، ص 296.

الجزائر كانت منعطفا هاما في تاريخ الجزائر الحديث الذي انبثقت عنه اتجاهات فكرية أفادت الثقافة العربية الإسلامية في الجزائر إفادة عظيمة ونشأت عنه أيضا حركات فكرية أدبية رائدة.

من هنا يمكن حصر الحديث عن الاتجاهات الفكرية التي تتمثل في الاتجاه الطرقي، والاتجاه الإسلامي، والاتجاه الأدبي دون أن ننسى ذكر موقف الاحتلال الفرنسي من الثقافة العربية الإسلامية.

أ- الاتجاه الطرقي في الجزائر :

كانت الطرق الصوفية من أكبر الحركات الدينية في الجزائر قبل الاحتلال الفرنسي وقد نالت زواياها مكانة معتبرة بين المدارس الثقافية الإسلامية في البلاد ؛ إذ تعد مركزا من مراكز التعليم والوعظ والإرشاد والتحشد العسكري، لكن عندما استقر الاحتلال أخذت بعض هذه الزوايا وبخاصة بعد مضي مؤسسيها الأولين تتحول ((إلى طرق صوفية اعتمدت أدعية و صلوات خاصة أصبح لها مع مرور الزمن قيمة توازي في نظر المريدين تلاوة القرآن الكريم، بل وتزيد عليها وعلى بعض أركان الإسلام))[1].وقد أدرك المستعمر هذه الحقيقة فجعل يستميل إليه مشايخ الطرق مغذيا فيهم روح الانحراف العقدي وذلك بإغداق الأموال عليهم وتشجيعهم على إقامة الولائم وحلق الذكر التي صورها على أنها الوجه الحقيقي للإسلام، وأن رجال الطرق هم حماته، كما شجع جموع الناس على البدع والتعلق بهؤلاء المشايخ فانتشرت في صفوفهم أفكار الشرك بالله و التواكل،وبالمقابل وجدنا نفور عدد من المثقفين بالفرنسية من الدين الإسلامي إلى الإلحاد وبالتالي كانت النتيجة سقوط الأمة في شراك الفساد العقدي.

ولهذه الطرق الصوفية مدارس وصحف متعددة تبث من خلالها أفكارها التي تصدر أساسا عن الزهد في الدنيا وعدم المشاركة في الحياة السياسية، وهذا الموقف جعل الاستعمار يطمئن لها ((فترك لها حرية التفكير -ما دام هذا التفكير الصوفي لا ينشأ عنه في الحياة نتيجة عملية، أو نتيجة سياسية، تتحكم في مصير الاستعمار ووجوده- فلم يغلق مدارسها التي أسست، وقد كانت كثيرة منتشرة ، ومن أكبرها مدرسة التيجانيين بقسنطينة. ثم لم يسجن لها مدرسين، كما لم يضايق لها أشياعها الذين كانوا يملأون الأرض.

---

[1] أحمد الخطيب ، جمعية العلماء المسلمين الجزائريين و أثرها الإصلاحي في الجزائر ، ص 59-60.

أما صحف الطرق الصـوفية فقد ظلت في مأمن من العواصف المـحرقة التي كانت تهب على صحف الهيئات الوطنية كالعلماء، وحزب الشعب مثلا))[1].

وقد أثر هذا سلبا في حياة المجتمع الجزائري مما أوقعه في الجهل والإغراق في الأمية الفكرية والفهم الخاطئ للعقيدة الإسلامية وانتشار ثقافة الطرق الصوفية على نحو واسع جدا.

رغم هذا كله لا يمكن أبدا غض الطرف عن هذا الاتجاه الصوفي فهو اتجاه له شخصيته المستقلة و خصائصه التي تميزه عن غيره؛ لذا يعد واحدا ممن يتألف منهم الفكر الديني الحديث والثقافة العربية في الجزائر ((باعتبار أن الاتجاه الصوفي أصدر الصحف باللغة العربية ، وأسس المدارس التي كانت تدارس الثقافة الإسلامية ، وألف الكتب بأسلوبه الخاص وعقد المؤتمرات التي كانت تلقى فيها الخطب الرنانة والكلمات البديعة))[1].

وهذا لا يعني أن لهذه الطرق ليس لها آثار سيئة في المسلمين فإن المتأمل جيدا في المشهود يلحظ ((أن كل ما يراه في المسلمين من جمود وغفلة، وتناكر وقعود عن الصالحات، ومسارعة في المهلكات، فمرده إلى الطرق ومأتاه مباشرة أو بواسطة منها فلا كانت هذه الطرق ولا كان من طرقها للناس))[2].

هذه هي الطرق ببدعها وأضاليلها التي يحرص الكثير من رجالها الإبقاء عليها وغرسها في القلوب لاستثمارها والانتفاع بها، لكن قابلتها حركة إصلاحية كان لها الأثر المحمود في إرجاع الأمة إلى الدين الصحيح ودحض مفتريات المبتدعين.

ب- الاتجاه الإصلاحي :

قبل ظهور الحركة الإصلاحية كان المجتمع الجزائري تتجاذبه قوتان : الإدارة الاستعمارية من جهة و الطرق الصوفية من جهة ثانية علما بأن لهاتين القوتين أثار سلبية في الواقع المعيش للشعب الجزائري و بخاصة من قبل الطرق الصوفية التي آل أمر كثير من زواياها ((إلى إحداث وثنية في الإسلام ما أنزل الله بها من سلطان، وأصبح شيخ الطريقة أو المرابط في كثير من النواحي يتصف بأوصاف الربوبية فهو الذي يعطي وهو الذي يقبض وهو الذي يبسط

---

(1) د.عبد الملك مرتاض ، فنون النثر الأدبي في الجزائر ، ص 38.
(1) المرجع السابق ، ص 43-44.
(2) سجل مؤتمر جمعية العلماء المسلمين الجزائريين ، ص 23.

هو منبع كل خير و مصدر كل شر؛ و ترى بعض السفهاء يقسم لك بالله جهد إيمانه ليقنعك بأمر ما. فإن أنت استحلفته بشيخ طريقته كان الموت أهون عليه من أن يقسم به))[1].

ففي هذه الظروف الدالة على التخلف في جميع المجالات نشأت حركة يلتقي رجالها مع فكرة إصلاحية تعتمد على الحركة القلمية و التعليمية ((و قد تلاقت الحركتان على أمر قد قدر، فكان هذا الأمر هو تأسيس جمعية العلماء المسلمين الجزائريين))[2].فأصبحت حقيقة واقعة هدفها ودعوتها قوله تعالى : **{إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم}**[*]، مما دفع بالجمعية إلى تبني مبدأ إصلاح المجتمع الجزائري في المعتقد والسلوك و كان هذا سببا رئيسا في اعتبار أن الحركة الإصلاحية التي قادتها جمعية العلماء المسلمين الجزائريين الباعث الحقيقي للنهضة الجزائرية.

إن مهمة التغيير في هذه الأجواء مهمة صعبة أمام الحركة الإصلاحية في الجزائر؛ إذ واجهت جملة من العوائق في طريقها الإصلاحي أهمها :

العداء الحاقد الذي واجهته الحركة الإصلاحية من الإدارة الاستعمارية التي كانت تكيد لها بالليل والنهار، كما سبب عرقلة لكثير من أعمال رجالها الذين كانوا يحاولون تغيير و إصلاح المجتمع الجزائري آنذاك.

والعائق الثاني يتعلق في انتشار الجهل والأمية في الشعب الجزائري بسبب الاستعمار الفرنسي الذي عمل جاهدا من أجل قطع الطريق أمام كل طالب علم وذلك بتجفيف منابع العلم، لكن رغم هذه العقبة الكأداء إلا أن الحركة الإصلاحية عمدت ((إلى تعليم الشعب الجزائري وتوجيهه و إرشاده بالمحاضرات الشعبية، والدروس المسجدية البسيطة النافعة))[1].

والعائق الثالث يتمثل في الطرق الصوفية ؛ إذ لا يخفى على أحد ما لهذه الطرق من مكانة في المجتمع الجزائري قبل ظهور الحركة الإصلاحية لذا كان منتظرا أن يكون موقف هؤلاء الصوفية عنيف إزاء الحركة الإصلاحية حين ظهرت مما سبب عرقلة لمسيرة

---

[1] أحمد توفيق المدني ، كتاب الجزائر ، ص 376.
[2] سجل مؤتمر جمعية العلماء المسلمين الجزائريين ، ص 45.
[*] الرعد/ 11.
[1] د.عبد الملك مرتاض ، فنون النثر في الأدب الجزائري ، ص 47.

الإصلاح في الجزائر، وهذا لا يعني أن العمل الإصلاحي قد توقف بسبب تلك العوائق، بل وجدناه في استمرار دائم رغم العراقيل و العقبات التي اعترضت سبيله، ويتجلى ذلك واضحا من خلال حديثنا عن أثر الحركة الإصلاحية في إخصاب الحركة الثقافية العربية الإسلامية في الجزائر.

إن هدف الحركة الإصلاحية لم يكن مقتصرا على الدعوة إلى الإصلاح الديني فحسب، بل كان لها هدف آخر هو بعث الثقافة العربية لأنها ((كانت تؤمن بأن نشر الإصلاح الديني والفكري لا يمكن أن يتخذ سبيله إلى عقول المواطنين إلا إذا كان مصحوبا بالتعليم، و التعليم القومي على الخصوص، الذي يشتمل بالإضافة إلى مبادئ القراءة والكتابة، على دراسة التاريخ العربي الإسلامي))[2].

وقد سارت الجمعية في نشاطها الدعوي مصحوبا بحركة تعليمية مما مكنها من إيجاد رجال مصلحين سلاحهم الفكر والثقافة.ويمكن إبراز جهود الحركة الإصلاحية في تغيير واقع المجتمع الجزائري في المجالات التالية :

- **مجال التعليم العربي** :

وهذا المجال نجده يشمل نوعين من التعليم.

1- **التعليم المدرسي** :

كان التعليم العربي هدفا رئيسيا من أهداف الحركة الإصلاحية لذا أولته اهتماما كبيرا فانطلقت في ذلك من واقع المجتمع الجزائري إدراكا منها أن المدرسة هي الوسيلة الوحيدة لمحاربة الجهل و الأمية بعد أن ((كاد المسلم الجزائري يفقد شخصيته العربية التي تميزه عن شخصية الأوروبيين الذين يستهدفون إدماجه في كيان المجتمع الفرنسي))[1].

وهذا الاختيار الذي تبنته الحركة الإصلاحية كان الشعب في حاجة ماسة إليه، وتحقق ذلك بفتح مدارس عربية في شتى أنحاء القطر و قد انتشرت بين أبناء الجزائريين رغبة ملحة في طلب العلم كما دفع رجال الجمعية إلى استثمار ذلك الإقبال برسم منهج تعليمي مناسب مقاصده خدمة الدين والعلم والوطن،كما حثوا الناس أغنياء

---

(2) د.أحمد الخطيب ، جمعية العلماء المسلمين الجزائريين و أثرها الإصلاحي في الجزائر ، ص 197.

(1) أبو الصفصاف عبد الكريم ، جمعية العلماء المسلمين الجزائريين و دورها في تطور الحركة الوطنية الجزائرية (1931م-1945م) ، دار البعث للطباعة و النشر ، قسنطينة ، الجزائر، ط1 ، سنة 1981م ، ص 150.

وفقراء على تعليم أبنائهم وبناتهم العلوم التي تنطبق مع مقوماتهم الشخصية، وتشجيعهم على فتح مدارس حرة وذلك عن طريق تكوين جمعيات محلية في المدن المختلفة تابعة لجمعية العلماء التي ترعى العملية التربوية والتعليمية باختيار المعلمين والإشراف على سلوكهم ونشاطهم ، كما يشمل الإشراف الفني على المدارس كاختيار البرامج التعليمية ، وتأمين الكتب اللازمة للتلاميذ، و التفتيش التربوي ، و المراقبة الدورية. و كثيرا ما كانت الجمعية تحتضن المدرسة في حال تضعضع الجمعية المحلية، فتؤمن كل متطلباتها الضرورية[1].

وهذا كان دافعا قويا لاستمرار مدارس الجمعية في أداء رسالتها التعليمية. ولأهمية التعليم العربي في الجزائر حظي بعناية كبيرة من جمعية العلماء، فقد كانت تدعو القائمين عليه إلى مؤتمرات دورية قصد التوصل إلى توحيد مناهج التعليم العربي، من ذلك مثلا مؤتمر سنة 1937 الذي طرحت فيه المسائل التالية لإبداء الرأي فيها :

- وسائل توحيد التعليم.
- أسلوب التعليم.
- أسلوب تربية النشأة.
- خلاصة تجارب الأساتذة والمعلمين في التربية والتعليم.
- الكتب والاختيار بين كتب مصرية، أو تأليف كتب تتفق مع الروح الجزائرية.
- رأيهم في تعليم البنت المسلمة ووسائل تحقيقه.
- التعليم المسجدي ووسائل تنظيمه وترقيته.
- تقارير مفصلة لدرجة إقبال الأمة على التعليم بأقسامه السابقة (كل في جهته)[1]، ويدل هذا على مقدار التطور التربوي والتعليمي المنبثق عن حركة الإصلاح في الجزائر؛ إذ تكاثر عدد الطلاب الحاملين للشهادة الابتدائية فاضطرت الجمعية إلى فتح معهد التعليم الثانوي باللغة العربية في قسنطينة.

وهذا التطور أقلق الإدارة الاستعمارية مما دفعها إلى فرض مراقبة مشددة على نشاطات رجال الإصلاح و بخاصة في المجال التعليمي. لكن رد الجمعية على المضايقات والإجراءات الإدارية ضد التعليم العربي كان بالإصرار على الاستمرار في النشاط التعليمي و

---

[1] **أنظر : رابح تركي ، التعليم القومي و الشخصية الوطنية ، الشركة الجزائرية للنشر و التوزيع ، الجزائر ، سنة 1975 ، ص 312.**

[1] **أنظر : جريدة البصائر ، السنة الثانية ، عدد 80 ، ديسمبر 1937 ، ص 5.**

اللجوء إلى السلاح القانوني ، و جاء الرد على النحو التالي : ((بما أن تعليم العربية من فروع التعليم الديني، و لا يمكن المسلم أن يتعلم علوم دينية بدونها، و بما أن الحكومة ليس في وسعها أن تقوم بالمدارس الفرنسوية و المدارس العربية في آن واحد ، وأن الأمة الجزائرية تكتفي من الحكومة بأقل ما يمكن من الإعانة و المؤازرة و التشجيع، و بما أن جمعية العلماء المسلمين الجزائريين من أسس غاياتها نشر التعليم بكافة أنواعه والسعي في تعميمه بجميع الوسائل و الطرق. فإن جمعية العلماء المسلمين الجزائريين تطلب من الحكومة ترك الحرية التامة للمسلمين الجزائريين في فتح الكتاتيب القرآنية والمكاتب العربية الحرة))[2]. لكن لم تستجب الإدارة الاستعمارية لنداءات رجال الإصلاح ، بل استمرت في مضايقة التعليم الإصلاحي.

2- **التعليم المسجدي :**

يعد المسجد المكان المناسب لبعث الثقافة العربية الإسلامية ؛ لذا اتخذته الجمعية محلا لنشر رسالتها الإصلاحية في المجتمع الجزائري.

وقد أشاد ابن باديس بمكانة المسجد في أداء دوره التعليمي فقال : ((إذا كانت المساجد معمورة بدروس العلم فإن العامة التي تنتاب تلك المساجد تكون من العلم على حظ وافر و تتكون منها طبقة مثقفة الفكر صحيحة العقيدة، و بصيرة بالدين فتكمن هي في نفوسها و لا تهمل – و قد عرفت العلم و ذاقت حلاوته- تعليم أبنائها و هكذا ينشر العلم في الأمة و يكثر طلابه من أبنائها))[1].

فالمسجد كونه مكانا للتعبد فقد كان يرتاده كثير من الجزائريين على مختلف أعمارهم يتلقون دروسا تعليمية على أيدي رجال الإصلاح الذين أوقفوا جزءا من حياتهم للتدريس و توجيه المسلمين إلى ما يصلح دينهم و دنياهم.

وأسلوبهم في ذلك يعتمد على ((العناية بالمعنى و النفوذ إلى صميمه من أقرب طريق يؤدي إليه؛ وتجليته للسامعين بالصور العملية والتطبيقية، والإعراض عن اللفظيات والخلافات وكل ما يشوش أو يبعد عن تصور المعنى المقصود))[2].فأقبل الناس على

---

[2] **جريدة الصراط السوي ، السنة الأولى ، عدد 11 ، 27 نوفمبر 1933م .**

[1] **مجلة الشهاب ، م 6 ، جـ 11 ، ديسمبر 1930م ، ص 692-693.**

[2] **سجل مؤتمر جمعية العلماء المسلمين الجزائريين ، ص 58.**

التعليم صغارا وكبارا وانتشرت المساجد وبخاصة منها التي أنشأتها الأمة بجهودها الخاصة، وهذا قد أقلق الإدارة الاستعمارية فسارعت إلى إغلاق بعضها ومنع رجال الإصلاح من التعليم فيها ويدل هذا على مدى أهمية هذه المؤسسات في بناء شخصية المواطن الجزائري ليقف متحديا الاحتلال الفرنسي لبلده.

ب- مجال الكتابة :

لم تكن الكتابة في الجزائر شيئا كبيرا قبل ظهور الحركة الإصلاحية التي آمنت إيمانا راسخا بجدوى الكتابة في إيقاظ ضمير الأمة و بث الوعي بين صفوفها ، مما شجع على ميلاد أكثر من جريدة عربية . ((فبينما كانت الحكومة الاستعمارية تلح على ضرورة الغزو الفكري للمسلمين الجزائريين و تسعى لتتويج هذه الخطة بالاحتفال المئوي للاحتلال الفرنسي ، و بينما كان المثقفون الجزائريون ثقافة فرنسية ممن عرفوا بنزعتهم الغربية يمتدحون التشبه بالأوروبيين ، و يعجبون بالحضارة الغربية اندماجا و تجنسا ، كان المصلحون و من يعاضدهم في أفكارهم من الوطنيين المخلصين – كالمنتمين لحزب الشعب- مجندين جسدا و روحا لمقاومة هذه الانحرافات المتخلفة، و كان طبيعيا أن تكون الصحافة من أجل كل ذلك هي الوسيلة المفضلة التي يتصلون بها بالجماهير العريضة))[(1)].

ومن الصحف الأولى التي ظهرت آنذاك تطالعنا جريدة المنتقد الأسبوعية بمدينة قسنطينة سنة 1925م لمؤسسها ورئيس تحريرها ابن باديس، وكانت بحق المنبر الحر لفئة كبيرة من المثقفين الجزائريين ((فهي تعد الجريدة العربية الجزائرية الأولى التي جمعت الأقلام الإصلاحية المتمثلة في الشباب العربي المثقف العائد من جامع الزيتونة و الأزهر ومعاهد الشام، والحجاز، بعد الحرب، وكان هدفهم واحدا يوجزه شعارهم (الوطن قبل كل شيء)، وخطتهم مشتركة و هي الإصلاح الداخلي أولا في سبيل إصلاح شامل))[(1)]، ولكن أسلوبها الإصلاحي المتبع أقلق بعض مشايخ الطرق و بعض رجال الدين الرسميين وكان هذا سببا رئيسا في تعطيلها بأمر حكومي فلم تدم أكثر من أربعة أشهر و في هذا يقول ابن باديس : ((عجبنا أن تعطل جريدتنا بهذه التصرفات الإدارية بدون أن نعرف بالسبب أو نناقش

---

(1) **د.محمد ناصر ، الصحف العربية الجزائرية من (1847م-1939م) ، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع،مديرية الإنتاج مطبعة أحمد زبانة، الجزائر، سنة 1980م ، ص 16.**

(1) **المرجع السابق ، ص 54.**

فيه، لندافع عن أنفسنا، أو نعرف على الأقل ما استاءت منه الإدارة لنتجنبه أو نعتذر عنه –إن كان يوجب الاعتذار-.

عجبنا ...وعجبنا...و عجبنا...

ولم نعجب من هذا كله :

لأننا نعلم أن في أطراف الإدارات عناكب لا تفتأ تنسج من خيوط الأوهام بيوتا ربما حسبها بعض الرؤساء شيئا وما هي في الحقيقة إلا بيت عنكبوت.

ولم نعجب من هذا كله :

لأن جريدتنا عربية ، فهي معرضة للترجمة ، وكلمة واحدة من المترجم عن قصد حسن أو سيء، تنقل الكلام من باب إلى باب!

ولم نعجب من هذا كله :

لأن جريدتنا أهلية ، وسور الأهلي قصير ...

سواء علينا أعجبنا أم لم نعجب . فقد وقف (المنتقد) ولكن الفكرة الحرة الحقة السلمية الإصلاحية لم تقف ولن تقف))[1].

وفي نفس السنة تبرز إلى الوجود جريدة الجزائر ذات الأسلوب الأدبي الإصلاحي الواضح لمؤسسها و رئيس تحريرها محمد السعيد الزاهري التي فسحت مجالا رحبا للأقلام الكاتبة في السياسة و الأدب و الدين و الأخلاق و الاجتماع لكن السلطة الاستعمارية لم تستسغ هذه الجريدة فعطلتها في المهد حتى أنها لم يصدر منها إلا ثلاثة أعداد فقط.

وقد صدرت أيضا جريدة الإصلاح لصاحبها الطيب العقبي بمدينة بسكرة وقد ((ساهمت في تنشيط الأقلام، وبعث الهمم، ودفع المسيرة الأدبية خطوات بعيدة إلى الأمام))[2].

من هنا يمكن القول أن الحركة الإصلاحية في الجزائر قد أصدرت صحفا عربية كثيرة فسحت مجالا متنوعا للكتاب الإصلاحيين أغنوا النثر العربي والثقافة العربية في الجزائر.إلى جانب الصحف هناك كتب ظهرت في حضن الحركة الإصلاحية منها: (الإسلام في حاجة إلى دعاية و تبشير) للزاهري، و كتاب (في تاريخ الجزائر) لمبارك الميلي، وكتاب (سجل مؤتمر جمعية العلماء المسلمين الجزائريين) للإبراهيمي، وعدد من الكتب منها : (كتاب الجزائر) لتوفيق المدني و غيرها من الكتابات في المجال القصصي والمسرحي.

---

[1] عبد الحميد بن باديس ، آثاره ، جـ5 ، ص 520.

[2] د.عبد الملك مرتاض ، فنون النثر الأدبي في الجزائر ، ص 58.

جـ- مجال التفكير :

كما هو معلوم أن التفكير في أي أمة من الأمم نجده يخضع للواقع المعيش فهو في الجزائر أثناء الاحتلال الفرنسي قد تراجع كثيرا بسبب التجهيل الذي عمدت إليه الإدارة الاستعمارية مما زاد الأمر تعقيدا على كل من يريد النهوض بالأمة، و على الرغم من هذه الحالة فقد استطاعت الحركة الإصلاحية إثبات وجودها بتأسيس جمعية لها أثر كبير في التفكير الجزائري الحديث و توجيهه توجيها حرا ؛ إذ أن حرية التفكير ((تبعث في الشخص الفهم و من فهم شيئا اعتقده و دافع عنه و صار عنده واجب لا بد من حمايته والذب عنه))[1].

وقد تهيأ للجمعية رجالات درسوا و تثقفوا ثقافة عربية أصيلة ساهمت في إخصاب الفكر الجزائري الحديث الذي كان من قبل في رأي الناس قائما على الاعتقاد الجازم و التصديق الكامل دون الانتقاد أو الاستدلال.

ومن الواضح أنه نشأ عداء شديد لدى رجال الطرق إزاء العلماء المصلحين الذين أحدثوا انقلابا شاملا في الفكر الجزائري الحديث ، حيث كان التفكير في الجزائر ((يقوم على التصديق والإيمان، فزعزع المصلحون أركان هذا الإيمان الفاسد، حين طالبوا بالاستدلال في كل شيء))[2].

وهذا التوجه كان فضله عظيما على المجتمع الجزائري ؛ إذ تولد في الأمة شعور جديد بقيمة الحياة و تفاؤل كبير بالمستقبل.

وهكذا وجدنا المصلحين الجزائريين في فكرهم يدعون إلى إعمال العقل ويطالبون الناس بالدليل في كل شيء ، و على كل شيء حتى تصبح الثقافة تخدم مقاصدهم في دنياهم.

كما قاموا أيضا بتحرير إرادة الناس و زعزعة أركان التواكل في نفوسهم و ذلك بدفعهم و توجيههم إلى الشريعة الإسلامية السمحة التي تدعو إلى اتخاذ الأسباب و إتباع السنن الكونية من أجل الوصول إلى الغايات.

كما حاربوا أيضا في الناس ذلك الاعتقاد الفاسد بأن الاستعمار قضاء و قدر، فأروهم أن ذلك اعتقاد باطل و أن الإنسان الحر هو الذي يسعى دوما دون يأس لتحقيق الأمل. بهذا وغيره كان فضل

---

(1) سجل مؤتمر جمعية العلماء المسلمين الجزائريين ، ص 25.

(2) د.عبد الملك مرتاض ، فنون النثر الأدبي في الجزائر ، ص 63.

الحركة الإصلاحية عظيما على المجتمع الجزائري، بحيث استطاعت أن تبعث فيه الأمل والتفاؤل بالمستقبل الحر السعيد.

جـ- الاتجاه الأدبي :

كثيرا من الكتابات الأدبية كانت تصدر عن قرائح الكتاب الجزائريين ، وهم في هذا لم يكونوا بمعزل عن واقع الأمة، بل عبروا عن قضاياها المختلفة مما يدل على التزامهم؛ بحيث اتخذوا من الكلمة سلاحا يدافعون به عن مقوماتها و يحاربون به أيضا الانحراف السائد فيها آنذاك.

وأهم الذين كانوا يمثلون هذا الاتجاه الأدبي نذكر منهم على سبيل المثال لا الحصر : محمد البشير الإبراهيمي بكتاباته الأدبية الذي يعد بحق علم من أعلام الكتابة الذي ذاع صيته في الجزائر وخارجها، ويظهر أحمد رضا حوحو هو الآخر في كتاباته القصصية و المسرحية التي تعبر عن واقع الأمة تعبيرا ينم عن مدى التزام هؤلاء الكتاب بقضايا أمتهم، ومحمد السعيد الزاهري وأحمد بن ذياب، وأحمد توفيق المدني، وأحمد بن عاشور، وبلقاسم سعد الله، وغيرهم ممن لم نذكر، ومعظم هؤلاء الكتاب كانوا ينتمون إلى الحركة الإصلاحية وقد اعتمدوا في كتاباتهم الطريقة الأدبية التي تسخر الكلمة الجميلة المعبرة عن أحاسيس الإنسان وانفعالاته تجاه الواقع المعيش وذلك في مقالاتهم وقصصهم ومسرحياتهم وغيرها من الأعمال الأدبية الثرية.

أما عن الحركة الشعرية فإن الجزائر لم تكن ((تعرف قبل الحرب العالمية الأولى شعراء بارزين جدا))[1] وهذا لا يعني غياب الشعراء تماما بل سجل بعضهم حضورا بارزا وتناولوا قضايا الأمة المختلفة كالدعوة إلى اليقظة الوطنية ، وطلب العلم، ونبذ الجهل، والتحذير من الطرقية.

والملاحظ أن هذه الأشعار كانت تدور معظم موضوعاتها ((حول الأغراض الوطنية و الإصلاحية في المرتبة الأولى، ثم تأتي بعدها الأغراض الأخرى كالنزعة الروحية، والنزعة العاطفية، بما فيها من ذاتية حادة تتمثل في الأنين والحنين، والشكوى من صروف الزمان وقساوة الحدثان))[2].

وهذا لا يعني أن شعراء الجزائر في تلك المرحلة الزمنية لم يعنوا بالموضوعات التقليدية المألوفة كالهجاء والفخر و الرثاء...

---

(1) **المرجع السابق ، ص 66.**
(2) **المرجع نفسه ، ص 67.**

وبعد هذه المرحلة يأتي عصر النهضة الأدبية في الجزائر الذي تزامن مع بداية تأسيس جمعية العلماء المسلمين الجزائريين التي اعتمدت في الكثير من نشاطها على الصحافة الوطنية التي ((لم تجد الطريق ذلولا، ولا المسيرة سهلة، بل إن جهاد الصحافة الوطنية الجزائرية في هذا المضمار طبع تاريخ حياتها ، ورسم واقعها بطابع المقاومة المستمرة، لأنها اصطدمت منذ البداية بعدو استعماري لدود، غير أنها استطاعت أن تقاوم في دأب وصبر مما جعل تاريخها حافلا بالصراع و المقاومة ، زاخرا بآيات التصميم والتحدي))[1].

وهذه الصحافة المختلفة كانت منبرا حرا للشعراء ؛ إذ خصصت بعض صفحاتها لأشعارهم التي تعالج مختلف الموضوعات و تسجل حضورها في جميع المناسبات الوطنية.

والنتيجة التي يمكن استخلاصها من خلال ما أوردناه في هذه العجالة حول الحركة الشعرية أن هذه الفترة عرفت ازدهارا للشعر العربي، كما عرفت أيضا أعلاما من الشعراء الجزائريين تتفاوت قيمتهم الشعرية من شاعر لآخر.

والمتتبع للحركة الشعرية في الجزائر يلحظ ظاهرة عامة تجمع معظم الكتاب الجزائريين وهي محاولتهم قرض الشعر يعالجون فيه ما يشغل أذهان الشعب الجزائري من أمثال الإبراهيمي وابن ذياب وحمزة بوكوشة و غيرهم...

ومن خلال هذه النبذة القصيرة حول الحركة الشعرية في الجزائر يمكن القول أن الشعر قد أدى دوره التوجيهي و الأدبي شأنه في ذلك شأن النثر الجزائري ، ويتجلى ذلك في معالجة القضايا الاجتماعية و السياسية و الثقافية للمجتمع.

وهذا الاتجاه الأدبي في عمومه يمتاز بالنزعة التعليمية التي تعد العامل المشترك بين جميع الكتاب و بخاصة الذين يمثلون الاتجاه الإصلاحي غير أن كل واحد من هؤلاء الكتاب تفرد بأسلوبه الخاص.

و أخيرا لا بد من كلمة عن موقف الاحتلال الفرنسي من الثقافة العربية الإسلامية في الجزائر، فالفرنسيون يعتبرون الجزائر جزء لا يتجزأ من فرنسا فنتج عن ذلك محاولة المحو التام للكيان الجزائري.

ففرنسا لم تأت لإتمام البناء، بل عملت بكل ما تملك من جهود لتقويضه.ومن مظاهر ذلك ما سلطته من تضييق الخناق على المثقفين وتجفيف منابع العلم وقطع الطريق أمام طلابه مما سبب هجرة واسعة

---

[1] د.محمد ناصر ، الصحف العربية الجزائرية من (1847م-1939م) ، ص 8.

في أوساط العلماء والمثقفين، وهذا ساعد كثيرا على تغذية الأمية و تفشي الجهل في عامة الشعب، وكانت النتيجة العبث بعقول الناس وتعطيل كل ما له صلة بالنهوض بالأمة.

الفصل الثاني

تاريخ الخطابة في النثر الجزائري الحديث.

أ-تعريف الخطابة.

ب-قيمة الخطابة وأنواعها.

جـ-الخطابة عند اليونان والرومان.

د-الخطابة عند العرب.

هـ-الخطابة ومراحلها في الجزائر

ليس من حقنا أن نستعمل الحديث عن تاريخ الخطابة في النثر الجزائري الحديث دون أن نذكر بإيجاز تعريف وقيمة وأنواع هذا اللون الأدبي الذي يختلف ((عن الكتابة وعن النثر الفني؛ إذ لا شرط هناك لوجود الإقناع أو الاستمالة وقد تكون الكتابة وصفا لمنظر ما، أو صفة لحالة نفسية للكاتب، ولكن الخطابة قد تحتوي عبارات كثيرة من النثر الفني فيها جمال التركيب وحسن الحلية اللفظية كالسجع والطباق، وقد يرفع هذا قيمة الخطبة ويجعلها أشد تأثيرا لكن الخطبة في جملتها ليست نثرا فنيا يقوم على تجويد العبارات والتأنق في الأساليب، وغالبا لا يتفق هذا مع الإقناع والاستمالة))[1].

أ-تعريف الخطابة : هناك جملة من التعاريف لهذا الفن الأدبي الذي حظي باهتمام الفلاسفة والمناطقة والأدباء فوضعوا له تعاريف كثيرة منها :أن الخطابة : ((قوة تتكلف الإقناع الممكن في كل واحد من الأمور المفردة))[2].وأنها ((قياس مركب من مقدمات مقبولة أو مظنونة من شخص معتقد فيه والغرض منها ترغيب الناس فيما ينفعهم من أمور معاشهم ومعادهم))[3]. وهي ((فن مشافهة الجمهور وإقناعه واستمالته))[4].

وهي أيضا : ((فن أدبي هدفه التوجيه والتحويل والاستمالة والإقناع))[1].وأخيرا هي : ((فن من فنون الأدب النثري، مختص بكلام يلقى إلقاء أمام جمهور مستمع، ويعرف بالخطبة، ويهدف إلى توضيح أمر أو قضية هما مثار جدل، لإفهام هذا الجمهور وتوجيهه واستمالته بإثارة عواطفه، لاتخاذ موقف ما، هو الموقف الذي يرمي إليه الخطيب))[2].

فهذه التعاريف الأول منها يركز على الإقناع أي أنه يضع المخاطب في أولويات اهتمامه.

---

[1] عبد الجليل عبده شلبي، الخطابة وإعداد الخطيب، دار الشروق ، القاهرة ، ط2، سنة 1986م،ص 15.

[2] أرسطو طاليس ، الخطابة ، تحقيق وتعليق عبد الرحمن بدوي ، وكالة المطبوعات ، الكويت ، دار القلم ، بيروت ، لبنان ، سنة 1979م ، ص 9.

[3] علي بن محمد الشريف الجرجاني ، كتاب التعريفات مع فهرست ، مكتبة لبنان ، ساحة رياض الصلح ، بيروت، سنة 1985م ، ص 104.

[4] د.أحمد محمد الحوفي ، فن الخطابة ، ص 4.

[1] جورج غريب ، صدر الإسلام ، دار الثقافة ، بيروت ، لبنان ، ط4 ، سنة 1983م ، ص 57.

[2] أنطوان القوال ، فن الخطابة ، دار العلم للملايين ، بيروت ، لبنان ، ط1 ، سنة 1996م ، ص 11.

و الثـاني يركـز علـى الجانـب المنطقـي للخطبـة أي أنـه يـضع الخطيب في أولويات اهتمامه مع عدم إهمال المتلقي، وهذا التعريف إذن يركز على الخطيب المتصف بأعمال المنطق و الخطبة التـي تقوم على المقدمات والنتائج، والمتلقي الذي تقوم بعض العبارات بـديلا عنـه وهي الإقناع والاستمالة ونحوها.

والثالث يركز على الأداة المستعملة فـي الخطبـة وهـي المشافهة قصد الإقناع والاستمالة لمتلقي.

والرابع تعريف أدبي يركز على المتلقي قصد توجيهه واستمالته وإقناعه .والأخير تعريف خاص بهذا اللون الأدبـي من الفنـون النثريـة روعي فيـه الخطيـب والمتلقـي معـا فهمـا عنـصران متكـاملان للوصـول إلى الغاية.

فهذه التعاريف تفرد كل واحد منها بخاصية أو أكثر إلا أن هنـاك مـا يجمـع بينهـا جميعـا فـي بعـض خصائـصها وبخاصـة تلـك المتعلقـة بالمتلقي كالإقناع مثلا.

ب-قيمة الخطابة وأنواعها :

قد حظيت الخطابة بمنزلـة مرموقـة وأهميـة كبـرى لـدى الإنـسان في قديم الزمان وحديثه.فهي لا تقل أهميـة عـن بعـض الفنـون الأخـرى عنـد الأمـم الحيـة كالتمثيـل مـثلا فـي أداء دورهـا الرسـالي فـي بنـاء المجتمعـات؛ إذ همـا ((توأمـان وأخـوان شـقيقان، وأن منزلتهمـا مـن دواعي التهذيب والتربية الفاضلة لا رفع منزلة، وأن مكانتهما من بين مقومات الأخلاق لمنزلة الطعام والشراب من بين المقومات الجسدية، وما بنيت نهضة من النهضات الأخلاقية في الأمم الجديـدة إلا وللتمثيـل والخطابة في بنائها القسط الأوفر والحظ الأولي))[1]. غيـر أن الخطابـة تفردت بميزات لا نجدها في التمثيل.

فالخطيب من شروطه الأساسية أن يكون ذا ثقافة واسعة وليست شرطا أساسا في الممثل؛ لأن الخطيب في قولـه يحتـاج إلـى إيـراد أكثـر من دليل يرد به عن مزاعم مشبوهة، وأكثر من حجـة يفنـد بهـا حججـا واهية حتى يتبين الصواب، ولكن مثل هذه القضايا نجدها عنـد الممثـل تضيق؛ إذ هو محصور بطبيعتـه فـي أداء الـدور الـذي أنـيط بـه، فـدوره الأساسي أن يجيد تمثيل الشخصية التي انتحلها.ثم أن الخطيب مجالـه فـي القـول والتعبيـر أوسـع فهـو ينتقـل مـن فكـرة إلـى أخـرى ويـستطرد

---

[1] **محمد البشير الإبراهيمي، آثاره، جـ1، ص 32.**

ويجيز ويطنب إلى غير ذلك مما يقتضيه المقام، وهذا ما لم يتأت للممثل.فهو مقيد بكلام خاص لا يستطيع تجاوزه أو النطق بغيره.

والخطيب في مقامه الذي هو فيه ينفعل انفعالا أصيلا ذاتيا بينما الممثل غالبا ما يتصنع الانفعال وقد يقوم بحركات اضطرارية مرسومة معدة من قبل كالوثوب والجري والتلوي وغيرها من الحركات وهي حركات لا تليق بالخطيب، وهنا لا يمنع أن تكون نقاط تلاقي وتشابه بين الممثل والخطيب فكلاهما يحاول إقناع واستمالة جمهور المستمعين، وأن نبرات صوتهما وبعض حركاتهما ومقاصدهما تتشابه[1]

والخطابة كانت ولا تزال سلاح المجتمع الإنساني في سلمه وحربه، لذلك ليس بدعا إن وجدناها الوسيلة الفاعلة التي اعتمدها الأنبياء في تبليغ دعوتهم إلى أممهم، والقوة المؤثرة التي يلجأ إليها المصلحون والسياسيون لبلوغ مقاصدهم، ثم هي إلى اليوم تعد ((ضرورة حيوية للدول والشعوب والمجامع الدولية.لا يستغني عنها حاكم ولا زعيم ولا قائد ولا مصلح ولا نائب ولا معلم ولا كاتب ولا ممثل.حتى الديكتاتوريات التي تعيش على خنق الحريات اتخذتها الوسيلة للتسلط على الأذهان، وترويج ما تدعو إليه من حق أو بهتان))[2].

فالخطابة إذن ضرورة من ضرورات الإنسان وسلاح معنوي لا يمكن الاستغناء عنه في تواصل الأفراد والجماعات.فهي ((تتناول جميع نواحي الحياة، العلمية والأدبية والفنية والفلسفية والاجتماعية والسياسية والدينية والقضائية))[1].واختلاف هذه النواحي التي تعرضت لها الخطابة أدى إلى تعدد أنواعها.

ففي تلخيص الخطابة : ((أجناس القول الخطبي ثلاثة : مشوري، ومشاجري، وتثبيتي، فأما الضمير المشوري فمنه إذن، ومنه منع.وذلك أن كل من يشير : إما على واحد من أهل المدينة بما يخصه أو على جميع أهل المدينة بما يعمهم فإنما يشير أبدا بقول هو إذن أو

---

[1] أنظر د.أحمد محمد الحوفي، فن الخطابة، ص 41.

[2] د.طاهر درويش، الخطابة في صدر الإسلام، دار المعارف ، مصر، جـ1، ط2، سنة 1968 م، ص 7.

[1] علي موملحم ، في الأدب وفنونه ، المطبعة العصرية ، صيدا ، لبنان ، سنة 1970 م ، ص 135-136.

منع.وأما القول المشاجري فهو أيضا صنفان : شكاية، وتنصل من الشكاية.وأما القول التثبيتي فهو أيضا صنفان : إما مدح، أو ذم))[2].

وهناك أنواع أخرى من الخطابة هي : الخطابة السياسية والخطابة القضائية والخطابة الدينية والخطابة الاجتماعية وخطب التكريم...

فهذه الأقسام الخمسة تتداخل فيما بينها ((وهكذا لا تجد هذا التقسيم دقيقا دقة تقسيم أرسطو ولكنه يتناول حقيقة الخطبة لا زمنها، والتقسيم الزمن ليس بذي فائدة فنية))[3].

وكل هذه الخطب المتنوعة تتناول مشكلات المجتمع لذلك لم يخل من الخطابة سجل أمة وعى التاريخ ماضيها.

والخطابة في النثر الجزائري الحديث هي التي تعنينا في المقام الأول من هذا الحديث، ولكن لا يكمل الحديث عنها إلا بالإلمام بفكرة موجزة عن الخطابة عبر العصور المختلفة وبخاصة عند العرب.

جـ- الخطابة عند اليونان والرومان :

قضت بلاد اليونان حقبة زمنية طويلة في حروب ومشادات بين قبائلها المفككة، وقد اعتمدت في كل مواقفها على الخطابة مما أكسبها نضجا وقوة ونالت مكانة معتبرة في حياة وأخلاق اليونانيين فسمت ((فضيلة القول، والتعبير البليغ، وتقدم الخطيب على العالم والفيلسوف، دائبا للمنفعة التي تحدس له، من دون الحقيقة))[1]؛ وقد سجلت الخطابة اليونانية صور الحياة في اليونان واتجاههم الفكري كما سجلت بلاغتهم وسمو أساليبهم وبخاصة عندما سادت الديمقراطية وشاعت الحرية السياسية التي كانت سببا رئيسا في نشاط الخطابة ورقيها.

وتعود أسباب رقي الخطابة اليونانية إلى ما يلي :

-قيام الحروب والمناوشات التي كانت تعتمد أساسا على الخطابة وذلك بتأييد رأي أو تفنيده، وتحفيز المحاربين واستنهاض الهمم، وهذا دفع بالخطابة إلى الرقي والازدهار وظهور خطباء مفوهين.

-النظام السياسي القائم كان مشجعا للخطابة ففتح الباب واسعا أمام الآراء المختلفة التي يعبر عنها الخطباء في خطبهم، ثم يطلب من

---

[2] ابن رشد ، تلخيص الخطابة ، تحقيق وتقديم عبد الرحمن بدوي ، مكتبة النهضة المصرية ، القاهرة ، سنة 1960م ، ص 29.

[3] عبد الجليل عبده شلبي ، الخطابة وإعداد الخطيب ، ص 78.

[1] إيليا حاوي ، فن الخطابة وتطوره عند العرب ، ص 26.

المتلقين إعلان رأيهم فيما سمعوه، وهنا تظهر براعة الخطيب في استمالة وإقناع الجماهير بتنميق العبارة وتخير الأساليب والألفاظ المؤثرة.

-نظام اليونان القضائي كان هو الآخر مشجعا على الخطابة وذلك دفع المحامين إلى الاهتمام بها وتخير القول المؤثر في عواطف القضاة لتحقيق مقاصد المتقاضين.

-النظام اليوناني القائم في عمومه كان يقضي أن يدافع كل فرد في المجتمع عن نفسه وهذا ما دفع بجمهور الشعب إلى تعلم الخطابة والتدرب عليها مما جعلها تنشط وتزدهر في المجتمع اليوناني[1].

وعن الخطابة الرومانية فقد كانت بين الظهور والأفول تبعا للواقع المعيش، علما بأن الخطابة لا تنمو إلى تحت راية الحرية.ولم تكن الحياة الرومانية تتمتع بحرية كافية، ولكن لم يمنع ذلك من ظهور خطباء لم ينساهم التاريخ أمثال (شيشرون) وبروز مواقف خطابية عظيمة من حين لآخر في الإمبراطورية الرومانية.

د-الخطابة عند العرب :

أما الخطابة عند العرب فإن أهم ما يعنينا في هذا الحديث الخطابة في الجزائر، وقبل ذلك يجمل بنا أن نتحدث بإيجاز عن الخطابة في العصر الجاهلي مرورا بالعصر الإسلامي إلى العصر الحديث.

ففي العصر الجاهلي كانت الخطابة من أبرز الفنون القولية المعبرة ((عن أحوال المجتمع العربي الوجدانية والاجتماعية والدينية والفكرية، فأرخت قبل مجيء الإسلام للمنازعات القبلية ولدهشة العربي التي بعثته على التأمل في الكون والدعوة للاعتبار بأحداثه وحقائقه))[1]؛ لذا يمكن القول أن الخطابة عند العرب كانت لهم ضرورية وفيهم فطرية، وإنما لم يصلنا منها إلا القليل معظمها أقوال وجيزة تلقى ارتجالا في شتى المناسبات، ومع ذلك فإن ما تبقى من خطبهم يعد سجلا تاريخيا لماضيهم وخلاصة تجاربهم في الحياة، منها قول قس بن ساعدة الأيادي يخطب في الناس : ((اسمعوا وعوا، من عاش مات، ومن مات فات، وكل من هو آت آت، إن في السماء لخبرا، وإن في الأرض لعبرا، سحائب تمور ونجوم تغور، في فلك

---

[1] أنظر، عبد الجليل عبده شلبي ، ص 145-146.

[1] د.مصطفى الزباخ، فنون النثر الأدبي بالأندلس في ظل المرابطين ، الدار البيضاء ، المغرب ، الدار العالمية ، بيروت ، لبنان ، ط1، سنة 1987م ، ص 209.

يدور، ويقسم قس قسما، إن لله لدينا هو أرضى من دينكم هذا.ثم قال : ما لي أرى الناس يذهبون ولا يرجعون، أرضوا بالإقامة فأقاموا، أم تركوا فناموا...))[2].

فلما ظهر الإسلام كانت الخطابة أول سلاح استعمل لإعلان العقيدة الجديدة والدعوة إليها، وكان هذا سببا رئيسا في ازدهارها وتعدد أساليبها وتنوع أفكارها، وقد عمق الإسلام قيمتها وجعلها من الأركان الأساسية في صلاة الجمعة والعيدين والحج، كما كانت سلاحا فاعلا في كل مناسبة يدعى فيها إلى مبادئه السمحة. بالتالي قويت الخطابة وكثر الخطباء وأضحى المحيط الإسلامي كله مدرسة خطابية لا يمكن الاستغناء عنها بل تمثل حضورا قويا في كل مناسبة يدعى فيها إلى الإسلام قوله (صلى الله عليه وسلم) في خطبته يوم حجة الوداع : ((...أيها الناس، اسمعوا مني أبين لكم، فإني لا أدري لعلي لا ألقاكم بعد عامي هذا في موقفي هذا.أيها الناس، إن دمائكم وأموالكم عليكم حرام إلى أن تلقوا ربكم، كحرمة يومكم هذا في شهركم هذا في بلدكم هذا.ألا هل بلغت، اللهم أشهد.فمن كانت عنده أمانة فليؤدها إلى الذي ائتمنه عليها، وإن ربا الجاهلية موضوع، وإن أول ربا أبدأ به ربا عمي العباس بن عبد المطلب، وإن دماء الجاهلية موضوعة، وإن أول دم أبدأ به دم عامر بن ربيعة بن الحارث بن عبد المطلب، وإن مآثر الجاهلية موضوعة غير السدانة والسقاية. والعمد قود، وشبه العمد ما قتل بالعصا والحجر، ففيه مائة بعير، فمن زاد فهو من أهل الجاهلية...أيها الناس، إن لنسائكم عليكم حقا، وإن لكم عليهن حقا، لكم عليهن أن لا يوطئن فرشكم غيركم، ولا يدخلن أحدا تكرهونه بيوتكم إلا بإذنكم، ولا يأتين بفاحشة، فإن فعلن فإن الله قد أذن لكم أن تعضلوهن وتهجروهن في المضاجع وتضربوهن ضربا غير مبرح، فإن انتهين وأطعنكم فعليكم رزقهن وكسوتهن بالمعروف، وإنما النساء عندكم عوان لا يملكن لأنفسهن شيئا، أخذتموهن بأمانة الله، واستحللتم فروجهن بكلمة الله، فاتقوا الله في النساء واستوصوا بهن خيرا...))[1].

وفي العصر الأموي تألقت ((الخطابة العربية عامة، والسياسة خاصة، وبلغت فيه غاية بعيدة من الرقي والازدهار))[2].بل كان حظها

---

[2] ابن عبد ربه ، العقد الفريد ، شرحه وضبطه وعنون موضوعاته ورتب فهارسه أحمد أمين وآخران ، دار الكتاب العربي ، بيروت ، جـ4، سنة 1983م ، ص 128.

[1] المصدر السابق ، جـ4، ص 57-58.

[2] د.إحسان النص ، الخطابة السياسية في عصر بني أمية ، دار الفكر ، دمشق ، سوريا ، ص 3.

من الرواج في هذا العصر ما لم يكن في غيره من عصور الأدب العربي كلها وبخاصة في أول قيام الدولة، والسبب في هذا كله يعود إلى توفر دواعي كثيرة على رأسها الصراع السياسي والديني بين الفرق الإسلامية التي اعتمدت على الخطابة في الدعاية والتشهير فكان ((كل حزب ينتقص خصومه ويذكر معايبهم، وقامت لذلك محاورات ومناظرات كثيرة عنيفة، وهي في جملتها لم تخرج عن منهج الخطابة))[1] مما هيأ مجالا خصبا لبروز خطباء فطاحل نالوا شهرة فائقة، وقد ساعد على رواجها أيضا أن المستمعين كانوا لا يزالون عربا خلصا يفهمون اللغة العربية ويقدرون الكلام الجيد البليغ، ويقتبسون من القرآن، وهذا ما شجع على الخطابة وتحسينها وتجويد عباراتها.

والنماذج الخطابية في العصر الأموي أكثر من أن تحصى، منها على سبيل التمثيل لا الحصر خطبة معاوية بن أبي سفيان لما قدم المدينة تلقاه رجال قريش، فقالوا : الحمد لله الذي أعز نصرك، وأعلى كعبك، فلم يرد عليهم حتى صعد المنبر فقال : ((أما بعد: فإني والله ما وليتها بمحبة علمتها منكم، ولا مسرة بولايتي، ولكن جالتكم بسيفي هذا مجالدة، ولقد رضت لكم نفسي على عمل ابن أبي قحافة، وأردتها على عمل عمر، فنفرت من ذلك نفارا شديدا، وأردتها على ثنيات عثمان، فأبت علي فسلكت بها طريقا لي ولكم فيه منفعة، مؤاكلة حسنة، ومشاربة جميلة، فإن لم تجدوني خيركم فإني خير لكم ولاية –والله لا أحمل السيف على من لا سيف له، وإن لم يكن منكم إلا ما يستشفي به القبائل بلسانه، فقد جعلته له ذلك دبر أذني وتحت قدمي، وإن لم تجدوني أقوم بحقكم كله فاقبلوا مني بعضه، فإن أتاكم مني خير فاقبلوه، فإن السيل إذا زاد عنى، وإذا قل أغنى، وإياكم والفتنة، فإنها تفسد المعيشة، وتكدر النعمة))[1].

ولما جاءت الدولة العباسية استمر الصراع بسبب الخصومات، وانتشرت الثقافة العربية وتنوعت مناهلها واستوعبت كثيرا من الثقافات الأخرى الأمر الذي أدى إلى ازدهار الخطابة وتنوعها، بحيث أصبحت فنا منظما قائما بذاته تناولت موضوعات الحياة المختلفة وبخاصة منها السياسية التي ((اتخذتها الثورة العباسية أداتها في بيان حق العباسيين في الحكم، وكانوا يحسون منذ أول الأمر بأن أبناء

---

[1] د.عبد الجليل عبده شلبي ، الخطابة وإعداد الخطيب ، ص 210.
[1] ابن عبد ربه ، العقد الفريد ، جـ4، ص 81-82.

عمهم العلويين يضطغنون عليهم استئثارهم بالخلافة من دونهم، فمضوا يؤكدون في خطابتهم أنهم أصحاب هذا الحق))[2] ولكن لم تستمر الخطابة السياسية في قوتها بل تضاءلت ولم يعد لها شأن يذكر، غير أن الخطابة الدينية وما اتصل بها من وعظ ظلت مزدهرة طيلة هذا العصر، ويجمل بنا أن نذكر خطبة دينية لهارون الرشيد : ((...أوصيكم عباد الله بتقوى الله.فإن في التقوى تكفير السيئات، وتضعيف الحسنات، وفوز بالجنة، ونجاة من النار، وأحذركم يوما تشخص فيه الأبصار، وتبلى فيه الأسرار، يوم البعث ويوم التغابن ويوم التلاق، يوم لا يستعتب من سيئة، ولا يزداد في حسنة، يوم الآزفة إذ القلوب لدى الحناجر كاظمين، ما للظالمين من حميم ولا شفيع يطاع، يعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور، واتقوا يوما ترجعون فيه إلى الله ثم توفى كل نفس ما كسبت وهم لا يظلمون.عباد الله إنكم لم تخلقوا عبثا، ولن تتركوا سدى، حصنوا إيمانكم بالأمانة، ودينكم بالورع، وصلاتكم بالزكاة...))[1].

ولكن حين أصيبت الدولة العربية الإسلامية بالتراجع والركود وتدهورت الثقافة العربية الإسلامية؛ إذ ((تكاد المصادر تجمع على أن الثقافة الإسلامية قد أخذت في التدهور منذ عهد المعتصم بينما ظهرت الطرق الصوفية منذ القرن الخامس الهجري))[2] وهذا أثر سلبا على الأدب العربي في العصور التالية وبخاصة عصر الأتراك الذي انتشر فيه التصوف الخرافي والانحطاط الثقافي، مما هيأ أسبابا لانحصار الخطابة في ميدان واحد تقريبا وهو الجامع، وهذا أمر طبيعي أن تتحول الخطابة عن مكانتها ودورها الرسالي الذي تؤديه إلى صورة مغايرة تماما لتلك التي ألقاها بحيث أصبحت تتسم بالتقليد والميل إلى الركاكة وبروز ظاهرة التكلف في أسلوبها وطابعها العام واقتصار أغراضها على الغرض الديني وحده، يتناول الخطيب فيها نفس المعاني التي تناولها السابقون دون مراعاة طبيعة المرحلة .

هـ-الخطابة ومراحلها في الجزائر :

- مرحلة ظهور الأمير عبد القادر :

---

[2] د.شوقي ضيف ، العصر العباسي الأول ، دار المعارف ، مصر ، ط9، ص 448.

[1] ابن عبد ربه ، العقد الفريد ، جـ4، ص 103.

[2] د.أبو القاسم سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي (1500م-1830م)، دار العربي الإسلامي، بيروت، لبنان، جـ1، ط1، سنة 1998م ، ص 185.

كان يمكن أن تستمر الخطابة غداة الاحتلال الفرنسي على النحو الذي كانت عليه إبان تواجد الأتراك فيها ((لولا ظهور الأمير عبد القادر وبعض المثقفين الجزائريين الذين ملكوا ناصية القول وأدركوا خطر الخطابة في الدعوة إلى الجهاد واستنفار الذين يحاربون الأعداء خاصة وأن فترة الاحتلال كانت تساعد على هذا اللون من النثر))[1]، مما أسهم في بروز خطباء فطاحل تمكنوا من القول وأبدعوا في الخطابة وصياغتها الفنية، وخطوا بها خطوات معتبرة؛ إذ تحررت من التقليد الجامد ((وأصبحت فنا هدفه الإبانة والإفصاح عن الرأي))[2]، مراعية طبيعة المرحلة المتميزة بالصراع والفتن الداخلية معبرة عن الحالة الاجتماعية والسياسية التي تعيشها الأمة من مثل ما جاء في خطاب السيد علي أبو طالب عم الأمير عبد القادر أمام مجلس عام من العلماء وأعيان الدولة يتحدث فيه بإطناب عن الحالة التي كانت عليها البلاد وما أحدثه الاحتلال فيها من اضطراب معتمدا على العاطفة الدينية حتى يقنع الناس ، يقول : ((وقد علمتم -أيها السادة- أنه لما تكاثرت المظالم، وتواطأ العمال، ومن وافقهم على ارتكاب المآثم، انتقم الرب –تعالى- منهم، وعمنا ذلك معهم قال تعالى : **{واتقوا فتنة لا تصيبن الذين ظلموا منكم خاصة}*** فسلط الله علينا عدو ديننا، فتكالب على بلادنا، واستولى على مراسينا، واستبدل مساجدنا فيها بالكنائس، وأخلاها من المدرس والدارس.فخرج لذلك أهل قطرنا، وضاقت بهم أرض مغربنا، واستبدلوا القصور المشيدة بخيام الشعر، ومضارب الوبر، وتفرقوا أوزاعا في المواطن، وتباينوا في الموارد والمعاطن، وتغيرت الأحوال واشتبه الممكن بالمحال، وتوالى الحل والارتحال، وضعف الرجاء في أن يثوب المسافر، ويعود الشارد النافر إلى أن طالت القصة وعز ما ندفع به هذه الغصة، ومالت شمس الاتفاق إلى الأفول، وتهيأ جند التناصر والتعاضد للرواح والقفول...))[1].

فالقارئ لنص الخطبة يلاحظ مدى تعبيرها عن واقع الناس وتصويرها لحياتهم المهتزة، وهذا في أسلوب واضح بعيد عن التكلف الزائد مراعيا طبيعة المرحلة التي تحياها الأمة.

---

[1] د.عبد الله الركيبي ، تطور النثر الجزائري الحديث ، ص 12.

[2] المرجع نفسه ، ص13.

*** الأنفال / 25.**

[1] الأمير محمد بن عبد القادر الجزائري، تحفة الزائر في تاريخ الجزائر والأمير عبد القادر، جـ1، 2 ، ص 274-275.

فعم الأمير من خلال كلامه يريد الوصول إلى قضية شغلت باله كثيرا، وهي الوصول إلى إظهار ابن أخيه الأمير عبد القادر الذي يراه الرجل المناسب لتلك المرحلة يقول : ((فأظهر –الله تعالى- بلطفه بدر الدين، ومؤيد كلمة المؤمنين ابن أخي هذا، السيد عبد القادر بن محي الدين.فبذل جهده في الذب عن الدين والوطن وأتى في ذلك، من العجائب والغرائب ما هو به قمن.فكم من حروب أضرم نارها، وكم من كروب أزالها عن المسلمين وأطفأ أوارها، وكم ضيق على العدو وأخذ بمخنقه، وصيره محجورا، في أحرج مكان وأضيقه...))[2].

أما الأمير عبد القادر في إحدى خطبه يبين موقفه إزاء تلك الفتن الداخلية حين كتب إليه (موسى بن حسن) يدعوه إلى الجهاد فأجابه أن هذا الأمر غير ممكن الآن لما وقع من معاهدة بينه وبين الفرنسيين وأنه مبايع من أهل الوطن.فلما بلغه الرد لم يقتنع بذلك وعزم العقد على قتاله فتهيأ الأمير للقائه وخطب في عسكره خطبة أفصحت عن رأيه في أسلوب مباشر يخدم الغرض يقول : ((أما بعد؛ فاعلموا أن الحق تعالى : قلدني هذا الأمر للمدافعة والذب عن الدين والوطن، وقد بلغكم خبر هذا الرجل.فإن تركته وشأنه أخاف على الوطن أن تغتاله غوائل الفرنسيين على حين غفلة، وينشأ عن ذلك المفاسد ما يعسر علينا إصلاحه))[1].

أما موقفه تجاه الأعداء وبخاصة حين نقضوا العهد لم يجد سوى أسلوب الحماس المفعم بالعاطفة الدينية طريقا قويا لاستنهاض الهمم وشحذ العزائم للثورة ضد المحتلين يقول : ((أما بعد؛ فلا يخفى أن الله تعالى قال في كتابه المجيد : **{يا أيها الذين آمنوا قاتلوا الذين يلونكم من الكفار وليجدوا فيكم غلظة}*** وقال : **{وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة ويكون الدين كله لله}****.وهؤلاء القوم قد عاهدناهم فنكثوا، وصدقناهم فغدروا، وصابرناهم فلم يصبروا، وإن تركناهم وشأنهم فلا نلبث أن نراهم قد فتكوا بنا على حين غفلة.وها هم قد خدعوا الدوائر والزمالة وغيرهم من ضعفاء الدين وحازوهم إليهم. فما الذي يمنعنا من دفاعهم ومقاومتهم؟. ونحن موعودون بالنصر على أعدائنا فهيا بنا أيها المسلمون إلى الجهاد، وهلموا إليه باجتهاد، وارفعوا عن عواتقكم برود

---

(2) المصدر نفسه ، جـ 1، 2، ص 275.
(1) المصدر السابق ، جـ 1 ،2 ، ص 227.
*** التوبة / 123.**
**** الأنفال / 39. .**

الكسل، وأزيلوا من قلوبكم دواعي الخوف والوجل.أما علمتم أن من مات منكم مات شهيدا، ومن بقي نال الفخار وعاش سعيدا))[1].

فهذه النماذج الخطابية التي سقناها لم نأت بها قصد الدراسة والتحليل بل هي للاستدلال عن طبيعة المرحلة وعلى مستوى الخطاب الذي يؤكد صمود اللغة العربية وتفوقها رغم العوائق والظروف القاسية التي تعرضت لها منذ بداية الاحتلال الفرنسي، وفي الوقت نفسه فإن هذه النماذج الخطابية عبرت عن الواقع المعيش في أسلوب واضح ومضمون لا تكلف فيه، وما ورد من سجع إنما جاء عفو الخاطر مما يدل على أن هذا الفن قد تحرر من تلك القيود المكبلة وأصبح هدفه خدمة قضايا الأمة، وأن أصحابه يفقهون طبيعة المرحلة التي يعيشونها.

-مرحلة ما بعد الأمير عبد القادر :

أما بعد الأمير عبد القادر فقد ضعفت الخطابة وتراجعت عن الدور المنوط بها، وذلك لما أحدثه الاستعمار الفرنسي من انقلاب شامل في الحياة بصورة عامة والحياة الأدبية بصورة خاصة ((فكان تأثيره قويا على أداة الخطابة أي على اللغة العربية التي ضعفت بل كادت تختفي من الحياة الأدبية والثقافية، الأمر الذي أثر في أسلوب الخطابة كما أثر في أسلوب غيرها من الفنون الأدبية النثرية، خاصة بعد منتصف القرن الماضي وكان أن انحسرت الخطابة في دائرة ضيقة بعيدة عن واقع المجتمع وظروفه، وأوت - اللغة- إلى المساجد والزوايا وباتت تقليدا لعصور الانحطاط بل أشد ضعفا منها من حيث أسلوبها أو موضوعها))[1] ؛ بالتالي سادت في المجتمع الجزائري آنذاك نوع من الخطابة ساعدت على تكريس سياسة التجهيل وزرع الخرافات والأوهام الباطلة يرددها خطباء كان تعليمهم بسيطا وثقافتهم مهتزة مما أعاق مسيرة وتطور هذا الفن في تلك الحقبة الزمنية .

فهذا هو حال الخطابة في تلك المرحلة؛ إذ تراجعت وأصبحت عائقا أمام تطور هذا اللون الأدبي من الفنون النثرية الجزائرية، لكن الأمر لم يبق على حاله رغم الظروف الصعبة التي تمر بها البلاد فهناك محاولات جادة لبث الأفكار الإصلاحية، وهذا قبل أن تظهر فكرة إنشاء منظمة العلماء الجزائريين.

---

(1) الأمير محمد بن عبد القادر الجزائري، تحفة الزائر في تاريخ الجزائر و الأمير عبد القادر، جـ 1،2، ص 236.

(1) د.عبد الله الركيبي ، تطور النثر الجزائري الحديث ، ص 19.

-مرحلة ما قبل ظهور جمعية العلماء :

ففي هذه المرحلة قد اتخذت الخطابة أداة للتعبير مما أعطاها نفسا قويا لاسترجاع مكانتها الرائدة، ومن الذين اعتمدوها في هذه المرحلة صالح بن مهنا القسنطيني الذي يعد بحق من الأوائل في التبشير بالنهضة الإصلاحية في الجزائر قبل أن يستقيم عودها.

فها هو في إحدى خطبه يعبر عن تلك المرحلة في أسلوب واضح رغم ما ورد فيه من سجع لكن سجع يخدم الموضوع، موجها خطابه لأكثر من فئة في المجتمع يقول : ((...يا معشر الشباب كم من زرع جاح قبل الأوان، وكم من غصن صار حطبا إلى النيران، وكم من شباب أدرج في الأكفان فكأنه ما كان، فلا يغرنكم الشباب، فإن مصيره إلى تراب، فبادروا بالتوبة قبل غلق الباب وسدل الحجاب، عسى أن تدخلوا في قول سيد ولد عدنان، وشاب نشأ في عبادة الله في ظل عرش الرحمن يوم لا ظل لإنسان إلا ظل الملك الديان.

ويا معشر الأغنياء ليس المال في حد ذاته كرامة، إنما الكرامة في التوفيق والاستقامة، فالمال نعم العون لأهل التوفيق والإحسان، وبئس العون لأهل الفسوق والعصيان، فالمال عندك أمانة وأنت وكيل، فاتق فيما أولاك الجليل، فإن الوكيل الخائف آثم ومعزول، والوكيل الأمين مأجور ومقبول.

ويا معشر الفقراء لا تجعلوا فقركم فقرين، فقرا من الدنيا وفقرا من الدين، فإن الفقر ينقسم إلى قسمين : فقر مثوبة وفقر عقوبة، فعلامة فقر المثوبة الصبر والطاعة، وعلامة فقر العقوبة السخط والإضاعة.واعلموا أن الفقر شعار الأنبياء والمرسلين، ودثار الأولياء والصالحين، فليس فرعون بأعز من موسى بن عمران، ولا قارون بأكرم من محمد صاحب القرآن.

ويا معشر العلماء العالم هو المقبل على شأنه العارف بأهل زمانه. حرفته الطاعة وبضاعته القناعة، إن احتيج إليه أفاد، وإن استغنى عنه أغنى نفسه برب العباد.ليس بعياب ولا مغتاب.قد سد باب الطمع، وتواضع لله وخشع، وليس العالم الذي يحفظ كلمات من الجراب، لسانه عامر وقلبه خراب، قد ملأ صحيفته ذنوبا وأوزارا **{مثل الذين حملوا التوراة ثم لم يحملوها كمثل الحمار يحمل أسفارا}***، فاستعيذوا بالله من علم لا ينفع، وقلب لا يخشع، وعمل لا

*** الجمعة / 5.**

يرفع، ونفس لاتشبع.واعلموا أن العلماء العاملين هم ورثة الأنبياء والمرسلين. وأن علماء السوء هم خلفاء إبليس وورثة الشياطين.

ويا معشر القضاة. القضاة ثلاثة قاض في الحنة، وهو الذي عرف الحق وبه حكم، وقاض في النار ، وهو الذي عرف الحق وجار وظلم، والثالث في النار وهو الذي حكم بالجهل وما علم.واعلموا أن أهل العدل على منابر من نور، وأهل الجور تغل أيديهم إلى أعناقهم فلا يفكها إلا العدل.

ويا معشر التجار لا تكونوا من التجار الفجار الذين بالنهار يحلفون الأيمان وبالليل يحسبون الإيمان.وينقصون الكيل ويفسدون الميزان، ويكتمون عيب السلعة ويخدعون ويغشون أهل الإيمان.واعلموا أن التاجر الصدوق في ظل عرش الرحمن.

ويا معشر الصناع عليكم بالنصيحة والإتباع، والمحافظة على الفرائض وترك الغش والخداع، فمن غشنا ليس منا، والله يحب المؤمن المحترف أبا العيال.ولا يرضى بعبد بطال.

ويا معشر الظالمين إن ظلم العباد سبب للطرد والإبعاد فلا تظلموا المخلوقات، فإن الظلم سبب لنزع الإيمان عند الممات...ويا معشر المظلومين، إن دعوة المظلوم ترفع على الغمام...ويا معشر العائقين لن تنفعكم الأعمال مع سخط الوالدين، ولو أتيتم بأعمال كالجبال لن يرضى عنكم ذو الجلال حتى تكونوا من التائبين...))[1].

القارئ لهذه الخطبة يفهم طبيعة المرحلة التي قيلت فيها، فهي تعبر عن واقع تعيشه الأمة آنذاك.فالخطيب هنا يوجه خطابه لأكثر من فئة في المجتمع الجزائري قصد الإصلاح، لذا تعد الخطبة إصلاحية، وقد جاءت في أسلوب سهل مباشر قصد توصيل الفكرة، وما ورد فيها من سجع لم يؤثر في الموضوع، بل يخدمه.

-مرحلة ظهور جمعية العلماء :

أما بعد ظهور العلماء ((أولئك الجزائريين المثقفين الذين بالرغم من تعليمهم العربي وتوجيههم الإسلامي، أصبحوا هادفين بشكل واضح سياسيا ووطنيا))[1] ، وقد لاحظنا أن هؤلاء العلماء قد تأثروا بغيرهم من العلماء خارج الوطن، وتعلموا أفكارا جديدة عن الحضارة

---

[1] سليمان الصيد ، صالح بن مهنا القسنطيني، حياته ، تراثه ، دار البعث ، قسنطينة، الجزائر، ط1 ، سنة 1983م، ص 188 - 191.

[1] د.أبو القاسم سعد الله ، الحركة الوطنية الجزائرية (1900-1930)، جـ2 ، ص 428.

الإسلامية واكتسبوا تصورات عامة عن قوى العالم ومشاكله، وعند عودتهم إلى أرض الوطن دبت فيهم روح التغيير، وظهرت بينهم فكرة إنشاء منظمة تعكس طموحاتهم، فتم تأسيس جمعية العلماء المسلمين ولكن تأسيسها لم يكن ((خفيف الوقع على الجماعات التي ألفت استغلال جهل الأمة وسذاجتها وعاشت على موتها، ولكن التيار كان جارفا لا يقوم له شيء، فما كان من تلك الجماعات إلا أن سايرت الجمعية في الظاهر وأسرت لها الكيد في الباطن))[2]. لكن الجمعية مضت قدما في حركتها الإصلاحية التي لم تكن في معزل عن العالم بل كانت تتابع مجريات أحداثه وبخاصة المنطقة العربية التي تأثرت بإشعاعات حركاتها الفكرية والإصلاحية ((لأن الجزائريين كانوا في باكورة القرن العشرين يترقبون بشوق ملتهب وصول بريد المشرق العربي الذي كان يحمل إليهم كتب علمائه ومجلاتهم التي تنشر مقالات وأفكار مصطفى كامل ومحمد زيد وعبد العزيز جاويت وغيرهم من قادة الحركة الفكرية))[1].

فالتف حول هذه الجمعية أدباء ومصلحون يدعون إلى العودة إلى المنابع الصافية للإسلام وتقاليد السلف الصالح.من هنا نشأت الجمعيات والنوادي الثقافية وانتشرت الصحافة الوطنية مما أدى إلى ظهور خطابة متطورة في أسلوبها ومضمونها وموضوعها؛ إذ أصبحت فنا راقيا ساهم مساهمة فاعلة في تنوير العقول وتهيئتها لتحمل أعباء المسؤولية في عملية التغيير للواقع الجزائري الذي يرزح تحت نير الاستعمار.وطبيعيا أن تنشط الخطابة في مثل هذه الأجواء المتميزة بالحركة والصراع المحتدم بين جميع الأطراف والدعوة إلى فكر مستنير يستمد أصالته من تاريخ الأمة الأصل ويعتمد اللغة العربية الفصيحة وبيانها المشرق في تبليغ تلك الأفكار الإصلاحية.

إلى جانب هذا الاتجاه الإصلاحي هناك ((اتجاه آخر يركز على الناحية السياسية الوطنية ويهاجم الاستعمار بجرأة وصراحة فائقة ويمثل هذا الاتجاه (خطباء حزب الشعب) الذين ذهبت آثارهم، ذلك أن طريقهم في مواجهة السلطات الاستعمارية جعلت من الصعب نشر خطبهم أو تسجيلها، كما أن صحفهم كانت تصادر باستمرار))[2].لذا يجمل بنا أن نعود إلى الحديث عن جمعية العلماء المسلمين الجزائريين

---

[2] سجل مؤتمر جمعية العلماء المسلمين الجزائريين ، ص 51.

[1] محمد علي دبوز ، نهضة الجزائر الحديثة وثورتها المباركة ، جـ2 ، ص 28.

[2] د.عبد الله الركيبي ، تطور النثر الجزائري الحديث ، ص 21.

وطريقة دعوتها في الإرشاد العام للشعب الجزائري في كافة المجالات منطلقة من قوله تعالى: **{إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم}**[*].فرجال الجمعية كانوا يدركون تمام الإدراك مقاصد هذه الآية الكريمة ما جعلهم يأخذونها نقطة بداية وانطلاق في عملية التغيير الذي من أجله تأسست الجمعية.

والحق أنه لا يمكن حصر أهداف الجمعية في مجال واحد كما هو معلن بأنها جمعية إصلاحية تتبنى الدين الإسلامي قصد إرشاد وتهذيب الناس، ولكن هذا النهج يخفي في طياته غايات أخرى ((في جوهرها سياسية أرادوا ذلك أم لم يريدوا، وقد اتضح ذلك في مواقف سياسية مختلفة، ويؤكد هذا الرأي الاضطهادات التي تعرض لها زعماء الجمعية كالزج بهم في السجون والمحاكمات، ومختلف الاتهامات))[1].

والأهداف التي تصبو إليها جمعية المسلمين الجزائريين كثيرة يمكن حصرها في هدفين أساسيين: الأول يتمثل في محاربة المبطلين الذين شوهوا صورة الإسلام، وتخليصه مما علق به من دجل وشعوذة وانحراف، ومحاربة الآفات الاجتماعية التي غرقت فيها الأمة، ومحاولة إحياء اللغة العربية بإنشاء المدارس والمساجد الحرة التي تبث في المجتمع ثقافة أصيلة وتربية عربية إسلامية، والوقوف أمام ما تعرضت له الأمة من انهزام نفسي ومحاولة للقضاء على هويتها ومسخ شخصيتها ومحو معالمها الأصيلة.

أما الهدف الثاني فلا يقل أهمية عن الأول، لذا كثيرا ما كانت الجمعية تخطط له وتعمل من أجله، وهو استرجاع حرية واستقلال البلاد وبناء دولة عربية إسلامية، وقد تجلى ذلك في أكثر من مناسبة يتاح فيها الحديث لقادة الجمعية وأعضائها، وكانت الخطابة الأداة الفاعلة في ذلك، إذ كانت الوسيلة الناجعة التي اعتمدتها الجمعية في كثير من نشاطاتها الأمر الذي هيأ مناخا مناسبا لتطورها في الأسلوب والمحتوى، بل أصبحت فنا يؤدي دوره الرسالي على أكمل وجه في الواقع المعيش وفي كافة المجالات التي سنحاول الإشارة إليها من خلال نماذج خطابية متنوعة في تلك المرحلة من تاريخ الجزائر الحديث.

---

[*] الرعد / 11.

[1] أبو الصفصاف عبد الكريم ، جمعية العلماء المسلمين الجزائريين ودورها في تطور الحركة الوطنية الجزائرية (1931م-1945م) ، ص 108.

وقد برز من خطباء الإصلاح في الجزائر عدد كبير اشتهروا بالفصاحة والبيان والقدرة على توعية الجماهير ودفعهم إلى مقاومة الاحتلال، نقف عند بعضهم وهذا قصد التمثيل لا الحصر لإبراز مكانة الخطابة في تلك المرحلة التي تمر بها البلاد، ويأتي في مقدمة هؤلاء الإمام الشيخ عبد الحميد بن باديس الذي حين يخطب لا يركز على غرض واحد من أغراض الخطابة بل يتناول مختلف الموضوعات الدينية والإصلاحية والاجتماعية والسياسية.

وفي هذا كله كان لا يتكلف أو يسعى لإبراز قدراته اللغوية بل اتخذ الخطابة وسيلة يستخدمها لإظهار مقاصده في التربية والإصلاح مما جعله ((ككل الرجال العظام الذين تركوا بصماتهم الثابتة في تاريخ أمتهم، ولعبوا دورا فعالا في مجرى هذا التاريخ))[1]، لذلك نجده يحسن استغلال الفرص المناسبة لتوضيح أفكاره ونشرها بين الناس في مثل خطابه الذي يتحدث فيه عن قضايا مهمة في حياة المجتمع الجزائري وهي: العربية، والإسلام، والعلم، والفضيلة التي تعد من مقوماته الأساسية وأسباب نهوضه؛ إذ طالما استهدفها المحتل الفرنسي للقضاء عليها.

فالأفكار الإصلاحية كانت محل عناية لدى الشيخ ابن باديس في خطبه التي غالبا ما يركز فيها على أكثر من موضوع من الموضوعات الجادة التي تخدم المجتمع الجزائري برمته من مثل ذلك قوله في خطابه سنة 1937م : ((الحمد لله الذي فضلنا بالعقل، وكملنا بالعلم، وجملنا بالفضيلة، وأسعدنا بالهداية والتوفيق.

والصلاة والسلام على سيدنا محمد الكامل بالفطرة، المكمل بالعصمة، المبعوث إلى الخلق رحمة، الداعي بالحكمة والموعظة الحسنة، إلى أقوم طريق.

وعلى آله المنبثقين من أكرم نبعه، والمتحدرين من أطهر مزنه، والنابتين من أطيب تربه، فنعم الفريق ذياك الفريق.

وعلى أصحابه الذين نشروا الملة فبينوها بأسلات الألسنة وحموها بأسل الأسنة، حتى تبحبح الناس من الإسلام والسلام في روض أنيق.

---

[1] د.أحمد الخطيب ، جمعية العلماء المسلمين الجزائريين وأثرها الإصلاحي في الجزائر ، ص 122.

وعلى التابعين لهم من جميع الأمة، المقتفين آثارهم بحق وقوة، المجددين عهدهم بعلم وحكمة، المصطحبين في طريق سعادتهم –من الكتاب والسنة وهدي السلف الصالح- خير رفيق.

أما بعد : فحياكم الله أبناء العروبة والإسلام، وأنصار العلم والفضيلة. حوربت فيكم العربية حتى ظن أنه قد مات منكم عرقها، ومسخ فيكم نطقها، فجئتم بعد قرن تصدح بلابلكم بأشعارها فتثير الشعور والمشاعر، وتهدر خطباؤكم بشقاشقها فتدك الحصون والمعاقل، ويهز كتابكم أقلامها فتصيب الكلا والمفاصل.

وحورب فيكم الإسلام حتى ظن أن قد طمست أمامكم معالمه، وانتزعت منكم عقائده ومكارمه، فجئتم بعد قرن ترفعون علم التوحيد، وتنشرون من الإصلاح لواء التجديد، وتدعون إلى الإسلام كما جاء به محمد (صلى الله عليه وسلم) وكما يرضي الله لا كما حرفه الجاهلون وشوهه الدجالون ورضيه أعداؤه.

وحورب فيكم العلم حتى ظن أن قد رضيتم بالجهالة، وأخلدتم للنذالة ونسيتم كل علم إلا ما يرشح به لكم أو ما يمزج بما هو أضر من الجهل عليكم، فجئتم بعد قرن ترفعون للعلم بناء شامخا، وتشيدون له صرحا سامقا، فأسستم على قواعد الإسلام والعروبة والعلم والفضيلة جمعيتكم هذه، جمعية العلماء المسلمين الجزائريين.وحوربت فيكم الفضيلة فسمتم الخسف، وديثتم بالصغار حتى ظن أن قد زالت منكم المروءة والنجدة، وفارقتكم العزة والكرامة فرئمتم الضيم، ورضيتم الحيف وأعطيتم بالمقادة، فجئتم بعد قرن تنفضون غبار الذل، وتهزهزون أسس الظلم، وتهمهمون همهمة الكريم المحنق، وتزمجرون زمجرة العزيز المهان، وتطالبون مطالبة من يعرف أنه له حقا لا بد أن يعطاه، أو يأخذه.

فبحق قلت : حياكم الله أبناء العروبة والإسلام وأنصار العلم والفضيلة.

نعم –أيها الإخوان- نهضنا بعد أن صهرتنا بنار الفتنة والابتلاء حوادث الزمان، وقارعتنا وقارعناها الخطوب ودافعتنا ودافعناها الأيام **{ولولا دفاع الله الناس بعضهم ببعض لفسدت الأرض ولكن الله ذو فضل على العالمين}***.

نعم نهضنا بعد قرن، بعد ما متنا وأقبرنا، أحيينا وبعثنا، سنة كونية فقدناها من القرآن، ونعمة ربانية تلقيناها من الملك الديان**{ألم تر**

---

* **البقرة / 251.**

إلى الذين خرجوا من ديارهم وهم ألوف حذر الموت فقال لهم الله موتوا ثم أحياهم إن الله لذو فضل على الناس ولكن أكثر الناس لا يشكرون }[*]**{أو كالذي مر على قرية وهي خاوية على عروشها قال أنى يحيي هذه الله بعد موتها فأماته الله مئة عام ثم بعثه قال كم لبثت قال لبثت يوما أو بعض يوم...قال أعلم أن الله على كل شيء قدير}**[**]**{وإذ قال إبراهيم رب أرني كيف تحيي الموتى...وأعلم أن الله عزيز حكيم}**[***].

نعم نهضنا نهضة بنينا على الدين أركانها فكانت سلاحا على البشرية لا يخشاها –والله- النصراني لنصرانيته، ولا اليهودي ليهوديته، بل ولا المجوسي لمجوسيته، ولكن يجب –والله- أن يخشاها الظالم لظلمه، والدجال لدجله، والخائن لخيانته.

العروبة والإسلام، والعلم والفضيلة، هذه أركان نهضتنا وأركان جمعية العلماء المسلمين الجزائريين التي هي مبعث حياتنا، ورمز نهضتنا، فما زالت هذه الجمعية منذ كانت تفقهنا في الدين، وتعلمنا اللغة، وتنيرنا بالعلم، وتحلينا بالأخلاق الإسلامية العالية، وتحفظ جنسيتنا وقوميتنا السامية، وتربطنا بوطنيتنا الإسلامية الصادقة ولن تزال كذلك بإذن الله ثم بإخلاص العاملين.

كانت جمعية العلماء، فكانت نهضة الأمة، دوى صوت العلم فأيقظها من رقدتها، وكذلك عرفت الأمم في تاريخها، لا تنهض إلا على صوت علمائها، فهو الذي يحل الأفكار من عقلها، ويزيل من الأبصار غشاوتها، ويبعث الهمم من مراقدها، ويدفع بالأمم إلى التقدم في جميع نواحي الحياة، ولهذا ترى أعداء النهوض في كل عصر ومصر يبذلون لإخفاء هذا الصوت كل جهودهم، ويكيدون له كل كيدهم، **{يجعلون أصابعهم في آذانهم من الصواعق حذر الموت والله محيط بالكافرين}**[*].

وما كانت جمعية العلماء حتى كان العلماء القرآنيون الذين فقهوا الدين والدنيا بفقه القرآن وعرفوا السنن الأقوم بمعرفة سنة محمد عليه وآله الصلاة والسلام وهدوا واهتدوا بما كان عليه السلف الصالح ورجال الإسلام العظام.

---

[*] **البقرة / 243.**
[**] **البقرة / 259.**
[***] **البقرة / 260.**
[*] **البقرة / 19.**

هذه أيها الإخوان : نهضتنا، وأركانها وأسبابها واضحة للعيان محفوظة للتاريخ خالدة للأجيال..))[1] .

فهذه الخطبة المتعددة الموضوعات التي أتينا بها لم نقصد من وراء ذلك تتبع أفكارها بقدر ما نريد أن نسلط الضوء عن حالة الخطابة في تلك المرحلة التي تمر بها البلاد وهي مرحلة تمثل انعطافا خطيرا في حياة الأمة الجزائرية لو لم يقيض الله لها رجالا مخلصين أدركوا خطورتها وأهميتها من أمثال الشيخ عبد الحميد بن باديس الذي تحمل أعباءها الثقال وامتشق قلمه متسلحا بالكلمة الصادقة المبثوثة في خطبه التي كان يدرك دورها الفاعل في التغيير لما تحدثه من انقلاب في حياة الناس، فكانت الخطابة عنده في عمومها تتميز بالوضوح والسهولة والإشراق لا تكلف فيها، وإن ورد السجع فيها فهو لم يقصد إليه قصدا وإنما يمثل جرسا موسيقيا يستميل المستمعين، ذلك ما يلاحظه القارئ المتأمل في نصه الخطابي الآنف الذكر.

هذا عن الإمام عبد الحميد بن باديس الذي يعد بحق أحد أقطاب الخطابة البارزين في الجزائر، ويأتي بعده الشيخ البشير الإبراهيمي الذي يعد هو الآخر من مشاهير الخطباء في الأدب العربي عموما والأدب الجزائري خصوصا ((فقد ملك ناصية القول واستوعب البيان العربي وتبحر في اللغة العربية وآدابها وامتاز بالقدرة على توليد الكلام وامتاز بالموهبة الأدبية وعرف بالارتجال))[1].

فالإبراهيمي معروف بتضلعه في الأدب وتمكنه من اللغة مما يعطي طابعا خاصا لخطبه فهو حين يقول نجده يعبر بلغة بليغة عن مشاعره وعواطفه قصد ((إحداث اللذة الأدبية والإمتاع على جانب فكرة معينة يهدف إلى تصويرها)) [2].

وهذا قد أعطى للخطابة دفعا قويا في تلك المرحلة؛ إذ أصبحت فنا راقيا يتميز بالميل إلى الجزالة والفخامة في التعبير وأنواع البديع والبيان في الأسلوب.

فاللغة عند الإبراهيمي وسيلة وهدف –كما ذكرنا آنفا- من هنا كان ((مفخرة الجيل، وآية الدنيا، ومنه القدر على العربية وآدابها وفلسفتها وأحد العباقرة الذين يفرضون خلودهم على الأيام فهو العالم الديني الممتلئ الجوانب من روح الشريعة وفقه أسرار الدين، وهو

---

[1] عبد الحميد بن باديس ، آثاره ، جـ4 ، ص 202 -205.

[1] د.عبد الله الركيبي ، تطور النثر الجزائري الحديث ، ص 27.

[2] المرجع نفسه، ص 28.

الفيلسوف الاجتماعي الذي لا يشق له غبار، وهو المربي الخبير بمواطن الرشد ومزالق الغي))[1].ذلك ما يلحظه القارئ في أغلب خطبه حين يرشد أو يبلغ.

تأمل خطابه النفسي يتحدث فيه عن جمعية العلماء المسلمين التي مرت عليها ثلاث سنوات من عمرها يقول :

((أيها الإخوة الكرام :

ثلاث سنوات مرت على هذه الجمعية المباركة وكأنها يوم مر أو ليلة تقضت بالسهر، فإذا كانت المبادئ تدل على الخواتم فستمر عليها –إن شاء الله- السنون الكثيرة، وستستقبلها نامية مباركا فيها، فلا تستقبلها إلا كما يستقبل الصائم عيده مثوبة وأجرا، واطراح كلف، والملجج في البحر صعيده، فرحا وبشرى واستدبار تلف، ولا تستقبلها إلا عن سنة تحيا وبدعة تموت وحق يشاد وباطل يهدم، وحقيقة تثبت ووهم يتلاشى وفضيلة تنشر ورذيلة تقبر.

ثلاث سنوات مرت من عمر الجمعية وما هي بالشيء الكثير في أعمار المبادئ والمشاريع التي تستمد حياتها من العناصر الخالدة، وإن كانت شيئا كثيرا في أعمار الكائنات الحسية التي تستمد حياتها من العناصر الفانية.

ثلاث سنوات مرت فعددنا مبدأها باليوم والشهر والسنة إذ كان من حق التاريخ أن يقول عنها كلمة، ومن حق هذه الكلمة أن تكون منتظمة ومن حق النظام أن يكون على وضع زماني مخصوص.

ثلاث سنوات مرت على هذه الجمعية كما تمر لياليها السوداء على هذا البحر الأخضر فيعدها ولا تعده. وإذا كان أولها –وهو يوم- مبدأ لوجود الجمعية اصطلح عليه الناس يوم اصطلحوا على أن يقولوا : ولد فلان ومات فلان، فلا يكون بين وجوده وعدمه إلا مراحل تنتهي بيوم، فهل من معنى هذا أن لهذه الجمعية مراحل في الوجود تنتهي بيوم؟ كلا.

إن وجود هذه الجمعية هو وجود الحقائق الخالدة وإذا كانت تعمل لمعنى لا يحده الزمان فهيهات أن يحدها ليل ونهار.

إن هذه الجمعية كالسحاب ساقه الله إلى بلد ميت فلا يقلع حتى يحييه، وإذا كان إحياء المطر للأرض معنى فوق التحديد فذلك معنى هذه الجمعية، وإن سائق المطر للبلد الميت هو سائق هذه الجمعية لهذا الوطن المشرف على الموت.

---

[1] **محمد البشير الإبراهيمي ، آثاره ، جـ3 ، ص 233-234.**

وإن جاعل المطر سببا في إحياء الأرض هو جاعل هذه الجمعية سببا في إحياء هذا الوطن، فليكفكف المبطلون من غلوائهم وليقصر المرجفون عن إفكهم وليعلموا أنه لا راد لما الله سائقه وأنهم ليسوا، وإن اجتمعوا، بمعجزي الله.

إن الحد الأخير الذي يحدده التاريخ لهذه الجمعية هو اليوم الذي يصبح فيه المسلمون كلهم بهذا الوطن ولا مرجع لهم في التماس الهداية إلا كتاب الله وسنة رسوله، ولا سلطان على أرواحهم إلا الله الحي القيوم، ولا مصرف لجوارحهم وإرادتهم إلا الإيمان الصحيح تنشأ عنه الأعمال الصحيحة فتثمر آثارا صحيحة. هو اليوم الذي يصبح فيه المسلمون إخوانا متناصرين أو أعوانا متآزرين تجمعهم جامعة القرآن وإن فرقت بينهم المناسب والأوطان، هو اليوم الذي يصبحون وقد حطموا القيود والأغلال التي أثقلتهم فذهبت بدينهم ودنياهم من أهواء اتبعوها، وبدع في الدين ابتدعوها، وسفاسف ما أنزل الله بها من سلطان افتجروها واخترعوها.

يوم يصبحون كما كان سلفهم ذاتا واحدة تدبرها روح واحدة وتصرفها إرادة واحدة.

يوم يصبح المسلمون متساوين في العبودية لله لا يعبدون غيره ولا يدعون سواه، ولا يسلمون وجوههم إلا إليه ولا يتخذ بعضهم أربابا من دون الله. وقد عرفوا المقامات الثلاثة فأعطوا لكل مقام حقه غير منقوص عرفوا مقام الألوهية فأعطوه ما يستحق من توحيد وتمجيد، وعرفوا مقام النبوة فأعطوه ما يستحق من تعظيم واحترام وإقتداء وتأس، وعرفوا مقام أنفسهم فأعطوها ما تستحق من تزكية وتكميل بالاستقامة على صراط الدين، والتسابق إلى التفاضل بالتقوى والاهتداء بسنن الله في كونه وبسننه في دينه.

أيها الإخوة الكرام :

يقول فريق من الناس ممن لم يرزق صوابا في الرأي ولا سدادا في التفكير، إن الجمعية فرقت كلمة الأمة وجلبت عليها الاضطراب والفتنة والتشويش، في كلمات من هذا القبيل لا تصدر إلا ممن لم يعرف موقعه من الأمة ولا موقع الأمة منه، وليت شعري، متى كانت هذه الأمة مجتمعة حتى يقول قائل إن الجمعية فرقتها؟.

وأنى ها أن تجتمع، وأن أمامها في كل طريق ناعقا ينعق باسم طريق وداعيا يدعو إلى التفريق؟.

بل كيف تجتمع وللشيوخ فيها ما للذئاب الضارية في قطيع الغنم؟ أم كيف تجتمع والشيوخ قد قسموها إلى مناطق نفوذ، وأحاط كل شيخ رعيته بأسوار منيعة من الترغيب والترهيب؟.

كيف تجتمع وأتباع كل طريقة يعتقدون أنهم أهدى سبيلا من أتباع بقية الطرق، وأن طريقتهم تضمن لسالكها الغنى في الدنيا وحسن الخاتمة عند الموت، وإن قتل النفس التي حرم الله بغير حق؟.

أم كيف تجتمع وفيهم من يرى من واجبات طريقته ومن شروط المحافظة عليها أن لا يصلي خلف طرقي آخر يخالفه في الطريقة – وإن اشتركا في لقب الإسلام- لا لشيء سوى ذلك؟ ونحن نقول لهم إذا كانت الأمة قبل اليوم متفرقة وكلها على باطل، فهي اليوم –بحمد الله وبفضل هذه الجمعية- متفرقة وبعضها على حق. وإن أهون الشرين ما بعضه خير.

ويقول فريق آخر إن هذه الجمعية ضالة مضلة، وإنها عاملة على هدم الدين في ألفاظ محركة على نول من الباطل، وهؤلاء القائلون موتورون، والموتور معذور، فهم يتحاملون على الجمعية ويحملون لها بين جنوبهم مكائد وأضغانا ويرون أنه لا يتم وجودهم إلا بعدمها، وقد ناصبها هذا الفريق العداوة من يوم تأسيسها، ورأى فيها نذير الشؤم وطائر النحس، ولمح فيها زوال سلطانه المحدود على هذه الأمة الضعيفة، فهو يرمي هذه الأقاويل بين أظهر الغافلين للنيل من كرامة الجمعية والتنقيص من قيمتها، إذ أعجزهم أن يقابلوا حقها بباطلهم، وقد كانت هذه الطوائف كثيرة فقللها الله، ومعتزة بباطلها فأذلها الحق.

ولو أن هذه الطائفة أوتيت قليلا من الرشد والإنصاف لكانت للجمعية مكان الأخ من أخيه، ولحمدوا لها سعيها في خدمة الأمة، ولعادوا من نحلهم المفرقة إلى دعوتها الجامعة التي هي دعوة الله لخلقه على لسان أنبيائه **{وإن فريقا منهم ليكتمون الحق وهم يعلمون}**[*].

أيها الإخوة الكرام :

إن هذه الجمعية التي هببتم لنصرها هي من جهة فكرة، وهي من جهة أخرى مشروع، وقد قام أفراد من أعضائها بخدمتها من الوجهة الأولى وبلغوا بها إلى درجة تغبط، وما كنا لنطمع بالوصول إليها في هذه المدة الوجيزة، وإن من أظهر آثار هذه الخدمة ما نراه

---

[*] **البقرة / 146.**

من تيقظ غشي الطبقات كلها، وما نراه من إشراق بدأ يدب إلى مكامن السرائر من النفوس.
وأما خدمة الجمعية من الوجهة الثانية، هي أنها مشروع يسير بنظام، ويدار على أعمال تحتاج إلى مدد من رأي ومدد من مال : فالله أشهد أننا كلنا مقصرون في هذه الناحية تقصيرا لا يغتفر.
فقوموا بالواجب، أيها الإخوان من خدمة المشروع كما قام إخوانكم بواجبهم في خدمة الفكرة.وإني أعيذكم بالله أن تكونوا من المقصرين.
والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته))[1].
القارئ لهذه الخطبة المتعددة الموضوعات يلاحظ مدى مواءمتها للواقع وطبيعة المرحلة التي قيلت فيها؛ إذ أصبحت الخطابة فن راقي مستقل بذاته يؤدي دوره الرسالي على أكمل وجه، وهذه غاية الخطابة آنذاك. فنجدها قد تحررت من كل القيود واستجابت لنداء الفطرة السليمة في تغيير الواقع، وهذا كله في أسلوب سهل لا تكلف فيه، وأفكار ومعاني معبرة بصدق عن موقف الخطيب ومقاصده.
أما الشيخ العربي التبسي فهو واحد من رجال تلك المرحلة من مراحل تاريخ الجزائر الحديث الذي بقيت بصماته واضحة في ذاكرة التاريخ بمشاركته الفاعلة في عملية الإصلاح والبناء للمجتمع الجزائري، متسلحا في ذلك كغيره من إخوانه المصلحين بالكلمة الصادقة لمواجهة المحتل وتعريته وكشف نواياه وتنبيه الغافلين من أمته للعودة إلى إسلامهم وشحذ عزائمهم للنهوض بما هو خير للأمة والوطن.
فجاءت الخطابة عنده صرخة مدوية تشع بنور الحياة والإيمان تخدم الأهداف المرجوة التي قيلت من أجلها أكثر خطبه كهذه التي بين أيدينا؛ إذ يجمل على القارئ أن يتأملها ويستشف ما فيها من أفكار هادفة، يقول بعد أن حمد الله وأثنى عليه :
((إنكم معشر الإخوان تقومون بعمل عظيم في سبيل الدين الحنيف، والعربية، والوجود المحترم، وإننا لنشكركم على عاطفتكم الشريفة، لأنكم أظهرتم أثناء اجتماعكم هذا توحدا في العمل عز نظيره .وتكتلا حول الغايات الشريفة التي كرستم حياتكم لها.
إنكم أيها الإخوان تقومون بواجب أداء الأمانة حق الأداء، وإنكم لتربطون الأولاد بالجدود، وتتعرضون عن طيب خاطر لمحن الدنيا

---

[1] المصدر السابق ، جـ 1 ، ص 137-140.

ومصائب العيش، وتكافحون لرد طائلة العدوان، وتفتحون بأيديكم أبواب السعادة في وجه الأمة .

يجب علينا أن نتعلم محاسبة أنفسنا قبل أن نحاسب الناس، وقبل أن يحاسبنا الناس، يجب علينا أن نكون أشداء على أنفسنا حتى نستطيع أن نحتفظ بهذا الميراث العظيم.وأن نبلغه سليما لأبنائنا من بعدنا، وأن لا نأخذ من الديمقراطية ما انطوت عليه من فتور وفجور.

يجب علينا – ونحن حاملو راية الدين والقرآن – أن نكون أقوى روحا، وأعظم همة، وأكثر تضحية من أولئك المبشرين والمبشرات الذين هجروا البلاد والأوطان، والصحب والخلان، وتركوا (باريس) و (لندره) و (لاهاي) وغيرها يجوبون أقطار الأرض للقيام بدعوتهم، تاركين الدنيا وراء ظهورهم ...

فلتكن الأخوة رائدنا، وليكن الإخلاص رباطنا، ولتكن النزاهة شعارنا، وليكن نكران الذات القاسم المشترك الأعظم بيننا .

إنه لا يمكن إرضاء الإسلام والوطن وإرضاء الزوج والأبناء في وقت واحد.إنه لا يمكن لإنسان أن يؤدي واجبه التام إلا بالتضحية، فلننسى من ماضي الآباء والأجداد كل ما يدعو إلى الفتور وإلى الموت، ولنأخذ من ماضيهم كل ما هو مدعاة قوة واتحاد .

إن الذين جاءوا ديارنا هذه لم يكونوا أكثر منا مالا وولدا، إنما كانوا أكثر منا علما ونظاما، فلنكن نحن دعاة وبناة العلم والنظام، وفينا والله نواة هاتين القوتين.ولنكن مع ذلك مثال الاستقامة الدينية.

فديننا السمح دين أعمال لا دين أقوال، ولنحارب الزيغ في الدين، والضلالة في الإسلام، فالدين الإسلامي لا يتحمل لا زيغا ولا ضلالة، إنكم ما جئتم هنا، وما تجشمتم عناء السفر إلا من أجل تحقيق هذه الغايات، والقيام بهذه الواجبات.وإن الواجبات والتكاليف لتزداد يوما بعد يوم، وما من يوم طلعت علينا شمسه إلا جاءنا بواجبات جديدة ...

لنلبس أيها الإخوان جلباب المحن.ولنعمل قلبا وقالبا على أننا جنود الله، ننصر دينه، ونبشر بتعاليمه، ونصلح حال أمته.فالأمانة التي وضعها الله سبحانه وتعالى على أعناقنا عظيمة شاقة، إن البدع الضالة كادت تستولي على العامة، والأمة كادت تنحل. فلا لغة جامعة، ولا قضاء جامع، حتى كاد أضدادنا أن يقولوا : إن هناك جماعة من البشر تسكن قطر الجزائر، لا أمة تسكن الأرض الجزائرية .

وبين ظهرانينا، دعايات لا دينية، الحادية، ودعايات تبشيرية، فلنكن نحن قائمين بواجباتنا الكاملة في الدعاية لديننا بأقوالنا وأعمالنا، وبمساعينا المستمرة التي يجب أن لا تنقطع ليلا أو نهارا.

إنكم تستقبلون العام الجديد، وفيه الأعمال الجديدة، والمدرسة الجديدة، والتكاليف الجديدة، ومعنى ذلك، الاضطلاع بالمسؤولية الجديدة.

أما وقد قررنا إنشاء الشهادة الابتدائية للتعليم الديني العربي فلنعمل العمل المخلص العظيم لكي نجعل لهذه الشهادة قيمتها واعتبارها، فيعترف بها حاملها، وتفخر بها الأمة. أغلبكم شيوخ يمتحنون التلاميذ.فإذا أردتم أن تقوموا بواجباتكم في هذه الحياة الدنيا، وأن تعملوا العمل الصالح للدين والوطن معا.فاعتبروا أنفسكم تلاميذ أمام لجنة امتحان .

فنحن كلنا أمام لجنة امتحان عالمية كبرى تحكم علينا في نهاية الأمر.هل فينا قابلية للحياة أم لا؟ وهل نهضتنا ثابتة متينة الأركان؟ أم هي سطحية واهية؟ فهل نحن على استعداد لهذا الامتحان الكبير؟؟؟.

السياسيون يقولون : لنا سياسة، والعلماء يقولون : لنا علم، والمتمولون يقولون : لنا مال، وكل يدعي أنه قائم بواجبه .

فيجب علينا أن لا نتأمل في الأقوال، بل يجب علينا أن ننتظر النتائج. وهل نحن على مقربة من بلوغ أهداف الأمة في تصحيح دينها، وتعميم لغتها.وتهذيب ناشئتها، وبلوغها مبلغ الأمم الحية النافعة ؟.

إننا لا نزال نعيش في عصر يسمى فيه المجنون وليا من أولياء الله، والخائن عظيما من العظماء، والراقد عاملا من كبار العاملين.هذا جهل وغباوة، فلنتعلم الصراحة، ولنتعلم تسمية كل شيء باسمه. ولنتعلم الإقدام والتضحية في سبيل غاياتنا الشريفة العالية .وهكذا يمكن أن نفوز في هذا الامتحان العالمي العظيم .

إن الحياة تتطلب الجهود العظيمة المتواصلة ، وتتطلب أن تزداد هذه الجهود باستمرار .

لقد كنا حاضرين في القاهرة ، وفي تونس، وفي باريس، إنما يجب علينا أن نكون حاضرين في كل مكان، وأن نوجد في كل جهة، فمن انقطع عن العالم. ومن تجاهل الناس جهل الناس وجوده .

يجب علينا أن يكون لنا في المغرب الأقصى ما لنا في تونس من طلبة ومن بعثة، ويجب أن يكون لنا في غير المغرب أيضا مثل ذلك حتى نكون في كل مكان، وحتى نقتبس من كل نور .

يجب أن يوجد في القطر الجزائري ما هو موجود في كل أقطار الدنيا : حرية، وعلم، وثقافة، ودين، وتسامي نحو العلا .

يجب أن لا تبقى الجزائر ملتقى الذل، والعبودية، والقهر .

أعوذ بالله ، وأعيذكم به أن نكون قوالين غير فعالين.أما ونحن أعلم بغيرنا من كل هذا فلنكن نحن أطباء الأمة و لنقدم لها دواءها الإسلامي العربي النافع .

إن العالم العربي أجمع قد عرف هذه الآونة الأخيرة حقيقة المسلم الجزائري بتلك المواقف العظيمة الباهرة لرئيسنا الشيخ البشير الإبراهيمي وبخطبه، ودروسه، ومحاضراته، وأعماله الجليلة الغالية .

فليعلم العالم في الشرق والغرب،أن الإبراهيمي ليس فلتة من فلتات الطبيعة عندنا.وليستعد كل واحد منا لأن يقف مواقف البشير،وأن يكون لنا علمه، ونبوغه، وفصاحته. فالعار كل العار أن لا يكون لنا إلا بشير واحد، وليعلم هو وليعلم الناس أنه له من يقف حواليه لشد أزره، وله من يقف وراءه وله من يستعد لحمل الراية في ميادين الإسلام، والعربية والإصلاح .

يجب علينا أن نستعد، وأن نكون رجالا يتشرفون بحمل لقب الرجولة الكاملة. وأن نندفع لفتح المستقبل فتحا مبينا، ليسمو الإسلام سموا عظيما.ولتنتشر العربية انتشارا ذريعا .

ولتنسف -إلى غير رجعة- تلك الخرافات، والبدع، والأباطيل التي هي ضد أخلاقنا، وضد أمتنا، وضد ديننا الحنيف .

فإذا كنتم حقا -معشر العلماء- ورثة الأنبياء، فكونوا عند ظن الإسلام بكم.وسيروا موفقين لصالح أعمالكم **{واصبروا وصابروا ورابطوا واتقوا الله لعلكم تفلحون}***.

والسلام عليكم و رحمة الله و بركاته))[1].

المتأمل في خطبة العربي التبسي يلاحظ مدى فقهه للواقع و تمكنه من طرق النصح و الإرشاد.فهو يريد تغيير واقع الشعب

*** آل عمران / 200.**

[1] العربي التبسي ، مقالات في الدعوة إلى النهضة الإسلامية في الجزائر ، جمع وتحقيق د.شرفي أحمد الرفاعي ، دار البعث ، قسنطينة ، الجزائر ، ط1 ، سنة 1981م ، ص 201-206.

الجزائري الذي يرزح تحت نير الاستعمار البغيض الذي أحدث انقلابا عاما في حياته ؛ لذا تسلح بالكلمة الصادقة لإدراكه لقيمتها وأهميتها في استنهاض الهمم وشحذ العزائم وبخاصة في هذه المرحلة بالذات.فجاءت خطبه مفعمة بالحيوية والنشاط و التفاؤل بالمستقبل الحر، وهذا في أسلوب واضح سهل لا تكلف فيه، وأفكار عميقة تحرك في المتلقى إرادته وتبعث في نفسه طموحا في التغيير.

وهذا دور فن الخطابة أساسا في واقع الناس وفي أي مجتمع من مجتمعات الدنيا إذا وجد رجالا يحسنون استغلاله ويصدقون مجتمعاتهم في أقوالهم وأفعالهم من مثل الأستاذ الفاضل الشيخ العربي التبسي.

أما عن توفيق المدني فإن خطبه تصدر عن روح عربية أصيلة تؤمن بالتاريخ العربي والحضارة الإسلامية مع مسحة غالبة من السياسة التي جعلت الخطابة عنده تميل إلى البساطة و الوضوح وهذا يناسب طبيعة المرحلة آنذاك وتخدم الغاية المنشودة.

تأمل خطابه بالمسجد الحنفي يقول : ((أولا : من نعمة الله على المسلمين اجتماعهم في المساجد، و في شتى المناسبات للتشاور في أمور دينهم والاتفاق على ما يحييهم وما يخرجهم من الظلمات إلى النور .

ثانيا : إن هذا الاجتماع وهو الأول من نوعه يقع في ساعة سلط فيها الاستعمار سوط نقمته وعذابه على الشعب الباسل البطل ، فالحقوق الإنسانية اضمحلت والأرض انتزعت من أصحابها ، وأبواب الكسب الشريف أوصدت في وجه عموم الجزائريين ، وأصبح اسمهم عند المستعمرين (البيكو) و(الترون دي فيقي) أي سيقان أشجار التين، وأصبحنا نرى جهات من الوطن مكتوب علينا دون حياء أو خجل: ممنوع دخول العرب و الكلاب لقد أصبحوا في بلادنا ، بلاد بني رستم و بني حماد وبني زيان، وعبد القادر والمقراني، أصبحوا كل شيء، وأصبح الجزائريون لا شيء، لقد وصلتم إلى أقذر دركات الذل والمهانة مع هذا الاستعمار الفظيع .

ثالثا : يقولون لكم قولا كذبا و بهتانا، من أجل الخروج من هذه الحالة يجب أن تتفرنسوا وأن تدخلوا العائلة الفرنسية الكبرى. وهذا كذب ونفاق، ودجل وتضليل.

فالفرنسيون لا يقبلونكم إطلاقا ولا يرضون أن تزاحموهم في ميادين الحكم والثروة.ثم إن من تفرنس وأضاع دينه و شرفه، وتنكر

لمجد آبائه وأجداده، خسر دينه ودنياه ، وألف طبقة جديدة من الناس ينكره قومه الذين ادعى الانتماء إليهم .

رابعا : أنتم أمة عظيمة، وكنتم دولة محترمة، ولستم وحدكم الذين وقع عليهم الاحتلال، فالتفوا حول أنفسكم واعتمدوا على سواعدكم واعتصموا بالإسلام دينا جامعا طاهرا نقيا وبالوطن الجزائري وطنا للأحفاد كما كان وطنا للجدود وباللغة العربية، لغة القرآن الطاهر لسانا قوميا يجمع بين أبناء الوطن.إن من اعتمد على غيره دون نفسه كان كمن أراد مقاومة الدهر دون سلاح.

خامسا : عدوكم لم يتمكن منكم إلا بتفرقكم وخلافاتكم، فكونوا وحدة قوية تدحر الأعداء، إن الإسلام الطاهر الشريف الذي يقول : **{أقيموا الدين ولا تتفرقوا فيه}***.لا يرضى لكم أن تتفرقوا طرائق قددا،حول طرق صوفية مضلة ظاهرها الرحمة، وباطنها من قبلها العذاب.فرقت الشعب، وشتتت الشمل، ومزقت عرى الدين حتى أصبح كل منتسب لطريقة ما، وما أكثر الطرق، يلعن ويسب ويشتم، بل يخرج من الدين ، كل المنتسبين إلى الطرق الأخرى ، وبذلك تحكم الاستعمار وساد .

سادسا: أباح الاستعمار لكم المواخير، وحبب إليكم الحانات وعلمكم احتساء الخمور، وحرم عليكم تعلم لغتكم والتفقه في دينكم، والرجوع لتاريخكم فصيركم مسخا في الشعوب، وأنزلكم منزلة العبيد الأذلة وأصبح الذين يدعون زعامتكم يسوقونكم نحو فرنسة إجرامية وتجنس فاجر، فاسمعوا كلمة أقولها بكل صراحة وبكل إيمان؛ المواخير والحانات أحبولة الاستعمار.والزعماء الذين ينادونكم إلى التجنس والفرنسية (أعوان العدو) فانتبهوا واحذروا فأنتم مساقون إلى الهاوية، مساقون إلى الموت الذريع.لا مخرج لكم إلا الدين الإسلامي فتمسكوا به، أريد به دين الله الخالص لا دين الطرق والصوفية، ولا خلاص لكم إلا بتعلم اللغة العربية واستعمال اللغة العربية وترك هذه الرطانة المضحكة المؤلمة التي تجمع بين سقيم العامية ومكسور الفرنسية .

أيها القوم : الدين، الوطنية، اللغة العربية، الاتحاد الإسلامي بين كل الطبقات، هذا هو طريق خلاصكم، هذا هو الذي يحطم شبكة

---

* **الشورى / 13.**

الاستعمار التي تحيط بكم من كل جانب و السلام على من اتبع الهدى))[1].

جاءت الخطبة مفعمة بروح التحدي للواقع الذي يتخبط فيه الشعب الجزائري بين قمع أعدائه و ظلم أعوانه، لذا لابد من ناصح صادق ومرشد محنك، فكان لهذه المهمة الصعبة (توفيق المدني) الذي استطاع من خلال كلماته الهادفة و موقفه الجاد أن يؤثر في متلقيه، معتمدا على الخطابة لإيصال الفكرة وترويجها بين الناس في أسلوب بسيط مباشر لا يقصد من ورائه إبراز إمكاناته اللغوية بقدر ما كان يصبو إلى تحقيق الغاية المرجوة وهذا مقصد رئيس من مقاصد فن الخطابة و بخاصة في مثل تلك المرحلة .

وهذا الأستاذ (محمد خير الدين) يحدثنا عن المبادئ التي من أجلها أسست جمعية العلماء المسلمين الجزائريين يقول : ((أيها الإخوة الكرام :

إن المبادئ التي أسست جمعية العلماء المسلمين الجزائريين لخدمتها والغايات التي سعت وتسعى لتحقيقها كثيرة- و إن كانت لا تخرج عن دائرة الدين والعلم .

وللدين والعلم نواح كثيرة، وآفاق واسعة، والجهود التي تتطلبها جمعيتنا المحترمة لتحقيق تلك الغايات ثقيلة شاقة .

فعلى من تعتمد في تحقيق تلك الغايات؟ وما هي العدة التي أعدتها لتشييد هذا البنيان وتقوية هذه الأركان؟.

إن الجمعية ليست جمعية فرد أو أفراد؛ وإنما هي جمعية الأمة يعمل لترقيتها ونشر مبادئها علماء الأمة. وإذا قامت طائفة بإدارتها فليس معنى ذلك الحصر وتضييق دائرة العمل؛ وإنما ذلك شيء يقتضيه النظام وتوجبه الرسميات، أما المعنى الواسع للجمعية فهو يتناول كل عضو عامل عارف بحقائق الدين مستقل الفكر غيور على الإسلام أن تعيث به أهواء المبتدعة، وتشككات الملاحدة، وخزعبلات المضللين؛ وعلى فضائله أن نهجر، وعلى تاريخه أن يطوى ويقبر، فكل ساع لهذه الغايات فهو العضو الحي في جمعية العلماء، لأن بالأعمال الصالحات، لا بالكلمات المنمقات .

أيها الإخوة الكرام :

---

[1] أحمد توفيق المدني ، حياة كفاح (مذكرات) ، القسم الثاني في الجزائر (1925م-1954م) ، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع ، الجزائر ، ص 75-77.

إن انتسابنا لهذه الجمعية معناه التعاهد والتعاون على تنفيذ المرامي التي ترمي إليها،والمبادئ التي تسعى لها،وأصول هذه المبادئ هي : إحياء الإسلام الصحيح بإحياء الكتاب والسنة ونشرهما بين الناس حتى يرجع لهما سلطانهما على نفوس المسلمين،ونشر فضائلهما وآدابهما، وإحياء اللغة العربية وآدابها،وإحياء التاريخ الإسلامي ورجاله الغر الميامين.وإحياء هذه الأصول يتوقف على عزائمكم الصادقة معشر الشباب العلمي العامل، وعلى ما تبذلونه من جهود في هذه السبيل، فأنتم أنتم رجال المستقبل فأدوا أمانة الدين التي حملتموها إلى أهلها، وما أهلها إلا من يأتي بعدكم من الأجيال .

أيها الإخوة الكرام :

إن الإصلاح الحقيقي الثابت الأركان المتين الدعائم هو ما تبنيه شبيبتنا المتعلمة على أساس العلم ، ولا نفرح ببلوغ هذه الغاية حتى نومن بصدق توجه الشبان إليها توجها جديا و صحيحا .

فهل صح عندنا هذا التوجه الجدي في يومنا هذا؟.

من المؤسف بل من المحزن أن نرى شباننا العاملين الذين هم عماد هذه الحركة في المستقبل لم يزالوا يقنعون من العلوم بنظرياتها السطحية، ولم ينفذوا ببصائرهم إلى الحقائق ، ولم يزالوا جاهلين بقيمة الوقت، غير متخلقين بخلقي الصبر والجد؛ ولم يزالوا مضطربين في سلوكهم اضطراب المتحير المتردد، ولم يزالوا مرضى بالتقصير والكسل والفتور.فترى الواحد منهم يتحمس ولكن مادامت دواعي التحمس موجودة فإذا زالت تلك الدواعي خمدت الحماسة وبردت العزائم .

وهذا عيب فاضح لا تتحقق لنا معه غاية، ولا نصل معه إلى مقصد ما دام سائدا في ربوعنا ومتسلطا على عقول أبنائنا .

فإن أردنا السلامة والشفاء من هذا الداء الوبيل فلنسر إلى غايتنا بخطى ثابتة، لا يستفزنا الحماس ولا تصدنا العراقيل والمعارضات، فإن التجارب دلتنا على أن كل مبدأ تلده الحماسة والهيجان لابد أن يقضى عليه لأول صدمة؛ وأن الثوب الفضفاض لابد أن يتعثر فيه صاحبه .

أيها الإخوة الكرام :

من دلائل الفتور المستولي على شبابنا هذه الحقائق التي نعترف بها ونحن آسفون خجلون، فأدباؤنا اليوم لا يخطر ببال أحدهم أن يبحث وينقب عن كنوز الأدب الجزائري، وتالله لو بعث هذا الأدب من

مرقده و جمعت هذه الثروة المتفرقة الموزعة لاجتمع للجزائر أدب تباهي به الأمم وتطاول به العصور وتحي فينا به تلك الذكريات، وتحرك فينا تلك النعرات، ولكن أدباؤنا -عفا الله عنهم- رضوا بأن يكونوا عالة على كتاب الشرق وأدبائه : لا يقرءون إلا ما يكتب بأقلام غير جزائرية كأنهم خلقوا للتقليد والمحاكاة وما خلقوا للابتكار ، فلا هم لأدبائنا ومعتنقي الأدب منا في مجالسهم إلا المفاضلة بين شوقي وحافظ، وبين الرافعي والزيات، وبين مجلة الرسالة والهلال، وقد يسرف بعضهم في ذلك حتى ينتهي الأمر إلى خصام ثم إلى عراك.

وهذه حالة لا تجمل بمن يريد أن يجدد أدبا قد اندرس، أو يحي امة بعد موتها. ومن الخير لو أكب أدباؤنا على المطالعة والقراءة حتى تكمل ملكاتهم الأدبية ثم يكتبوا لنا في النواحي الأدبية التي تتصل بحياتنا وهي كثيرة متسعة الأطراف .

أليس من العار أن تكون عندنا مجلة واحدة مستعدة للنشر مؤسسة لنشر التراث العلمي والأدب القومي، ثم تحتاج في بعض الأحيان إلى ما تنشر، وكل تحريرها قائم على جهود منشئها –على كثرة شواغله العلمية– ونحن في أمة تعد بالملايين، ولنا من الأدباء والشعراء عدد غير قليل ولكنهم في مواطن العمل قليلون؟ وهل قرأتم في مجلتكم الجزائرية الوحيدة يوما اعتذارا عن النشر لكثرة المواد؟ والله إنه لعار وأي عار في حين أن الواجب على أدبائنا أن يملئوا مجلتكم ثم يكتبوا في غيرها من المجلات الشرقية ليرفعوا لبلادهم بذلك ذكرا ويكسبوا لها فخرا .

أيها الإخوة الكرام :

إن من فتور العزائم الذي أصابنا في مبدأ نهضتنا هذا الفتور الذي عقد ألسنة شعرائنا فهم لا يقولون الشعر إلا في المناسبات كالاجتماعات والاحتفالات، أما الطوارئ التي تتجدد كل يوم والأمراض الاجتماعية والأخلاق المرذولة فهم لا يهتمون لها لذاتها اللهم إذا ذكرت عرضا في اجتماع فخيم ، أو مأدبة تكريم كذلك ننعى على مؤرخنا-ولا أقول مؤرخينا إذ ليس لنا إلا مؤرخ واحد- أن يضن علينا بمقالات تذكرنا بالماضي وتنير أمامنا المستقبل في تاريخ عواصمنا الخالدة وتراجم رجالنا السالفين .

كذلك ننعى على علمائنا تقصيرهم في الإرشاد العام و تقصيرهم في التعليم بعدما تنبهت الأمة و دبت فيها هذه اليقظة التي تتفاءل بها خيرا .

أيها الإخوة الكرام :

إن بيننا مثلا عاليا يجب أن نتخذه مقياسا لأعمالنا العلمية والعملية وهو الأستاذ الشيخ عبد الحميد ابن باديس الذي نكبر فيه هذا الجد المتواصل والعزم الذي لا يعرف الكلل، والنفع الذي عم الآفاق، ولقد شاهدنا آثاره الطيبة في هذه الجولة الإرشادية الأخيرة، فلم نحل بلدا من بلدان هذا الوطن أو قراه أو مداشره أو جباله أو رماله إلا وجدنا تلاميذه ما بين خطيب ومدرس أو واعظ مرشد أو داعية إلى الله على بصيرة ، فجزاه الله على الإسلام خيرا ورزقنا الإقتداء به آمين.والحمد لله رزق العالمين))[1].

فالأستاذ خير الدين استطاع أن يوظف الخطابة في هذه المرحلة لخدمة أهداف تقوم عليها الأمة ة تثبت وجودها أمام الأمم الأخرى . مما يؤكد لنا دور الخطابة في تغيير واقع الناس؛ إذ تعد أداة مهمة في بث الأفكار الإصلاحية التي تساهم في بناء الإنسان ، فهي أيضا وسيلة تعتمد لتحقيق أهداف بأسلوب هادف لا تكلف فيه يتماشى والمرحلة التي تعيشها البلاد .

ومن العلماء الذين اهتموا أيضا بالخطابة في هذه المرحلة من تاريخ الجزائر الحديث نجد الشيخ إبراهيم أبو اليقظان الذي اتخذها وسيلة لنقد الذات والحث على مراجعة النفس في علاقتها بخالقها حتى تظفر بالسعادة الحقيقية يقول : ((أما بعد : فيا أيها السادة ، لقد سمعتم من إخواني الأساتذة العلماء من الإرشادات الغالية ، والنصائح الثمينة ، ما ينير أمامكم جوانب الجادة ، ويعرفكم من أنتم وما هي العلاقات بينكم وبين الله ، وبينكم وبين أنفسكم ، وبينكم وبين العباد ، ولم يبق أمامكم سوى شيء واحد هو همزة الوصل بين هاتيك النصائح والدرر وبين الغاية العليا المنشودة؛ ألا وهو تطبيق ذلك بالعمل الصالح، ومحاسبة النفس في كلياته وجزئياته ليل نهار .

وبما أن درء المفاسد قبل جلب المصالح، وتشخيص الداء مقدم على استحضار الدواء، فإني أعرض بين يديكم في كلمتي المتواضعة هذه ناحية من نواحي أمراضنا المزمنة مشيرا إلى مكامنها منا راجيا من أطبائنا الحذاق تحليلها ومعالجتها بمرهم الحكمة.فإن أصبت فبفضل الله وإن أخطأت فحسبي شفيعا لديكم إخلاصي في النصح إن أريد إلا الإصلاح ما استطعت وما توفيقي إلا بالله عليه توكلت وإليه أنيب.

---

[1] سجل مؤتمر جمعية العلماء المسلمين الجزائريين ، ص 159-162 .

هل يمكن أن ننال عزا وسعادة ونحن لا نسلك إليهما سبيلهما؟
لو يسأل كل واحد منا هذا السؤال البسيط : هل تريد عزا وسعادة، أو ذلا وشقاء؟ لأجاب في الحال : أريد عزا وسعادة حقيقيين في الحياة وبعد الممات .

وإذا سئل هل ينال المرء ما ينشده من عز وسعادة من غير أن يسلك إليهما سبيلهما؟.

أجاب في الحال أنه لا ينال شيئا منهما أبدا من غير السلوك إليهما من سبيلهما. وإذا سئل : إذا كنت تريد حقا عزا وسعادة في الحياة وبعد الممات، وكنت تعترف أنه لا ينال المرء شيئا منهما من غير أن يسلك إليهما سبيلهما فهل أنت سالك إليهما سبيلهما الموصل؟ وجم هاهنا وتلعثم لسانه وحار في الجواب.

أليس كذلك أيها السادة؟.

إن سبيل العز والسعادة الحقيقيين في الرجوع إلى كتاب الله وسنة رسول الله وآثار السلف الصالح.في العمل بأوامر الدين واجتناب نواهيه والوقوف عند حدوده.

وهل نحن لذلك فاعلون؟ كلا. إلا من رحم ربك.

نحن نريد رضوان الله، ولكن في الإخلاص لعدوه الشيطان.

نريد نعم الله الضافية، ولكن في استنزال نقمه بالمعاصي والموبقات.

نريد عزة الحق، ولكن في اتباع الباطل.

نريد جادة الصواب، ولكن في تعاريج الأخطاء.

نريد فضاء اليقين، ولكن في زعزعة الإيمان وضعف النفس.

نريد جنة الخلود، ولكن في السلوك في طرق الهلاك والفناء.

نريد السلامة والهناء، ولكن في أدغال الفتن والبلاء.

نريد الفوز في معترك الحياة، ولكن في الجزع وقلة الصبر وعدم التبصر.

نريد سمو المكانة والاحترام، ولكن في عدم احترام أنفسنا ووزنها بميزانها.

نريد القوة والعزة القومية، ولكن في تخاذلنا ودس بعضنا لبعض.

نريد أنس الأخوة وصفاءها، ولكن في حقد وبغض، وحسد وظغينة.

نريد المناصرة والمؤازرة والتأييد، ولكن في إذاية بعضنا لبعض وامتهان هذا لهذا، وتجاهل ذاك بوجود الآخر.
نريد شرف العلم ومكانته العالية، ولكن في الزهد في العلم وانتقاص أهله، والإخلاد في مغارات الجهل وتوقير ذويه.
نريد نعمة الغنى ووفرة المال، ولكن في الإسراف والتبذير وسوء التصرف.
نريد اغتنام الأرباح الطائلة، ولكن في الكسل والبطالة والتواكل وسوء التدبير.
نريد صيانة العرض وحفظ الكرامة، ولكن في تمزيق الأعراض ودوس الكرامات.
نريد مواساة الفقراء والأخذ بأيدي الضعفاء وجبر قلوب اليائسين حتى نمتلك قلوبهم، ولكن في الشح والغلظة والجفاء وقسوة القلوب.
نشكو إلى الله ما نزل بنا من الخزي والعذاب بسبب انحرافنا عن صراطه المستقيم، ولكن ما زلنا نزداد انحرافا وابتعادا عن دينه القويم، وهو لا يزال يسلب منا نعمه، وينزل علينا نقمه، ما دمنا كذلك **{إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم}***.
نشكو ما بلغنا إليه من حضيض الذلة والمهانة، ونحن ما زلنا نتنافس في أسبابها ونتسابق في دركاتها.
نشكو ابتزاز أموالنا، وسلب أملاكنا، واغتصاب أراضينا، ونحن بأيدينا نهبت، وبمساعينا سلبت، وبسفهنا غصبت.
نشكو كساد تجارتنا، وبوار فلاحتنا، وموت صناعتنا، ونحن - لا غيرنا- كنا السبب في ذلك الكساد والبوار والموت، ولا ذنب للغير إذا أهلكت أخاك وأحييته، وأخنقت أخاك وأنعشته، وثبطت أخاك وشجعته وفرغت جيبك وملأت جيبه، وخربت خزانتك وعمرت خزانته، فالذنب ذنبك.
نشكو الفقر وضعف الحال، ولكن مصاريفنا في الكماليات أو الموبقات في القهوة والتاي والدخان والنفة والسينما والمسارح والمراقص ودور القمار والحانات والمواخير تفوق مصاريفنا في الضروريات والحاجيات.

---

* **الرعد / 11.**

نشكو وهننا وضعفنا، وتشتت وحدتنا وذهاب ريحنا، ولكن ما زلنا في النزاع والخصام على النقير والقطمير والتوافه والسفاسف من الأمور.

نشكو عقوق الأولاد وتمرد الشباب، وجمود الكهول وخراف الشيوخ، ونحن ما زلنا نتسكع في دياجير الجهل وظلام الأمية.

نشكو رق البلاد وإرهاق العباد، ونحن ما زلنا لم نقدر أن نحرر أنفسنا من رق الشيطان، وأسر الشهوات والهوى.

نشكو امتهان القوي للضعيف، واحتقار الغني للفقير، ونحن كلما نال أحد منا سببا من أسباب القوة أو حظا من حظوظ الغنى تنمر للضعيف زميله بالأمس، واستنسر أمام الفقير صاحبه من قبل.

وهل بهذا وأمثاله ننال ما نصبو إليه –أيها السادة- من الأماني والرغائب ونظفر بمعنى من معاني السعادة الحقيقية؟ كلا وألف كلا.

ترجو النجاة ولم تسلك مسالكها ** إن السفينة لا تجري على يبس.

إن منطقا كهذا فاسد المقدمات عقيم النتائج، فهو يقتضي أن يكون النزول إلى أسفل، معناه صعود إلى أعلى، والسير إلى الغرب، معناه سير إلى الشرق والبحث عن أسباب الموت، معناه بحث عن أسباب الحياة، والسعي في أهداف التعاسة والشقاء، سعي في وسائل العز والسعادة.

وهذا مخالف لسنن الله في خلقه، ولمنطوق أهل العقول وأولي البصائر.

بصرنا الله وإياكم يعيوبنا، ووفقنا إلى ما فيه إصلاح نفوسنا، وهدانا إلى سبيل العز والسعادة الحقة))[1].

فهؤلاء الخطباء الذين ذكرنا نماذج كاملة من خطبهم لم نقصد من وراء ذلك تتبع ما احتوته من أفكار، بل كنا نريد الوقوف عن حقيقة الخطابة في تلك المرحلة من مراحل تاريخ الجزائر الحديث، ومدى مواكبتها للواقع المعيش الذي تحياه الأمة آنذاك.

فالقارئ بإمعان للنصوص الخطابية الآنفة الذكر يلاحظ مدى جدية وصدق قائليها الذين أدركوا أهميتها في التغيير بما تحدثه من انقلاب شامل في مختلف نواحي الحياة، لذا اعتمدوها كوسيلة فاعلة في استنهاض الهمم وشحذ العزائم وبث الأفكار الإصلاحية للعودة إلى الذات والتحرر من ربقة العبودية والاستغلال . من هنا احتضنتها

---

[1] سجل مؤتمر جمعية العلماء المسلمين الجزائريين ، ص 163-167.

الأمة ووجدت فيها ملاذا آمنا للتعبير عما يختلج في النفوس حتى تحول الواقع الجزائري في تلك المرحلة إلى مدرسة خطابية تخدم قضايا الأمة في أسلوب فصيح واضح يفهمه الجميع، وأفكار تعبر عن أصالة الأمة وربط ماضيها بحاضرها ومعان مشرقة تهز النفس وتبعث التفاؤل للمستقبل مما هيأ أجواء مناسبة لمقارعة العدو ودحره.

فخطباء الجزائر في هذه المرحلة سواء الذين ذكرنا بعض النماذج من خطبهم أو الذين لم نذكرهم وهم كثيرون كلهم قد أعادوا للخطابة في الجزائر دورها ومكانتها العريقة ووجهها الأصيل.

وأخيرا نود أن نجمل القول عن الخطابة في النثر الجزائري الحديث التي اعتمدت في عطائها على التراث العربي القديم. فكانت بذلك حلقة من حلقات ربط الماضي بالحاضر، وهذا ليس بدعا إذا بدت عليها سيمة الإقتداء بالقدامى فذلك لا يعود إلى عجز أصحابها على الإبداع وإنما هو لشعور الانتماء إلى الأصل والرغبة في استمراره والارتباط به، وما الإبقاء من جانبهم على تلك الصورة المتوارثة للخطابة إلا تعبيرا واضحا عن هذا الانتماء غير أنها ((تحررت من الزخرف اللفظي ومالت إلى الوضوح والبيان العربي الأصيل من جهة أخرى، فأعادت بذلك للأسلوب العربي مكانته في الأدب الجزائري))[1] يتجلى ذلك بوضوح في الفصل الموالي.

---

[1] عبد الله الركيبي ، تطور النثر الجزائري الحديث ، ص 33.

الفصل الثالث

موضوعات الخطابة في النثر الجزائري الحديث

أولا-موضوعات سياسية .

ثانيا-موضوعات اجتماعية.

ثالثا-موضوعات دينية و تربوية.

لقد وجدت الفنون مع وجود الإنسان، وهي تعتبر بمختلف أنواعها وأشكالها ضرورة من ضرورات الحياة في كل عصر من عصور تاريخ البشرية ومن هذه الفنون : فن الأدب الذي هو ((تعبير جمالي بالكلام عن معاناة صاحبه الذي يجسد أحاسيسه بلغة تتصف بصفات فنية إيحائية، في مفرداتها وتراكيبها ومضامينها المعنوية وأشكالها البنائية الإبداعية))[1].

ويشمل فن الأدب قالبين أحدهما نثري والآخر شعري، ويهمنا القالب النثري بألوانه المختلفة التي نخص منها بالذكر فن الخطابة الذي هو شكل من الأشكال الفنية القولية المعبرة عن واقع الأمم في مختلف جوانب حياتها.

فكيف عبر هذا اللون من الفن القولي عن واقع الجزائر؟.

تعرضت الجزائر في تاريخها الطويل لهزات عنيفة منها الاحتلال الفرنسي الذي يعد مصدر كل ما فيها من ظلم، وسببا رئيسا في تعطل مصالح الشعب الجزائري؛ كتعرض لغته لمحاولات المحو التام وبالتالي فقد المثقفون الجزائريون ((الاتصال بماضيهم نتيجة

---

(1) د.ميشال عاصي ، الفن والأدب ، مؤسسة نوفل ، بيروت -لبنان- ط3 ، سنة 1980م ، ص 77.

لفقدانهم الكتب والمدارس بلغتهم))[2].مما أثر سلبا على الحالة الأدبية في مختلف فنونها منها فن الخطابة، ولكن كل تلك المحاولات التي تعرضت لها الثقافة العربية في الجزائر من قبل الإدارة الاستعمارية قابلتها جهود متواضعة من رجال صدقوا وأخلصوا لدينهم ووطنهم فنتج عن ذلك في مرحلة من مراحل تاريخ الجزائر الحديث حركة أدبية صابرة تحمل لواء الثقافة العربية وقد ((انتصرت انتصارا كبيرا منذ الحرب العالمية الأولى حين أصبحت تنافس الفرنسية وتضايقها، وذلك بتأسيس المطابع العربية، وإصدار الصحف الوطنية، وبناء المدارس العصرية الحرة التي كانت تشرف عليها الأحزاب الوطنية، وجمعية العلماء بوجه خاص))[1].ففي هذه الأجواء انتعشت الخطابة وساعد على ظهورها عوامل منها:

-إن اجتماع الأحزاب الوطنية والجمعيات وعقد المؤتمرات السنوية قد هيأ أجواء مناسبة لإلقاء الخطب، وخير مثال على ذلك جمعية العلماء المسلمين الجزائريين التي تعقد مؤتمرا سنويا تلقي فيه خطبا بالمناسبة، وكان العلماء المصلحون يشجعون على الخطابة ويتولون بأنفسهم إدارتها وتوجيهها مما ساعد على تنشيطها.

-كانت الطرق الصوفية بكل هيئاتها في الجزائر تعتمد على الخطابة في تبليغ أفكارها واهتمت بها اهتماما بالغا حيث وضعت لها قواعد تلتزمها، ولكن الملاحظ أن خطبهم في تلك المرحلة العصيبة التي تمر بها البلاد لم تقم بدورها الرسالي ولا تتحدث أبدا في السياسة وهذا دفع بالإدارة الاستعمارية إلى تشجيعها ومساندتها.

-كثرة النوادي الثقافية التي أسست في جميع المدن الجزائرية الكبرى حيث اتخذت الخطابة مادتها الأولى ولسانها الناطق في جميع أحوالها.

-الترغيب في الخطابة ودفع الناشئة إلى القول وفتح أبواب التنافس بين التلاميذ على الخطابة مما هيأ تربة صالحة لنشاط وانتعاش فن الخطابة.

-استغلال المناسبات الدينية وبخاصة منها شهر رمضان الذي تفتح فيه أبواب الوعظ والإرشاد، وتلقى فيه خطب كثيرة ممزوجة بالتوجيه السياسي والإرشاد الديني والتوعية للشعب.

---

[2] د.أبو القاسم سعد الله ، الحركة الوطنية الجزائرية ،(1900م-1930م)،جـ2، ص 64.
[1] د.عبد الملك مرتاض ، فنون النثر الأدبي في الجزائر ، ص 34.

كل هذه العوامل وغيرها ساهمت في انتعاش الخطابة وانتشارها في شتى أنحاء الوطن، وهذا يدل على أن الخطابة قد تطورت كثيرا في أسلوبها ومحتواها وأصبحت تؤدي دورها الرسالي على أكمل وجه، بل أصبحت أداة لإذاعة الأفكار الإصلاحية المناسبة لتلك المرحلة من مراحل تاريخ الجزائر الحديث.

وقد تناولت الخطابة في الواقع الجزائري موضوعات مختلفة غير أن القارئ لهذه الموضوعات يلاحظ مسحة إصلاحية تغلب عليها وهذا ربما يعود إلى طبيعة تكوين أصحابها وإلى مقاصد الجمعية التي تحمل لواء الإصلاح في كل المجالات لذا يجمل بنا أن نقف بالدرس والتحليل للخطابة في هذه المرحلة.

والموضوعات التي عالجتها الخطابة عند أكثر من خطيب في واقع الشعب الجزائري كثيرة يمكن أن نقف عند بعضها لنتحدث عن أنواعها وأهدافها :

أولا : موضوعات سياسية :

ونقصد بالموضوعات السياسية هنا تلك التي تعالج قضايا السياسة في الجزائر أثناء الاحتلال الفرنسي، وبخاصة في المرحلة التي ظهرت فيها جمعية العلماء المسلمين الجزائريين، علما بأنه ليس شرطا أن يتناول النص الخطابي موضوعا سياسيا مستقلا بذاته وإنما قد يتناول موضوعا آخر، إلا أنه يحوي إشارات سياسية مبثوثة خلاله، وهذا الذي يهمنا ونحن ندرس هذه النصوص الخطابية المتنوعة في مختلف المجالات والمواقف السياسية التي وقفها رجال الإصلاح وغيرهم إزاء الإدارة الاستعمارية في الجزائر أكثر من أن تحصى نذكر بعضها على سبيل التمثيل لا الإحاطة.

وبداية نذكر موقف جمعية العلماء المسلمين الجزائريين من السياسة؛ إذ يزعم البعض أنها لا تهتم أبدا بالشؤون السياسية في البلاد ويعيبون عليها ذلك.

صحيح هي جمعية من مقاصدها الإصلاح الديني ونشر الفضيلة، ولكن هذا لا يعني أنها لم تهتم بالحالة السياسية في البلاد، بل كثيرا ما تصطدم بالواقع السياسي وهذا أمر طبيعي؛ لذا فهي تدافع عن مكانتها وتواجه الإدارة الاستعمارية مطالبة بحقوقها، ولكن غالبا ما تتريث في مطالبها وتعتمد الحكمة والحذر لتحقيق مصالحها والوقوف عند غاياتها، ويتجلى ذلك بوضوح في أكثر من موقف من مواقفها السياسية إزاء الإدارة المختصة.

ذلك ما نقرأه في خطاب الشيخ عبد الحميد بن باديس في الاجتماع العمومي المنعقد بنادي الترقي سنة 1932م لتجديد المكتب وبيان حال الجمعية الأدبية والمالية.

فالخطيب أمام واقع غير مستقر، والجمعية التي يعمل فيها ما زالت حديثة العهد، فهو يريد تثبيت أركانها وتعميمها في كافة أرجاء الوطن؛ لذا وجدناه يذكر إخوانه العاملين بأهمية ذلك دون أن ينسى استمالة المؤيدين للجمعية إلى مؤازرتها ومساندتها حتى تتحقق المقاصد التي من أجلها أسست، يقول : ((أيها الإخوة من الأعضاء العاملين والمؤيدين أن جمعية يراد تأسيسها وتعميمها في قطر واسع مترامي الأطراف كقطرنا وفي أمة حديثة عهد بالجمعيات قليلة التعارف كثيرة المخالف بين أفرادها وجماعتها كأمتنا –لقليل في تثبيتها وتوطيد قدمها وتعميم دعوتها السنة والسنتان والثلاث- بما كانت سنتها الماضية إذن إلا سنة تأسيس وإنني أريد أن أحدثكم في مقالي هذا عما تم من ذلك التأسيس، وما بذل في سبيله من جهوده، وما كان له من ثمرات))[1].

فتأسيس هذه الجمعية لم يكن وليد صدفة عمياء أو محض إرادة طائشة، وإنما بذل في سبيل ذلك جهد كبير واتصالات متتالية برجال الحكومة حتى تم تأسيسها.

فالمتأمل في حديث (ابن باديس) يلمس مدى فقهه للواقع الجزائري أيام الاحتلال الفرنسي، والعمل الجاد المنظم ضمن إطار الجمعية التي يراها الحل الوحيد لقضايا الأمة فدفعه ذلك إلى محاولة إقناع الإدارة المختصة بتأسيس الجمعية، وقد استطاع بحنكته السياسة ومراعاته لطبيعة المرحلة أن ينال استحسان الحكومة وقبولها لتأسيس الجمعية.

فلنقرأ قوله لمعرفة حقيقة ذلك وكيف تمكن من الوصول إلى الغاية من أجل إنقاذ المجتمع الجزائري من الآفات الاجتماعية التي أنهكت قواه، يقول : ((فأما التأسيس فقد اعتبرت جمعيتنا اعتبارا شريفا لدى رجال الحكومة الفخام فإني قابلت في شأن الجمعية واجتماعاتها رجالا كثيرين، وقد رأيت من هؤلاء السادة كلهم الابتهاج بالجمعية والاستحسان لها وسمعت منهم التنشيط على العمل بمبادئها من محاربة الآفات الاجتماعية كالخمر و الميسر والبطالة والفجور وكل ما يحرمه صريح الشرع وينكره العقل وتحجره القوانين الجاري بها

---

[1] عبد الحميد بن باديس ، آثاره ،جـ6 ، ص 83.

العمل مع البعد التام عن الخوض أو التداخل في المسائل السياسية كلها، وإنني أرى هذا القبول والرضى من هؤلاء السادة الحكام هو أول شرط لنجاح الجمعية وأعظم ركن في تأسيسها لأن الأمة إنما تثق بمن تثق بحكومتها وإنما ينهض بها العاملون من أبنائها بإعانة رجال حكومتها، وكل من يريد أن يخدم الأمة بدون حكومتها فإنه يضرها ولا ينفعها فكل ما يتم من جمعيتنا فللحكومة ورجالها من الفضل فيه والشكر عليه نصيب وافر))[1].

فطريقة ابن باديس في العمل الإصلاحي في مختلف النواحي طريقة يشوبها الحذر وعمق النظر لذلك أتت أكلها ونالت شهرة في الآفاق والتأييد من جميع الطبقات بدون فرق ((وكذلك كانت جمعيتنا عند كثير ممن حاد ثناهم عنها من جيراننا الفرنسيين عن رضى واستحسان، وقد ظهر ذلك بما كتبته صحيفة لاديبيش القسنطينية في بعض أعدادها المحفوظة عندنا ونحن كما سرنا إن كانت جمعيتنا مقبولة عند الحكومة ورجالها سرنا أن تكون كذلك عند جيراننا أجمعين ورأينا عند الأمة الإقبال في جميع البلدان التي قصدناها أو قصدها بعض الإخوان من رجال الإدارة، ورأينا التأييد للجمعية والرجاء فيها والإكبار لغايته من جميع الطبقات بدون فرق))[2].

فمن ثمرات تأسيس الجمعية أنها قد احتضنت من قبل الأمة ونالت ثقة الحكومة بفضل تضحيات جسام من رجال أهل العلم وآخرين من أهل النبل والفضل، ذلك ما يستشف من خلال قوله : ((وأما ثمرات التأسيس وهذه الجهود بما تم من تأسيس الشعب وما حصل من مكانة للجمعية عند الأمة والحكومة وما جمع وضبط من المال ما يحدثكم عنه الأخ أمين المالية من بعدي، فالجمعية اليوم بنعمة الله ثابتة القدم عند الحكومة والأمة محصلة على الثقة عندها تضم بين جنسها رجالا من أهل العلم والحزم والعزم وآخرين من أهل النبل والفضل يعملون في سبيلها ويخدمون الأمة كلها بها خدمة الإخلاص والتضحية جامعة خزانتها مقدارا من المال هو وإن قل فيه كفاية لبعض ما تنويه من الأعمال في سنتها الجديدة وهذا القدر من الثمرات المحمودة كثير –والفضل لله- في سنة واحدة فالحمد لله ثم الشكر لكل من كان له سبب في ذلك من رجال الحكومة وأفراد الأمة))[1].

---

(1) المصدر السابق ، جـ6، ص 83-84.
(2) المصدر نفسه ، جـ6، ص 84.
(1) المصدر السابق ، جـ6، ص 85.

بعد هذه القراءة لنص الخطبة يتبين لدينا وبخاصة في السنوات الأولى من تأسيس الجمعية أن رئيسها الشيخ عبد الحميد بن باديس كان شديد الحذر في تحركاته حريص على تجنب الصدام مع الإدارة الاستعمارية، ومرد ذلك ربما يعود إلى طبيعة المرحلة التي تمر بها البلاد، فالشيخ كان يفقه واقع المجتمع الجزائري تمام الفقه لذلك نجده في بعض ممارساته السياسية يتريث ويرجئ الأمور إلى حينها بل كان ينصح إخوانه العاملين بذلك حتى يمرر أعماله ويصل إلى الغاية التي من أجلها أسست الجمعية.بينما نجده في مواقف سياسية أخرى حازما صريحا وبخاصة في المراحل التي تلت مرحلة تأسيس الجمعية، ذلك ما يلحظه الدارس في أكثر من نص خطابي له.فمثلا حين تعرضت صحف الجمعية للمصادرة والمنع كانت المواجهة هي إعلام الناس بذلك ومحاولة طرح القضية على الإدارة المختصة، وهذا موقف سياسي يعتمد أسلوب المطالبة من قبل الجمعية، ذلك ما يستشف من خلال قول ابن باديس من خطبة له : ((نشرت الجمعية صحيفة السنة، فصحيفة الشريعة، فصحيفة الصراط، فلقيت كلها من الأمة من الإقبال والرواج ما لم تلقه صحيفة قبلها، وما أحبها المؤمنون حتى أحبها الله، ولا يوضع الحب في الأرض حتى يوضع في السماء، ولكنها لقيت من ناحية إدارية خاصة البغض و التنكر والاضطهاد فسقطت الصحيفة الأولى ثم الثانية ثم الثالثة؛ وقرن تعطيل الثالثة بمنع الجمعية من إصدار أي صحيفة منعا سيبقى لطخة سوداء في جبين حرية القول والتفكير في تاريخ الصحافة في القرن العشرين الذي يسمونه عصر الحرية والنور))[1].

وفي خطبة له أيضا في الاجتماع العام لجمعية العلماء المسلمين الجزائريين المنعقد بنادي الترقي يتحدث عن النكبات التي تعرض لها أعضاء الجمعية من قبل الإدارة الاستعمارية، متحديا إدارتها ، وأن تصرفاتها الظالمة تجاه الجمعية لا تزيد لمريديها إلا قوة وصلابة، بل يعد ذلك سببا في رسم اسمها في ذاكرة أبناء المستقبل من الأجيال اللاحقة، يقول : ((أما بعد : فسلام عليكم يا أعضاء جمعية العلماء المسلمين الجزائريين أجمعين، وسلام على مساجينكم في المساجين، وسلام على متهميكم في المتهمين، وسلام على منكوبيكم في المنكوبين، سجون واتهامات ونكبات، ثلاث لا تبنى الحياة إلا عليها، ولا تشاد الصروح السامقة للعلم والفضيلة والمدنية الحقة إلا على

---

(1) **عبد الحميد بن باديس، آثاره ، جـ4، ص 176.**

أسسها، فاليوم –وقد قضى الله للجمعية بهذه الثلاث- أثبتت الجمعية في تاريخ الإسلام وجودها، وسجلت في صفحات الخلود رسمها، ونقشت في قلوب أبناء المستقبل اسمها، وبرزت في ذلك كله أسماء أولئك المسجونين والمتهمين والمنكوبين نجوما متألقة تأخذ بالأبصار))[2].

ثم يعود إلى ذكر نوع نشاط أعضاء الجمعية مشيرا إلى قانونها الأساسي ومدى التزامها به، موضحا موقفها إزاء الواقع الاجتماعي والدور الرسالي الذي تؤديه انطلاقا من تمسكها بدينها الذي يعتمد أساسا على اللغة العربية ليتسنى فهم مقاصد القرآن، وذلك ما كانت تخشاه الإدارة الاستعمارية مما دفعها إلى تجاوز القوانين الأصلية بمعاملات استثنائية حتى يتم تعطيل عمل الجمعية وتقزيم دورها في واقع الناس.

يستشف ذلك من خلال قوله : ((وفيم هذا كله؟ على من ثرتم؟ وإلى من أسأتم؟ وأي حدود تعديتم؟ وماذا تبغون؟

لا والله، ما ثرتم إلا على الجهل والرذيلة، وما أسأتم إلا للأثرة والجبرية، وما تخطيتم إلا حدود الجمود والخرافة، ولا تبغون إلا الحق والخير والعدل والإحسان.

ألا في سبيل الله ما لقيتم، ألا في سبيل الله ما أنتم لاقون.

أيها الإخوان، إن جمعيتكم أمينة على حفظ الإسلام ولغة الإسلام في هذه الديار فإن قانونها الأساسي ينص على أنها جمعية تهذيبية إرشادية، تحارب الآفات الاجتماعية، وكل ما يحرمه صريح الشرع. وتتذرع لغايتها بكل ما تراه صالحا نافعا غير مخالف للقوانين المعمول بها، وأي وسيلة أقرب إلى تهذيب المسلمين، وأي دواء أنجع في علاجهم، من دينهم الإسلام الكريم؟ وبأي شيء يفهمون هذا الدين ويصلون منه إلى ما فيه من تربية وتهذيب إلا العربية لغة القرآن العظيم؟ وتعلم الإسلام ولغة الإسلام مباح في أصل القوانين. ولقد صدمت هذه القوانين الأصلية بمعاملات استثنائية رامية في فهم جميع المسلمين إلى مقاومة الإسلام ولغة الإسلام، وذلك هو المشاهد من آثارها في التغليق والتعطيل))[1].

فالمستعمر لا يرحم أبدا، بل من أهدافه القضاء التام على كل من يراه قد يمس بمصالحه لذلك لم يسلم منه أحد لا رجال التعليم ولا العلماء المصلحون حتى المدارس والمساجد لم تسلم من بطشه وظلمه

---

[2] المصدر نفسه، جـ4، ص 209.

[1] المصدر السابق ، جـ4 ، ص 210-211.

وهذا ابتلاء عظيم للأمة ((وهؤلاء رجال التعليم في بجاية وباتنة وغيرهما يساقون على المحاكمة المرة بعد الأخرى، ويغرمون من أجل التعليم ويهددون بالسجن.

وهذه مدرسة دار الحديث بتلمسان مغلقة إلى اليوم وكم أذكر وكم أعدد، فلقد هبت الأمة لتعلم دينها ولغة دينها في جد ونشاط فاق السنوات المتقدمة، فعوجلت بهذه البلايا والمحن.حقا لقد كانت سنتنا الماضية سنة عمل وسنة ابتلاء، وأي عامل صادق في عمله مخلص لا يبتلى؟))[2].

لكن الجمعية لم تستسلم أمام هذه الضغوطات وما يرتكب في حقها من مظالم، بل قامت بالدفاع إزاء هذا كله لأن المسألة مسألة أمة لا مسألة جمعية فالأمر يتعلق بالجميع، لذلك حذرت وبينت للناس وجه الصواب، وقد استطاعت أن تفشل كثيرا من المحاولات والمساومات الضاغطة لإبعاد الأمة عن دينها.((لقد قامت الجمعية بالدفاع إزاء هذا كله، وقامت معها جميع الهيئات أو جلها حتى تبين أن المسألة مسالة أمة لا مسالة جمعية، وأن المسلمين لا يسكتون عن تعلم دينهم ولغة دينهم بحال.

وقد جيش على الإسلام من ناحية أخرى، فوضعت الذاتية الإسلامية في المساومة، فرفعت الجمعية صوتها بالتحذير والتبيين، ووجدت من ممثلي الأمة آذانا صاغية، ففشلت تلك المساومة وقبرت المسألة من ذلك اليوم، والمجد والخلود للإسلام.

وهكذا لا تفتأ جمعيتكم إن شاء الله دائبة في سبيل الإسلام والعربية، لغة الإسلام، في دائرة القانون العام، ولو لحقها في ذلك كل ظلم وعدوان))[1].

فالعدو من طبيعته أنه لا يستجيب لشكوى ولا يولي اهتماما لإلحاح وهذا ما تعلمه الجزائريون فمنذ زمن بعيد وهم يعلمون أنه لا يجدي نفعا لذلك وجدنا الشيخ ابن باديس يذكر بما قامت به الجمعية من اتصالات بالإدارة المختصة ورفع شكاوى واحتجاجات تطالب بحقوقها وحقوق الشعب لكن قوبلت بالمماطلة والرفض، بل عادة ما يكون الرد بتضييق الخناق وإصدار قوانين مرهقة للأمة، فإزاء هذا كله كان الموقف السياسي الذي تبنته الجمعية هو الاستمرار والإلحاح في المطالبة والسكوت أحيانا في بعض المواقف احتجاجا على تجاوز

---

(2) المصدر نفسه ، جـ4، ص 210.

(1) المصدر السابق ، جـ4 ، ص 211.

ومظالم الإدارة الاستعمارية، نقرأ كل ذلك من خلال قوله : ((أيها الإخوان، قد اعتدنا في كل اجتماع عام من اجتماعاتنا أن نرفع شكوانا واحتجاجنا إلى الولاية العامة وإلى الحكومة العليا، ولم يرد لنا جواب مرة واحدة، بل يكون الجواب بزيادة الإرهاق وتضييق الخناق.

فصدر قانون النوادي الذي يرمي إلى إخلائها وحرمان الكبار من التهذيب في نواديهم، بعد ما حرموا منه في مساجدهم وصدر قانون 8 مارس الذي يرمي إلى غلق المدارس وحرمان المسلمين من تهذيبهم وتلقين دينهم وآداب دينهم ولغة دينهم، وصار من شروط إعطاء الرخصة للقليل الذي أعطيت له أن يعلم على الكيفية القديمة الخالية من كل تهذيب، ذات العصا والفلقة والحصير، في العصر الذي تتقدم الأمم كل عام في أساليب التعليم نرد نحن إلى الوراء، فاسمع وتعجب يا عصر المدنية والنور، وصدر أمر الولاية العامة بتحجير القسم الجنوبي من الوطن على كل منتسب للعلماء بينما تعطى الإعانات، وتمنح التسهيلات للبعثات غير الإسلامية لتنصير أبناء وبنات المسلمين، وصدرت الإيعازات –وخصوصا في الدوائر الممتزجة- إلى القياد ومن إليهم بالابتعاد من رجال العلم مما أحدث تباعدا في كثير من النواحي بين أبناء العرش الواحد، بينما نحن نسعى للتقريب والتأليف بين جميع المتساكنين.هذا هو الجواب العملي على شكوانا واحتجاجنا.

أيها الإخوان، فنحن مع بقائنا على جميع ما قلنا وبينا، واستمرارنا في موقفنا كما كنا، لا نريد اليوم أن نرفع شكوانا ولا أن نقدم احتجاجنا، وحسبنا في هذه السنة السكوت، وكفى بالسكوت احتجاجا عند من عرف وأنصف .وحسبنا الله ونعم الوكيل))[1].

وفي سنة 1937م ألقى الشيخ عبد الحميد بن باديس خطابه السنوي العظيم بمناسبة الاجتماع العام لجمعية العلماء المسلمين اهتزت له جوانب (الماجستيك) بالعاصمة واهتزت لاهتزازها أعراش الاستعمار بالجزائر وفرنسا.تحدث فيه بجرأة وصراحة عن أعمال تمارسها الإدارة الاستعمارية في حق الجزائريين، من غلق أبواب العلم ومحاربة الإسلام وخنق الحريات وغيرها من الممارسات التي أثقلت كاهل الشعب الجزائري مما أثر سلبا في سلوكه الاجتماعي حتى ظنت الإدارة الاستعمارية أنها قد مسخته وأماتت فيه كل عرق حي ينادي بالرجوع إلى الذات، ولكن خاب أملها ومسعاها، فبعد قرن من

---

[1] عبد الحميد بن باديس ، آثاره ، جـ4 ، ص 212-213.

الزمان ها هي بقية كثيرة من الشعب ينتفض ويعود إلى لغته العربية معتزا فخورا بها.

((حوربت فيكم العربية حتى ظن أن قد مات منكم عرقها، ومسخ فيكم نطقها، فجئتم بعد قرن تصدح بلا بلكم بإشعارها فتثير الشعور والمشاعر، وتهدر خطباؤكم بشقاشقها فتدك الحصون والمعاقل، ويهز كتابكم أقلامها فتصيب الكلا والمفاصل))[1].

إلى جانب محاربة اللغة العربية فإن الإدارة الاستعمارية سخرت كل ما تملك من أجل القضاء على الإسلام في الجزائر ولمدة طويلة حتى ظنت أنها قد طمست معالمه، لكن أبناء الإسلام بعد قرن يأتون وكلهم إيمان بدينهم يدعون إليه متأسين في ذلك بقدوتهم (صلى الله عليه وسلم)، ((وحورب فيكم الإسلام حتى ظن أن قد طمست أمامكم معالمه، وانتزعت منكم عقائده ومكارمه، فجئتم بعد قرن ترفعون علم التوحيد، وتنشرون من الإصلاح لواء التجديد، وتدعون إلى الإسلام كما جاء به محمد صلى الله عليه وآله وسلم كما يرضى الله لا كما حرفه الجاهلون وشوهه الدجالون ورضيه أعداؤه))[1].

فالإدارة الاستعمارية لم تتوقف عند هذا الحد بل تجاوزته إلى محاربة العلم وقطع الطريق أمام طلابه، فأغلقت المدارس وعطلت دور المساجد وحاربت العلماء، مما أوقع الأمة في مخالب الجهل حتى ظنت أنها قد رضيت بالجهالة، ولكن بعد قرن ها هم أبناء الجزائر يلتفون حول علمائهم ويبنون للعلم بناء شامخا تمثله جمعية العلماء المسلمين الجزائريين ((وحورب فيكم العلم حتى ظن أن قد رضيتم بالجهالة، وأخلدتم للنذالة ونسيتم كل علم إلا ما يرشح به لكم أو ما يمزج بما هو أضر من الجهل عليكم، فجئتم بعد قرن ترفعون للعلم بناء شامخا، وتشيدون له صرحا سامقا، فأسستم على قواعد الإسلام والعروبة والعلم والفضيلة جمعيتكم هذه، جمعية العلماء المسلمين الجزائريين))[2].

حتى الفضيلة لم تسلم من كيد ودسائس الإدارة الاستعمارية فهي تعلم أن الأمة إذا سادت فيها الفضيلة فإن ذلك يكون سببا في نهوضها لذلك عملت بكل ما في وسعها للقضاء عليها حتى ظنت أن لا مكان لها في المجتمع الجزائري، لكن خاب مسعاها فبعد قرن يأتي أبناء الأمة

---

[1] المصدر السابق ، جـ4 ، ص 203.

[1] المصدر السابق، جـ4 ، ص 203.

[2] المصدر نفسه ، جـ4 ، ص 203.

ينفضون غبار الذل ويطالبون بحقوقهم مطابلة من يعرف حقه ولا بد أن يعطاه أو يأخذه ((وحوربت فيكم الفضيلة فسمتم الخسف وديثتم بالصغار حتى ظن أن قد زالت منكم المروءة والنجدة، وفارقتم العزة والكرامة فرئمتم الضيم، ورضيتم الحيف وأعطيتم بالمقادة، فجئتم بعد قرن تنفضون غبار الذل، وتهزهزون أسس الظلم، وتهمهمون همهمة الكريم المحنق، وتزمجرون زمجرة العزيز المهان، وتطالبون مطالبة من يعرف أن له حقا لا بد أن يعطاه، أو يأخذه))[1].

فالموقف السياسي للجمعية إزاء الحكومة قد عبر عنه الشيخ عبد الحميد بن باديس في أكثر من مرة غير أنه في خطابه هذا يبينه واضحا صريحا فهو موقف بين المطالبة والاحتجاج من ناحية، والصد والإعراض من ناحية أخرى ((أما موقفها مع الحكومة فهو هو، المطالبة والاحتجاج من ناحية الجمعية، والصد والإعراض من الناحية الأخرى، ولقد كنت في خطاب السنة الماضية علقت رجاء الجمعية على الحكومة الشعبية وحسنت الظن بها، وأنا اعلم اليوم –مع الأسف المر- خيبة ذلك الظن ووهن ذلك الرجاء فحسبنا إيماننا بالله وثقتنا بأنفسنا فذلك –والله- أجدى لنا وأعود بالخير علينا))[2].

أما موقفنا مع الأحزاب فهو موقف ينطلق أساسا من الإسلام والإسلام وحده ذلك ما ورد في قول ابن باديس : ((وأما موقف الجمعية مع الأحزاب فأعيد فيه نص ما قلته بالسنة الماضية : إن الإسلام عقد اجتماعي عام فيه جميع ما يحتاج إليه الإنسان في جميع نواحي الحياة سعادته ورقيه وقد دلت تجارب الحياة كثيرا من علماء الأمم المتمدنة على أنه لا نجاة للعالم مما هو فيه إلا بإصلاح عام على مبادئ الإسلام (ومن أحدث ذلك ما قرره مؤتمر القانون الدولي العام في حق الفقه الإسلامي وصلوحيته لأمور الحياة) فالمسلم الفقيه في الإسلام غني به عن كل مذهب من مذاهب الحياة. فليس للجمعية إذا من نسبة إلا إلى الإسلام، وبالإسلام وحده، تبقى سائرة في طريق سعادة الجزائر، والبلوغ بها –إن شاء الله- إلى أرقى درجات الكمال))[1].

وبمناسبة اجتماع الوفد الجزائري بالشعب بعد رجوعه من باريس تحدث ابن باديس بحديث كله أمل وتفاؤل بالمستقبل السعيد

---

[1] **المصدر السابق ، جـ4 ، ص 203.**
[2] **المصدر نفسه ، جـ4 ، ص 206.**
[1] **المصدر السابق، جـ4 ، ص 206.**

مذكرا بحقيقة هذا الشعب الممتد الجذور المرتبط بالله في جميع أحواله الساعي إلى تحقيق مطالبه عن طريق وفده الذي حمله الأمانة فأداها خير الأداء ومثله في إرادته وحياته وكرمه خير التمثيل وعرف به عند كل حر يأبى الظلم وينصف المظلوم ((أيها الجزائري التاريخي القديم، المسلم الصميم، كلمته من كلمة الله، وإرادته من إرادة الله، وقوته من قوة الله، أو لست منذ شهر كونت مؤتمرا كما ينبغي أن يكون جلالا وروعة، فذلك مجلى إرادتك، ومظهر قوتك، وكونت هذا الوفد الكريم فحملته مطالبك فاضطلع بها، وأدى الأمانة في ثمانية أيام، وهي لا تؤدى إلا في أضعاف ذلك من الأيام، وفد، لعمر الله، مثلك في قوتك وإرادتك وحياتك وكرمك، وفد متحد متعارف متساند، زار الوزارات والأحزاب وأرباب الصحف فعرفك إليها، ورفع إليها صوتك، ولقد كدت تكون، أيها الشعب، مجهولا عندهم تمام الجهل، لكن بأعمالك العظيمة، وبما قام به الوفد ، صرت معلوما لدى من يعرف الحق، ويحترم الكريم، وينصف المظلوم))[2].

فهذا الشعب عظيم عظم تاريخه حيث برهن أكثر من مرة أنه متشوق للحرية ومتعشق لها وسيحيى ويموت لأجلها ((أيها الشعب، إنك بعملك العظيم الشريف برهنت على أنك شعب متعشق للحرية وهائم بها، تلك الحرية التي فارقت قلوبنا منذ ركنا نحن الحاملين للوائها، وسنعرف في المستقبل كيف نعمل لها، وكيف نحيا ونموت لأجلها))[1].

فالحرية قد ضحى في سبيلها كثير من أبناء الشعب الجزائري فهي مطلب من مطالبه الأساسية؛ لذا وجدنا الشيخ ابن باديس في هذا الموقف السياسي إزاء الحكومة الفرنسية يؤكد على مطالب الأمة ويحذر من عدم الاستجابة لها. فالشعب لا يرضى أبدا بخنق حريته إما الحياة الكريمة أو الموت الحر ((إننا مددنا إلى الحكومة الفرنسية أيدينا، وفتحنا قلوبنا، فإن مدت إلينا يدها وملأت بالحب قلوبنا فهو المراد، وإن ضيعت فرنسا فرصتها هذه فإننا نقبض أيدينا، ونغلق قلوبنا، فلا نفتحها إلى الأبد.

أيها الشعب، لقد عملت وأنت في أول عملك فأعمل ودم على العمل، وحافظ على النظام، واعلم أن عملك هذا على جلالته ما هو

---

[2] **المصدر نفسه ، جـ6 ، ص 316.**

[1] **ابن باديس ، آثاره ، جـ6 ، ص 316.**

إلا خطوة ووثبة ووراءه خطـوات ووثبات. وبعدها إما الحياة وإما الممات)) [2].

وهذا البشير الإبراهيمي في خطاب له مساء الثلاثاء 29 جانفي 1952م حين أقامت شعبة جمعية العلماء المسلمين بباريس مأدبة عشاء على شرف الوفود العربية والإسلامية في منظمة الأمم المتحدة، يتحدث فيه عن موقف الاستعمار الفرنسي من دول المغرب العربي وبخاصة تونس و الجزائر والمغرب، كاشفا حقيقة ما ارتكبه من مظالم في حق الشعوب.

فالخطيب يريد بحديثه هذا أن يضع الحضور أمام الأمر الواقع ويحملهم مسؤولية الدفاع عن المستضعفين يقول : ((أحق أن باريس- وهي منبع شقائنا، وهي الصفحة العابسة في وجوهنا- تنزل لحظة عن عادتها فتتيح لنا أن نجتمع بين حناياها هذا الاجتماع الرائع؟ فلولا حقوق للأوطان في أعناقنا، ولولا عهود يجب أن نرعاها لديارنا لكنا نغفر لباريس جميع ما جرته علينا من جزائر، ونمحو لها بهذه الحسنة جميع السيئات، ولكن تأبى علينا ذلك دماء في تونس تسيل، وشعب في المغارب الثلاثة يعذب، وشباب تفتح له السجون والمعتقلات، وتغلق في وجهه المدارس والمعابد، ودين في الجزائر ممتهن الكرامة،فهيهات أن نصفح عن باريس أو نصافحها بعد أن جنينا المر من ثمراتها، وهيهات أن يسميها دار العلم من لم ير منها إلا الظلم، وهيهات أن يدعوها عاصمة النور من لم تغشه منها إلا الظلمات، وهيهات أن يلقبها دار المساواة من لم تعامله إلا بالإجحاف)) [1].

بعد هذا الموقف السياسي الصريح الواضح يعود ليتحدث بلسان صادق عن نتائج مظالم الاستعمار وأنها إلى زوال لا محالة، فأبناء العروبة والإسلام لم تنقطع بهم السبل بل لهم في أجدادهم الأسوة الحسنة لاسترجاع حريتهم وكرامتهم ليسود العدل كما ساد أيام أسلافهم يقول : ((ها هو الشرق رمى باريس بأفلاذ كبده، يدافعون عن حماه بالحق، ويجادلون عن حقه بالمنطق، وما منهم إلا السيف مضاء والسيل اندفاعا، وإن وراءهم لشبابا سينطلق يوم يسكتون، وسيتكلم بما يخرس الاستعمار ويسوءه، وإن بعد اللسان لخطيبا صامتا هو السنان، وإننا لرجال، وإننا لأبناء رجال، وإننا لأحفاد رجال وإن أجدادنا دوخوا

---

[2] المصدر نفسه ، جـ6 ، ص 317.

[1] محمد البشير الإبراهيمي ، آثاره ، جـ2 ، ص 466.

العالم، ولكن بالعدل، وسادوه، ولكن بالإحسان، وإن فينا لقطرات من دماء أولئك الجدود، وإن فينا لبقايا مدخرة سيجليها الله إلى حين))[1].

فالشيخ البشير الإبراهيمي لم يكتف بهذا الموقف الحازم إزاء الآخر، بل ذهب إلى أبعد من ذلك حين ذكر الوفود بحقيقة منظمة الأمم المتحدة التي أصبحت منظمة تناصر الأقوياء وتخذل الضعفاء وهذا لعمري عين الظلم البواح ((رمى الشرق باريس بهذه الأفلاذ، فخاطبوا الأمم وخطبوا في منظمة الأمم، هذه المنظمة التي سميت بغير اسمها، وحليت بغير صفتها، وما هي إلا مجمع يقود أقوياؤه ضعفاءه، ويسوق أغنياؤه فقراءه، وما هي إلا سوق تشترى فيها (الأصوات) بأغلى مما كانت تشترى به أصوات (الغريض) و(معبد)، غير أن الأصوات القديمة كانت فنا يمتزج بالنفوس، وموسيقى تتسرب إلى الخواطر، أما هذه الأصوات فإنها تنصر الظلم، وتؤيد الاستعلاء والطغيان، وشتان ما بين الصورتين، وتباع فيه الذمم والهمم والأمم بيع البضائع في السوق السوداء، وما هي إلا مجلس نصبوه للشورى فكان للشر وعقدوه للعدل والتناصف، فكان فيه كل شيء إلا العدل والتناصف))[2].

بعد هذه الصرخة المدوية في وجه الظلم والاستعلاء يعود الخطيب إلى الحديث عن قضية طالما شغلت بال المخلصين في شمال أفريقيا وهي الدعوة إلى وحدة المغرب العربي الذي تربط بين أجزائه خصائص متقاربة تجمع بين شعوبه مما يهيئ أسباب لوحدته، لذا وجدنا الشيخ الإبراهيمي كله أمل بتحقيق هذه الوحدة، وهذا ما دفعه إلى التذكير بأهميتها أمام الوفود العربية والإسلامية حتى يحملهم مسؤولية السعي في القضية وتحقيقها ((وأن هذا الشمال الأفريقي كل لا يتجزأ تربط بين أجزائه دماء الأجداد، ولسان العرب، ودين الإسلام، وسواحل البحر في الشمال، وجبال الرمال في الصحاري، وسلاسل الأطلس الأشم في الوسط، واتحاد الماء والهواء والغذاء، وإنها لخصائص تجمع الأوطان المتباينة، فكيف لا تجمع الوطن الواحد؟.

إن تفرق هذه الأجزاء لم يأت من طبيعتها وإنما جاء من طبائعنا الدخيلة، ومن تأثراتنا الغريبة بالدخلاء وإنني متفائل بأن هذه الليلة ستكون فاتحة لعهد جديد، واتحاد عتيد، ونور من الرحمة والإخاء

---

[1] المصدر السابق ، جـ2 ، ص 466.
[2] المصدر نفسه ، جـ2 ، ص 466.

ينتظم المغارب في سلك، إنني متفائل بما يتفاءل به السارون المدلجون من انبلاج الفجر، فعسى أن يتحقق هذا التفاؤل فتكون هذه الليلة أول خيط في نسيج الوحدة الأفريقية التي هي آخر أمل المتفائلين مثلي، وإن العنوان الدال على ما وراءه هو اجتماع جميع حركات الشمال الأفريقي في هذا الحفل الزاهر، وأن البشير بتحقق هذا الأمل هو امتزاجنا بإخواننا الشرقيين حول هذه الموائد ومن بركاتهم أن تجتمع حركاتنا كلها في صعيد واحد، وكلها لسان يعبر، وقلب يفكر، وآذان تسمع، وأنا لنرجو أن تكون قلوبنا غدا غير قلوبنا بالأمس، وأن نفيء إلى الحق الذي أمر الله بالفيأة إليه))[1].

والرجوع إلى دين الله هو الباعث القوي في تلاحم أبناء الأمة الإسلامية والسبب الرئيس في تفوقهم الحضاري، وهذا كان مطلب عقلاء الأمة ورجال الإصلاح من أمثال الشيخ البشير الإبراهيمي الذي تجاوز تلك الحدود المصطنعة التي هي من تأثراتنا الغربية بالدخلاء فها هو يلقي كلمة إلى الشعب الليبي بمناسبة استقلاله يحييه فيها ويذكره بماضيه الحافل بالبطولات التي توجت بالنصر المبين ويدعوه إلى أخذ العبرة من الماضي للحاضر والمستقبل متمنيا له الإجماع في الرأي وعدم الاستبداد وصلاح الساسة حتى يجنبوا البلاد والعباد المهالك، ((حياكم الله وبصركم بالعواقب، وجعل لكم في الماضي عبرة للحاضر وعظة للمستقبل، ونصركم في معارك الرأي كما نصركم في معارك الحرب وأراكم الخير خيرا لتتبعوه، والشر شرا لتتقوه وتجانبوه، ووقاكم شر تحكم الأفراد وزلل الساسة، وأخرجكم من ظلمات الاستبداد إلى نور الشورى، ووفق قادتكم إلى التي هي أحسن عاقبة، وجعل لكم في كل مسلك ضيق فرجا عاجلا ومخرجا حسنا))[2].

فرابطة الأخوة الإسلامية هي التي أنطقت البشير الإبراهيمي وجعلته يفتخر ويعتز بإخوانه الليبيين الذين أعطوا درسا عمليا للأمم في نيل الحرية التي من أجلها ضحت كل فئات الشعب وصبروا حتى تمكنوا من الوصول إلى الحقيقة الكاملة في الحياة وهي أن يحيا الإنسان حرا كريما، أو يموت حرا كريما، لأن الحياة بلا حرية موت أفظع من الموت ((لم يعرف العصر الحديث شعبا غيركم دافع عن حريته كما دافعتم، ولا شعبا دفع من أثمان الحرية مثلما دفعتم، فقد

---

[1] **المصدر السابق ، جـ2 ، ص 383-384.**
[2] **المصدر نفسه ، جـ4 ، ص 267.**

قدمتم من دمائكم وأموالكم ما لم يقدمه غيركم من الأمم التي ابتليت بتسلط الأقوياء عليها...قدمت الأمم شبانها فداء لأوطانها، أما أنتم فقدمتم الشبان والكهول والشيوخ، وناهيكم بشيخ المجاهدين وإمام الشهداء عمر المختار، فضربتم الأمثال وملأتم التاريخ بالأعمال، وصبرتم في سبيل وطنكم على الجوع والعطش والعري والتشريد، ولم تهن لكم عزيمة ولا ضعف إيمان ولا تزعزعت عقيدة، ولم تخطئوا كما أخطأ غيركم في فهم الحقيقة الكاملة للحياة، وهي أن يحيا الإنسان كريما أو يموت كريما، وأن الحياة بلا حرية موت أفظع من الموت))[1].

فهذا الشعب العظيم ابتلي باستعمار أفسد عليه دنياه وأذاقه لباس الجوع، لكن هذا الدخيل البغيض لم يهنأ أبدا برغيد العيش، فأبناء الإسلام في ليبيا انتفضوا وقدموا أرواحهم فداء للأمة فأذاقوا العدو الهزائم تلو الهزائم حتى انكسر ((كذلك يبتل الله فيمن ابتلى من خلقه بمثل ما ابتلاكم به من استعمار حيواني شره أذاقكم لباس الجوع، ولم يستطع أن يذيقكم عذاب الخوف، ولكنكم أذقتموه الهزائم التي سجلها التاريخ، وقاوم ضعفكم الذي يمده الإيمان قوته التي يمدها الطغيان، وصدقتم ما عاهدتم الله عليه فمنكم من قضى نحبه ومنكم من ينتظر وما بدلتم تبديلا))[2].

فنيل الاستقلال لم يكن منحة منحها الاستعمار الإيطالي للشعب الليبي، وإنما جاء التتويج بما قدمه من أسباب أوصلته إلى نيل استقلاله الذي تفرد باتفاق جمعية الأمم دون غيره من القضايا رغم ما شابه من شوائب، وما حفه من مصائب، وما سبقه وتبعه من مناورات و ألاعيب، فالخطيب يحث إخوانه الليبيين على أن يولوا هذا الاستقلال كل الرعاية والحياطة حتى يرى النور ويسعد به أهله ويفرح به العرب والمسلمون في العالم، لأن استقلال ليبيا يعد فتحا جديدا للمسلمين لما لها من موقع هام في تاريخ الأمة الإسلامية يربط بين الشرق والغرب، بل تعد ممرا وجسرا يمر عليه الفاتحون ومواكب العرب والدعاة وغيرهم ممن ساهموا في بناء الحضارة الإسلامية في بلدان المغرب العربي ((لم تتفق جمعية الأمم على قضية مثلما اتفقت على استقلالكم على ما شاب ذلك الاستقلال من شوائب، وعلى ما حفه من مصائب، وعلى ما سبقه وتبعه من مناورات وألاعيب، فكل ذلك

---

[1] المصدر السابق ، جـ4 ، ص ، 267-268.
[2] المصدر نفسه ، جـ4 ، ص 239.

يشفع له أنه مولود، والمولود يولد ضعيفا ثم تقويه العناية والرعاية والحياطة والمحافظة وكذلك قال الناس عنكم وبذلك استقبلوا استقلالكم مع الرحمة بكم والإشفاق عليكم.

أيها الإخوان : فرح إخوانكم العرب والمسلمون باستقلالكم لأنهم يعدونه جزءا من استقلالهم أو تثبيتا له أو وسيلة لاستقلال غير المستقل منهم، بل لأنهم يرون فيه تحقيقا لأكبر حاجة في نفوسهم وهي الاتصال بين شرقهم وغربهم فقد كانت ليبيا –وما زالت- كما وضعها الله جسرا بين الشرق والغرب مر عليه الفاتحون من أسلافنا يحملون إلينا الهدى ودين الحق، ومرت عليه مواكب العروبة ممثلة في بني هلال بن عامر بن صعصعة يحملون إلينا الخصائص الجنسية والبيان، ومر عليه الدعاة إلى الحق من أئمة الدين، والحاملون للعدل والإحسان من الغزاة المجاهدين))[1].

فهذا الاستقلال منحة ربانية أريقت في سبيله دموع ودماء؛ لذا وجدنا الخطيب يقدم نصحا لحكومة ليبيا وملكها بان يولوا اهتماما بالغا لهذا النصر المبين وأن يقدروا ثمنه الباهض وأن يحذروا مزالق المعاهدات مع من لا عهد له، وأن يربطوا مستقبل الأجيال الصاعدة بإخوانهم العرب والمسلمين لا مع الآخر : ((فكان أول الواجبات على ملككم وحكومتكم أن يحافظوا على هذا الاستقلال وأن يقدروا الأثمان التي اشتري بها وأ يسوسوه بالحكمة والحذر، وأن يحفظوا ذمة الشهداء الأبرار من بنيه، وأن يرعوا حرمة ما أريق على جوانبه من دموع ودماء، وأن يديجوه على الذلل السماح من الطرائف، وأن يجنبوه وهو في خطواته الأولى مزالق المعاهدات مع من لا عهد له ولا ميثاق، وأن يربطوا مستقبله بالشرق لا بالغرب، وبالقريب لا بالغريب))[2].

لكن حدث ما لم يكن في الحسبان حيث تمت المعاهدة اللعينة مع الإنجليز الذي كان سببا في بلايا كثيرة من دول العرب والمسلمين.

وبمرارة يعود الخطيب إلى الحديث عن حقيقة استقلال ليبيا ويشرح بوضوح ماهية الإنجليز ذلك ما نقرأه في قوله : ((ولكنهم – مع الأسف- جاؤوه بالكفن وهو في ثياب العرس، وعرضوا النوائح في مواكب الفرح، وأرادوا أن يعالجوه من الفقر فعالجوه بالفقر ومعه الذل، وأن يداووه من الحمى بالطاعون، وقيدوه بقيد من حديد مع

---

[1] **المصدر السابق ، جـ4 ، ص 239.**

[2] **المصدر نفسه ، جـ4، ص 239.**

مستعمر عتيد وجبار عنيد وعدو لدود عرف بنقض العهود وتجاوز الحدود، ومع مفترس ما زالت أظافره حمراء من دماء المسلمين والعرب، وما زال واضعا قدميه النجستين على البقاع الطاهرة من أرضنا في (القناة) من مصر وفي (الحبانية) من العراق وفي (المفرق) من الأردن، وما زال ممتدا كالسرطان على الشواطئ الشرقية لجزيرة العرب، وما زال في السودان يماطل، بالوعد الباطل.

كل هذه الأوصاف تعبير لجنس اسمه الإنجليز، وكل تلك البلايا وأمثالها معها، شرح للمعاهدة التي تريد حكومة ليبيا أن تعقدها مع الإنجليز))[1].

الخطيب لم يهدأ له بال ولم يطمئن إلى هذه المعاهدة بالرغم من تقديمه النصح وشرحه لحقيقتها، إلا أنه لم يكتف بذلك، بل عاود النصح والتأكيد عليه شعورا منه بالمسؤولية إزاء الأمة الإسلامية جمعاء، لذلك وجدناه يعود مرة أخرى إلى الحديث عن المعاهدة مع الإنجليز محذرا منها يقول : ((أيها الإخوان الليبيون : إنها ليست معاهدة...إنها استعمار جديد أشنع من الاستعمار الإيطالي الذي بلوتم مره وعانيتم شره، إنها في مآلها تضييع للوطن واستعباد لبنيه .. إنها تمكين اختياري للعدو من رقابكم، إنكم ستصبحون بسببها غرباء في أوطانكم مستعبدين لأعدائكم .. إنها مكيدة خفيت حتى اتضحت، واستترت حتى افتضحت، ودبرت بليل لتغطية ما فيها من الويل))[2].

فأخذ العبرة درس عملي ينجي صاحبه من الوقوع في المهالك، لذا يلفت الخطيب انتباه إخوانه الليبيين إلى أخذ العبرة من إخوانهم المصريين الذين عانوا كثيرا ولمدة طويلة من العدو الإنجليزي، دون أن ينسى تذكيرهم وتحذيرهم من تلك المعاهدة التي ستكون وبالا عليهم وعلى جيرانهم في مصر ((أيها الإخوان : سلوا إخوانكم وجيرانكم في مصر ماذا لقوا من العدو الغادر في مدة سبعين سنة؟ سلوهم هل صدق له معه عهد أو بر له يمين؟سلوهم هل جلا عن أرضهم في المواعيد الكثيرة التي قطعها على نفسه بالجلاء؟ وهل وقف عند نصوص المعاهدات التي أبرمها ووقع عليها؟.

العاقل من اتعظ بغيره فاتعظوا ولا تقدموا على أمر فيه هلاككم وهلاك إخوانكم، فإن معاهدته معكم معناها الكيد لمصر وتطويقها

---

[1] **المصدر السابق ، جـ4 ، ص 240.**
[2] **المصدر نفسه ، جـ4 ، ص 240.**

فبينما تجاهد لإخراجه من القناة الضيقة إذا به يحادها بكم وبوطنكم الواسع الغني))[1].

إن تنفيذ تلك المعاهدة سيترتب عليها نتائج وخيمة على ليبيا وعلى العالم العربي والإسلامي، ذلك ما كان يخشاه الشيخ الإبراهيمي مما دفعه إلى الجهر بالقول محذرا من تلك المعاهدة المخسرة ومعلنا عما يحدث في البلاد من انقلاب شامل في كافة المجالات وهذا بعد سنوات قليلة حيث يتم فيها بيع الوطن كله، وشرف الوطن كله، وحرية الوطن كله.

الخطيب لم ييأس من نصح إخوانه الليبيين رغم ما يحدث في واقع الأمر من اتصالات وانقلابات بينهم وبين الإنجليز، ومع ذلك فهو يناشدهم ويدعوهم شعبا وحكومة إلى مراجعة أنفسهم إزاء هذا الاتفاق اللعين، وأن يعودوا إلى إخوانهم من العرب والمسلمين لاسترشادهم والاستعانة بهم وأن يتقوا الله ويتجنبوا حساب التاريخ ((أيها الإخوان : إننا نخاطب الليبيين، وأن حكامكم منكم فهم داخلون في الخطاب فليراجعوا بصائرهم وليرجعوا إلى أمتهم يستهدونها ويسترشدون بها، وإلى إخوانهم العرب يستعينون ويستنجدون بهم، وليخافوا عذاب الله وحساب التاريخ))[1].

أما العربي التبسي ففي خطاب له يوم افتتاح دروس المعهد الباديسي يتحدث بكل جرأة وصراحة عن موقف الاحتلال الفرنسي من الجزائريين كاشفا حقيقته ونواياه إزاء مقوماتهم الشخصية.

فالمحتل ينظر إلى الشعب الجزائري بأنه شعب من الدرجة الدنيا لا منزلة له بين الأمم ولا يستأهل العلم فلا حاجة له به، فإزاء هذا الموقف الظالم يتحدث الخطيب إلى الشعب يشعره بحقيقة منزلته بين الأمم قاصدا من وراء ذلك استنهاضه وشحذ عزيمته وفي ذات الوقت يحدثه عن قضية التعليم الذي هو حق من حقوقه الطبيعية التي حرم منها؛ إذ وقفت الإدارة الاستعمارية في وجه كل طالب علم بقطع الطريق أمامه بينما تنعم بنوره شعوب أخرى، يقول : ((نحن في ساعة لسنا فيها بالشذاذ ولا الغرباء، وإنما نحن في القافلة الإنسانية الكاملة، ولكننا نختلف عن هذه الأمم اختلافا جوهريا، لأن بيننا وبينها حواجز حصينة عميقة، سميكة : فالعلم عندها حق للشعب على الحكومة،ثم هو يتناول جميع الأفراد، فلا يقم اعتبارا لجنس أو لون أو دين، ولذا فهي

---

[1] المصدر السابق ، جـ4 ، ص 240.

[1] المصدر السابق ، جـ4 ، ص 240.

في مثل هذه الآونة تعد المدارس للأطفال، والمعاهد للشبان، والكليات لذوي الاختصاص. وكل واحدة من هذه المدارس تفيض على بني الإنسان بنوع من العلم المفيد، وأسلوب في التربية جديد.

هكذا تفعل الحكومات الرحيمة. فهي تلتفت في هذا اليوم نحو الشعب التفاتة الأم لأبنائها حين يمسهم الجوع. لأن العلم في مقدمة الحقوق الطبيعية للإنسان ما دام الإنسان هو العقل والفكر لا الجثة والحيوانية المطلقة))[1].

فالشعب الجزائري ابتلي بحكومة قاسية لا تعرف الرحمة أفسدت عليه دنياه وآخرته، حكمته بالنار والحديد والوعود الزائفة والتسلط على مقدساته التي استحوذت عليها جورا ولا تريد الخروج منها أبدا ((أما أنتم أيها الجزائريون فقد ابتلاكم الله بقسوة لا تعرف اللين، وشدة لا تعرف الرحمة، وجور لا يعرف الإنصاف، وحكام لا يحترمون الوعود.هذه الوعود الرسمية التي لم نر تحقيقها في يوم من الأيام فيما يتصل بالإسلام وشؤونه، والمسلمين ومعتقداتهم.

ومما أذكر في هذا السبيل من التصريحات الكثيرة كلمة للمسيو (ليونار) الوالي العام حين حضر لتوديع الحجيج في إحدى السنوات القريبة قال : ((إن فرنسا قد خرجت من الدين الإسلامي، وسلمت جميع ما يتعلق به إلى المسلمين الذين سوف يتمكنون منه واستبشر الناس بهذه الكلمة لأنها كلمة فرنسا على لسان ممثلها.

ولكن فرنسا لم تنفذ من هذه الكلمة الرسمية حرفا واحدا))[2].

إخلاف الوعود سمة من سمات الإدارة الاستعمارية في الجزائر فهي لا تولي أي اهتمام لوعد حتى وإن تعلق الأمر بمقدسات الأمة بل تستولي على مساجدها وأوقافها تتصرف فيها كما شاءت ، وهذا كله على حساب دين الأمة.((وإذن، ففرنسا لا زالت على جورها في هذه المساجد، لأنه ليس من وظيفتها ترميم المساجد، ولا إصلاحها، ولا تعيين أئمتها وهذا الصنيع من فرنسا يعد إيغالا في التدخل في شؤون الدين الإسلامي. وكل من سار وراءها في هذا السبيل يعد إما جاهلا بالإسلام، أو كائدا له، والجميع ليسوا إلا طلاب عيش، ولكن ليعرفوا أن التعيش على حساب الدين مر ومر جدا))[1].

---

[1] العربي التبسي ، مقالات في الدعوة إلى النهضة الإسلامية في الجزائر، ص 225.
[2] المصدر نفسه ، ص 225-226.
[1] المصدر السابق ، ص 226.

بعد هذا يعود الخطيب إلى الحديث عن الفارق بين الجزائريين والأمم الأخرى فيما يخص التعليم فيرجع ذلك إلى تدخل الحكومة في الدين الإسلامي مستغلة ضعف الأمة ((أيها المسلمون الجزائريون، إن من أبرز الفوارق بينكم وبين أفواج المتعلمين من أمم الدنيا هو وجود الحكومة في دينكم، ووجودها في الإسلام دون سواه من الأديان، ظلم وأي ظلم، وأن من ظلمكم في المحراب لا ينتظر منه أن ينصفكم في أي باب))[2].

فضعف الأمة أمام الحكومة وقوتها المادية هذا لا يعني أن لا حق في خيراتها ومساجدها التي أخذت منها عنوة بمساعدة أولئك الذين استجابوا لضغوطاتها واستسلموا لإرادتها ((ولئن ضعفنا أمام الحكومة وقوتها المادية، فإن حقنا لقوي، ولئن أقصينا عن مساجدنا – ونحن أولى بها- فالمسؤول عن هذا الإقصاء ونتائجه القريبة والبعيدة هم الأئمة والمصلون وراءهم وإن قلوا، لأن تربية فرنسا هي التي أوجدت مثل هذا اللون، وواقعها الحاضر هو الذي شجعهم وألزمهم بهذا الموقف)) [1].

كان من واجب الحكومة بتوليها زمام الأمور أن تحفظ المجتمع من الآفات الاجتماعية وتقف على العلم والتعليم لكن ظهرت بوجه مغاير تماما، فقد تسلطت على المساجد التي تعد مدارس للإنسانية فعطلت دورها الرسالي مما أثر سلبا في واقع المجتمع الجزائري ((...الاعتداء المسلط على هذه المساجد التي كانت مدارس للإنسانية جمعاء هو المانع الأكبر، والمعتدى على المساجد معتد على فعل الخير، لقد كان ينبغي للحكومة أن تعالج الأمراض الاجتماعية وتنشر العفاف، وتحارب الفجور، فهل قامت بواجبها في هذا السبيل؟ لا.))[2].

فالخطيب إزاء هذا الاعتداء الظالم على مساجد الأمة قد بلغ به الأمر مبلغه، مما دفعه إلى تحريض الشعب بعدم السكوت عن هذه الجرائم المنكرة في حق مساجدهم ويدعوهم إلى أن يكونوا مثل أسلافهم في القيام عليها، وأن لا يولوا أي اهتمام للحكومة فهم ليسوا أتباعا لها لأن فرنسا ترى أن لا حق للمسلمين الجزائريين فيما للشعوب الأخرى. فهذا الموقف من فرنسا دفع بالشعب الجزائري إلى عدم التأييد للإدارة الاستعمارية، والتشبث بدينه الذي يرى فيه

---

[2] المصدر نفسه ، ص 226.
[1] المصدر السابق ، ص 226.
[2] المصدر نفسه ، ص 227.

الخلاص من كل ما ألم به من مصائب الاستعمار.((وهل نسكت نحن؟ لا. إننا من أتباع محمد لا من أتباع الحكومة التي ترتزق من هذه الجرائم، وأن أوائلنا لم يتركوا المدرسة الإنسانية مجردة من المدد. بل كانت وما تزال غنية في جميع بلاد الله إلا في شعب تحتله فرنسا. وقد انقلبت فرنسا (العادلة) إلى وحش في معاملة الشعب الجزائري، ونحن نقول لفرنسا (الميزة) التي لم نعرف منها إلا الشر، كوني عاقلة معنا، فإننا لم نستطع أن نفسر احترامك للإسلام. ألا أن الحق الذي لا نقدر على السكوت عنه : أن فرنسا تسير مع الأيام سيرة واحدة تتلخص في أنه لا حق للمسلمين الجزائريين فيما للشعوب. فكفر بالشعب الجزائري أن يؤيد فرنسا في هذا السبيل، وكفر بالشعب الجزائري أن يشح بماله على الإسلام وهو يعلم أن الإسلام يربي الإنسانية على مكارم الأخلاق.))[1].

فالانبعاث والتخلص من أغلال الاستعمار حياة للأمة، وذلك كان مطلب الشيخ العربي التبسي، لذا وجدناه يخاطب الشعب ويدعوه إلى مواجهة الواقع والتحرك من أجل تغييره لأن الحياة التي ارتضاها له الاحتلال لا تطاق ((فانبعث أيها الشعب من المقبرة التي وضعك فيها الظالمون الذين أبعدوك عن العلم حين أرادوا إبعادك عن الإنسانية. وأبعدوك عن الدين حين أرادوا أن يجردوك من كل حق، وأبعدوك عن الله حين فصلوك عن المسجد.))[2].

إن حياة الذل وخنق الحريات الموت أهون منها، فالأمة المحرومة من اختيار إمامها والمبعدة عن مساجدها أمة ميتة، وذلك ما كانت تسعى إليه الإدارة الاستعمارية تحقيقه في واقع المجتمع الجزائري لكن ما دام عرق حي ينبض بالحياة في هذا المجتمع والمتمثل في جمعية العلماء المسلمين الجزائريين فإن الاستعمار إلى زوال وأن الله وراء كل ظالم ((وأن أمة لا تختار إمامها الديني، ولا تملك حق التعبد في مساجدها لهي امة غائبة عن الوجود. وأن من يبعد جماعة المسلمين عن مساجدها جائر ظلوم والله وراء كل ظالم، وهو القادر على قصم ظهور الظالمين.وأن من يخشى في الله غيره ويفرق جمعية العلماء، ويجامل هؤلاء المعتدين، لا يساوي عند الله جناح بعوضة))[1].

---

(1) **المصدر السابق ، ص227-228.**

(2) **المصدر نفسه ، ص 228.**

(1) **المصدر السابق ، ص 229.**

فالشيخ العربي التبسي يكرر النداء في الجزائريين موضحا موقف فرنسا من مقوماتهم الشخصية التي تسعى جادة إلى القضاء عليها بدءا من اللغة إلى الدين لكن أنى لها ذلك لأن الإسلام دين الله والعربية لسانه. فهنا نلحظ مدى ثقة الخطيب بالله مهما تسلط العدو واستكبر فإنه إلى زوال وأن النصر آت لا محالة ((أيها المسلمون الجزائريون : إن فرنسا لم تتركنكم أمة حين نزعت منكم اللغة واحتلت منكم الإسلام وما فيه، فلم تقبض عليه لإحيائه، وإنما قصدت بذلك إلى التعفية على معالمه، ولكنها مغلوبة ومحكوم عليها سلفا بالهزيمة، لأن الإسلام دين الله، والعربية ترجمان السماء إلى الأرض))[2].

فالموقف الذي وقفه الخطيب إزاء الحكومة موقف شجاع وواضح، فهو يحملها تبعات كل ما يحدث في الجزائر من مظالم وتهديم وتعطيل لأسباب البناء الحضاري الذي أضر بالجزائر كما أضر بفرنسا نفسها لكن الحكومة لم تستجب لهذه التحذيرات فهي دوما على موقفها إلى آخر أيام وجودها ((ومن عجب هذه الحكومة أنها تترك للوارث استغلال التركة التي خلفها مورثه. ونحن ورثنا من أوائلنا مساجدنا وأحباسنا فمنعتنا من الانتفاع الشرعي بها، ولو أن هذه التركة التي نستحقها وحدنا كانت بأيدينا لما جهلنا ذلك الجهل الذي أضرت به فرنسا نفسها كما أضرت الجزائري الذي وضعته الأقدار معها. ولكن كل الأمم تتأثر بالزمان وما يجد فيه من تطورات إلا فرنسا في معاملة الإسلام فهي دوما إلى آخر أيام وجودها))[1].

وفي خطاب له أيضا بمناسبة الاحتفال بختم الدروس في معهد عبد الحميد بن باديس يسجل موقفه السياسي إزاء الإدارة الاستعمارية التي ظلمت الشعب في ميراثه باغتصاب أحباسه وانتهاك مساجده وهيأت له كل أسباب انتشار الفساد حتى تجعله مقطوع الصلة بإسلامه وعروبته ويتسنى لها استغلاله. لكن شاء الله أن لا يتحقق لها ذلك فخاب سعيها وبطل مرادها ((...ولكن الظلم غصب منها الميراث الذي يضمن لها الحياة رجاء ألا تحيا.

غصب منها الأحباس، وافتك المساجد، وحكمها حكما مباشرا وسلب منها مزايا العلم، وحكمة العقل، وقوة الأخلاق، وهيأ الأسباب لانتشار الجهل وفساد الأخلاق، والقطيعة، والتخاذل، لكن شاء الله –

---

(2) المصدر نفسه ، ص 230.

(1) المصدر السابق ، ص 230.

ومشيئته فوق مشيئة كل باغ جبار- ألا يتم للظالمين ما أرادوا، فخاب سعيهم وطاش سهمهم، ورد كيدهم في نحورهم))[2].

رغم مكائد الظالمين فإن الأمة استجابت لربها واتبعت خطوات علمائها فتم إنشاء المساجد الحرة وبناء المدارس التي كانت سببا رئيسا في بناء الشخصية الجزائرية التي كانت عرضة لاستهانة الظالمين واحتقار لها ((لقد عدنا إلى المساجد، فظهر بالجزائر المسجد الحر، وأنشأنا المدارس، وأقبلنا على التآلف، وجنحنا إلى الأخلاق الفاضلة، وقالت الأمة قولا يصدقه الفعل : إذا لم تكن حكومة فأنا الحكومة وهذا المال، فلتكن المدرسة، وهاهم الأبناء، فليكن التلميذ، ومن هؤلاء الفقراء المستضعفين –الذين يسميهم الظلم استهانة بشأنهم واحتقارا لهم أنديجان- أنشأت المدارس فبلغت اليوم إلى نحو 150 مدرسة، وعمرت بنحو 40 ألف تلميذ.

ولقد حاربت قوانين الظلم وإدارة الطغيان المدارس، والدين، واللغة، وقصدها من ذلك أن تهدم منا العزم، وأن تنفر منا الغني، والقائد، والباشاغا، والموظف، ولقد وصلت إلى بعض غرضها في غير فل للعزيمة الصادقة. وما بقي هنا ومعنا إلا أهل الله، أهل الجنة إن شاء الله))[1].

فأمام هذه المظالم المتكررة والمكائد المفضوحة من قبل الدولة وجدنا الخطيب يرفع صوته في وجهها ويفضح تصرفاتها المشينة إزاء حرية الأمة وحقها في الحياة ((فهل رأيتم من دولة في أمم من أمم الأرض تزعم أنها دولة العلم و النور والحق والعدل، تكره العلم والثقافة، وتحاربهما وتفسح المجال لفساد الأخلاق والجهل، وتؤيدهما؟ تحاد الدين، وتحرم وسائل الحياة على شعب يتطلع إلى حقه في الحياة مثل هذه الدولة. والحق ، أن هذه الدولة اقترفت في (العصر) الحديث ما لم يقترفه فرعون في القديم))[2].

إن فرنسا تريد وصايتها على الشعب الجزائري وترى أن لا حق له في اختيار نمط حياته فهي التي تختار له كيف يعيش لذلك كثيرا ما تمن عليه بما تقوم به من أعمال هي في حقيقتها لا ينال منها الشعب الجزائري إلا التعب والشقاء، وهذا جعل الخطيب يتساءل مستنكرا قول فرنسا عما قدمته من خير للأمة، فالأمة لم تر إلا

---

[2] المصدر نفسه ، ص 192.

[1] المصدر السابق ، ص 192-193.

[2] المصدر نفسه ، ص 193.

الحسرة والألم وهذا لا يستوجب الشكر والعرفان بل الثورة والانتقام ((وإذا كانت أعمال فرنسا من إصلاح الأراضي وزراعتها وغراسة الأشجار، وبناء القصور والفلات، وإنشاء الأحياء العصرية، والقرى المثالية، وتعبيد الطرقات، أعمالا لها.

فكل ذلك احتكار لأبناء فرنسا، أم متبنيها من مختلف الشعوب والجنسيات. وقد استلب كله من أبناء الشعب، ولا ينالهم منه اليوم إلا العمل الشاق سخرة، ثم لهم الحسرة و الألم.

أفبمثل هذا تمن علينا فرنسا؟ إننا لو وجدنا أن هذه الدولة عملت معنا (قراما) واحدا من الخير لكنا أول المعترفين به، وإننا لنتحداها أن تعمل للأمة ولو (قراما) واحدا من الخير.فإنها ستجد منا –حينئذ- ألسنة لاهجة بذكره، والتنويه به.

أما أن يساء إلينا، ثم يطلب منا الشكر في مقابلة الإساءة.فهذا غير معقول))[1].

الخطيب يستمر في تساؤلاته واضعا الإدارة الاستعمارية أمام الأمر الواقع فهي لم تحترم القوانين بل تجاوزتها إلى قوانين استثنائية مما أتاح لها تعذيب الناس والاعتداء عليهم وعلى مقدساتهم، ولم تقف عند هذا الحد بل تجاوزته إلى تكميم الأفواه وخنق الحريات متجاهلة كل القوانين التي أباحتها حكومات العالم، وألزمت الأمة بما تفرضه من قوانين حتى في أمورهم العقدية، ناهيك عن الاحتقار والتهميش ((أين هذه القوانين التي يشيعون ذكرها؟ ويفخرون بها أمام العالم، ويزعمون أنهم أهدوها للأمم.إن العذاب الذي يذوقه الإنسان على أيديهم لم تذقه الإنسانية في أي عصر من العصور على يد واحد. إن الإسلام لم يعاد فرنسا. ولكن فرنسا هي التي تعادي الإسلام.

أين منا أبسط الحريات التي أباحتها حكومات العالم ونصت عليها مواثيق حقوق الإنسان؟ وضمنها الدستور الفرنسي نفسه. ومنها حرية الديانة. إننا ملزمون من حكومة (جوان) حكومة فرنسا. أن نصلي وراء جواسيس، إن أئمتنا نوع من البوليس. يتكلم باسم الدين. وإننا لم نتكلم عن السياسة إلا من حيث اتصالنا بها.

لقد وجدناهم يحتقروننا أينما ذهبنا. التجأنا إلى الإدارة الجزائرية إلى حكومة فرنسا إلى مجالسها التشريعية، إلى هيئاتها السياسية ، ثم إلى المجلس الجزائري فلم يغن كل ذلك شيئا))[1].

---

[1] **المصدر السابق ، ص 194.**

[1] **المصدر السابق، ص 194-195.**

فكل تلك المظالم مردها الأساس إلى تدخل الإدارة في دين الأمة قصد إذلال المسلمين وتعطيل دورهم الحضاري، فاستوجب ذلك سخط كل مسلم على فرنسا ((إن نكبة النكبات ورأس البلايا إنما هو تدخل الإدارة في الدين، واحتلالها لمساجد المسلمين. إن وجود الحكومة في المساجد إنما قصدت به إذلال روح الإسلام، فمن حق كل مسلم أن يسخط على فرنسا))[2].

إن تدخل فرنسا في دين الأمة والاحتلال لمساجدها وتعطيل دورها الرسالي جريمة نكراء لم ترتكبها أي حكومة في الدنيا، وهذا ما أدى إلى عدم التفاهم أبدا بينها وبين الشعب الجزائري الذي بالغت في احتقاره والسخرية منه وجعلت دينه طرائق قددا علما بأن الإسلام بريء من كل ذلك ((لا مفاهمة بيننا وبين فرنسا ما دامت مساجدنا محتلة، وإننا لنرى أنها ارتكبت ما لم ترتكبه حكومة في الدنيا، فلا روسيا، ولا انقليترا، ولا إيطاليا، ولا إسبانيا، ولا حتى الحبشة احتقرت الإسلام، وعاملت مساجد المسلمين مثل احتقارها، ومعاملتها. فهي التي منعتنا من الجمعة وحالت بيننا وبين الجماعة. إن الحكومة لا تصلح للإمامة، لا إمامة الإسلام، ولا إمامة المسيحية.

ولقد رأيناهم كلما أرادوا أن يسخروا منا أسسوا لجانا، وهذه اللجان عبارة عن أوراق مهيأة في مكتب الوالي العام، يخرجها كلما أرادها، ولا يمكن أن يأتي منها غير ما يريده، ثم كان بحث هذه اللجان عجبا، فقد جعلت الإسلام طرائق قددا ، دين طرقيين، ودين علماء، ودين حكوميين، لا طرقية، ولا علماء، ولا حكومية في الإسلام))[1].

أمام هذا الموقف الجائر من الإدارة الاستعمارية وقف الشيخ العربي التبسي وقفة كلها ثقة وتحمل للمسؤولية يدعوها بحق وبقوة إلى الرحيل من المساجد ، حاثا الشعب إلى السعي من أجل استرجاعها ((إننا ندعو الحكومة بحق وبقوة إلى الرحيل من المساجد، وإنه لمن الواجب أن يكون للمساجد ضحايا من المنكوبين والمساجين، إن المناصب الدينية كلها مغتصبة منا ، فلنسع لاسترجاعها))[2].

بعد هذا الموقف السياسي الحازم من الخطيب يعود إلى نقد الحالة التي أصيب بها واقع المجتمع الجزائري من جراء ضغوطات و ظلم الإدارة قصد تغييره . فيوجه كلامه إلى الأئمة و المفتون و عامة

---

[2] المصدر نفسه ، ص 195.
[1] المصدر السابق، ص 195-196.
[2] المصدر نفسه ، ص 196.

المصلين يدعوهم إلى التحرر من قبضة العدو و عدم الاستسلام له بل يجب أن يرتبطوا بدينهم لأن في ذلك خلاصا لهم مما هم فيه ، كما يوجه نقده إلى المجلس الجزائري الذي لم يحرك ساكنا إزاء اغتصاب مساجد الأمة ، فهو مجلس زائف بئيس و فرنسا تعلم ذلك ، لذا ينبغي على الأمة أن تتحلى بالعزيمة القوية والسعي الجاد لاسترجاع ما أخذ منها بالقوة ، وتحمل فرنسا على عدم احتقار دينها ((إن أئمتنا ومفتونا اليوم من أتباع (البريفي) وليسوا من أتبعاع محمد، ولاشك أنهم ناقصو آداب وهم وسادتهم يعلمون ذلك، وإلا فكيف يرتبطون (بالبريفي) ولا يرتبطون بالمصحف.

ولو وجد من يعبد الله حقا لما دخل مسجدا يعلم أنه إمامه (بوليسي) يتكلم باسم الدين، ورجال الإدارة من (قياد وباشغوات) يغلطون الأمة، ويحولون بينها وبين الحقيقة وإلا ما كان في الأمة من يدخل المسجد .

إن المجلس الجزائري مجلس زائف ، الأمة كلها تعلم أنه زائف.والحكومة قبل غيرها تعلم أنه زائف، فلا حكومة فرنسا ، ولا إدارة الجزائر، ولا حتى هذا المجلس البئيس يرجع إلينا مساجدنا، وإنما يرجعها إلينا عزمنا على أخذ حقنا، وعزم فرنسا على عدم احتقار الإسلام والاستهتار به والسخرية من أهله))[1] .

و من المواقف السياسية التي وقفها رجال الإصلاح في الجزائر أيام الاحتلال الفرنسي نجد أيضا موقف الشيخ محمد خير الدين من خلال خطابه الذي ألقاه بمناسبة افتتاح مسجد بني صاف يطالب فيه بحقوق الشعب الجزائري مستنكرا منا لحقه من مظالم جراء تعسف الإدارة الاستعمارية في سلوكها مما سبب أضرار بليغة لحقت به في جميع نواحي حياته .

فالخطيب يرفع صوته في وجه الحكومة متحديا تسلطها ومحتجا على موقفها إزاء مقدسات الأمة ومقوماتها الشخصية مبينا حقيقة الاستعمار وما يفعله بالمستضعفين دون أن ينسى التذكير بأهم عامل من عوامل الثبات أمام كل التحديات وهو الثقة في الله التي تعد الباعث الوحيد للأمل والنصر الذي لا محالة آت وهذا وعد من الله لعباده المؤمنين((وإني باسكم أحتج وأسجل احتجاجي أمامكم على احتقار ديننا ولغتنا، وأحتج على استيلاء الحكومة على مساجدنا واستبدادها بها .

---

(1) **المصدر السابق ، ص 196 - 197.**

و أحتج على احتقار لغة القرآن و لغة المدنية ، فقد أصبحت أجنبية فلا تكتب على مركز و لا تعتبر اعتبار اللغات المتمدنة . و إنني إذ أحتج أرفع احتجاجي إلى الله ، و لنا وطيد الأمل في النصر لأن وعد الله حق و ما قاله القرآن صدق ، ولينصرن الله من ينصره))[1].

ومن المواقف السياسية الحرة إزاء الإدارة الاستعمارية نجد أيضا موقف أحمد توفيق المدني يوم ألقى خطابه بالمسجد الحنفي بعاصمة الجزائر يخاطب فيه ضمير الأمة الحي قصد العودة إلى الذات والنهوض في وجه هذا الاستعمار المسلط على الأمة بمظالمه المتكررة واعتداءاته المنكرة ،حيث سلب الشعب كل حقوقه و أصبح عند المستعمرين لا مكانة له بين الشعوب الأخرى ينعتونه بشتى الألقاب استهزاءا به واحتقارا له حتى أوصلوه إلى أقذر دركات الذل و المهانة ((إن هذا الاجتماع و هو الأول من نوعه يقع في ساعة سلط فيها الاستعمار سوط نقمته و عذابه على الشعب الباسل البطل، فالحقوق الإنسانية اضمحلت و الأرض انتزعت من أصحابها، وأبواب الكسب الشريف أوصدت في وجه عموم الجزائريين، وأصبح اسمهم عند المستعمرين (البيكو) و(الترون دي فيقي) أي سيقان أشجار التين، وأصبحنا نرى جهات من الوطن مكتوبا علينا دون حياء أو خجل : ممنوع دخول العرب والكلاب. لقد أصبحوا في بلادنا، بلاد بني رستم و بني حماد وبني زيان، و بني عثمان، وعبد القادر والمقران، أصبحوا كل شيء، وأصبح الجزائريون لا شيء، لقد وصلتم إلى أقذر دركات الذل والمهانة مع هذا الاستعمار الفظيع))[1].

فهذا الاستعمار الذي أوصل الشعب الجزائري إلى أسوء الحالات يدعوه إلى الاندماج حتى يتخلص من هذه الحالة البئيسة، لكن هذه حيلة ماكرة لا تنطلي على عقلاء الأمة ما دفع بالأستاذ أحمد توفيق المدني إلى التحذير من مغبة الإدماج والانسلاخ من مقومات الأمة لأن ذلك يورث الندامة و الخسران ((يقولون لكم قولا كذبا و بهتانا : من أجل الخروج من هذه الحالة يجب أن تتفرنسوا وتدخلوا العائلة الفرنسية الكبرى. وهذا كذب ونفاق، ودجل وتضليل .

---

[1] محمد خير الدين ، مذكرات ، مطبعة دحلب، حسين داي، الجزائر، جـ1، سنة 1985م، ص 204.

[1] أحمد توفيق المدني، حياة كفاح ، مذكرات ، القسم الثاني ، ص 76.

فالفرنسيون لا يقبلوكم إطلاقا ولا يرضون أن تزاحموهم في ميادين الحكم والثروة ، ثم إن من تفرنس وأضاع دينه وشرفه، وتنكر لمجد آبائه وأجداده، خسر دينه ودنياه ، وألف طبقة جديدة من الناس، ينكره قومه وينكره الذين ادعى الانتماء إليهم))[1].

إن الدفاع عن مقومات الأمة والاعتزاز بها هي سر البقاء والثبات أمام ضغوطات العدو ومظالمه، لذلك وجدنا الخطيب يذكر الشعب الجزائري بماضيه المجيد وأنه ليس وحده الذي وقع عليه الاحتلال فالواجب عليه الرجوع إلى الذات والانطلاقة الجادة معتمدا على ثوابته الوطنية لاسترجاع مكانته وحريته المسلوبة ، قول : ((أنتم أمة عظيمة ، وكنتم دولة محترمة، و لستم وحدكم الذين وقع عليهم الاحتلال، فالتفوا حول أنفسكم واعتمدوا على سواعدكم واعتصموا بالإسلام دينا جامعا طاهرا نقيا وبالوطن الجزائري وطنا للأحفاد كما كان وطنا للجدود و باللغة العربية ، لغة القرآن الطاهر لسانا قوميا يجمع بين أبناء الوطن .إن من اعتمد على غيره دون نفسه كان كمن أراد مقاومة الدهر دون سلاح))[2].

وأخيرا ينهي الخطيب كلامه بالتأكيد على ثوابت الأمة وأنها طريق الخلاص وسبب رئيس في دك حصون و قلاع الاستعمار الجاثم على أرض الجزائر ((أيها القوم : الدين، الوطنية، اللغة العربية، الاتحاد الإسلامي بين كل الطبقات، هذا هو طريق خلاصكم، هذا هو الذي يحطم شبكة الاستعمار التي تحيط بكم من كل جانب))[1].

و في موقف سياسي آخر لتوفيق المدني يقف في وجه دعاة السوء من المستعمرين و أتباعهم المتخاذلين الذين يعملون من أجل إيقاع الأمة في الكفر و التبعية والاندماج و إلى كل ما يضعف و يوهن شبكة علاقاتها الاجتماعية .

فالخطيب إزاء هذا الموقف من العدو وجدناه يناشد الأمة أن لا تخيب آماله ويحذرها في ذات الوقت من مغبة السقوط في حبائله ويدعوها إلى الانتفاض والنهوض والعمل الجاد من أجل توحيد الشمل وترتيب الصفوف والمواجهة الصادقة حتى يتحقق النصر ((إن دعاة السوء يسوقنكم اليوم إلى كفر بالله، وكفر بالوطن، وكفر بالتاريخ، ويسوقونهم إلى ميدان التجنس بجنسية الغالبين ، يسوقنكم إلى الاندماج

---

[1] المصدر السابق، القسم الثاني، ص 76.
[2] المصدر نفسه ، القسم الثاني، ص 76.
[1] المصدر السابق، القسم الثاني ، ص 77.

يسوقنكم إلى التلاشي والاضمحلال .يسوقنكم إلى جنس غير جنسكم، ودين غير دينكم، ووطن غير وطنكم، و لغة غير لغتكم .ناشدتكم الله و ناشدتكم التاريخ و ناشدتكم الأرحام، خيبوا آمالهم و انبذوا دعوتهم .فما رأينا في التاريخ مغلوبا اندمج في غالب، ولا رأينا في التاريخ وطنا اندمج في وطن بعد الدماء والدمار والملاحم البطولية والأعمال التي تكاد تكون من أساطير الأولين .

أفيقوا فكفاكم مناما، واعملوا فكفاكم تقاعسا، اجمعوا شملكم.رتبوا صفوفكم خططوا مناهجكم، وكونوا رجالا، بل كونوا أبطالا، فأبطال عمل اليوم هم خميرة أبطال الغد و لينصرن الله من ينصره))[1].

وهذا مصالي الحاج يلقي خطابا بالملعب البلدي بالعاصمة الجزائرية غداة عودة وفد المؤتمر الإسلامي من باريس سنة 1936 م يبين فيه موقفه إزاء ميثاق المطالب المقدمة إلى الحكومة، وقبل ذلك ينتهز فرصة اجتماع الناس ليحدثهم عن دور ونشاط منظمته (نجم شمال إفريقيا) في الدفاع عن مصالح الشعب الجزائري، يقول : ((... سأغتنم هذه الفرصة التي اجتمعتم فيها بكثرة ، بل بالآلاف ، لكي أذكر لكم بعض التفاصيل عن الدور الذي لعبه ، و من الواجب علي أن أقول بأن المعركة كانت صعبة ومريرة))[2] .

الأوضاع في البلاد كانت معقدة تمر بظروف استثنائية تعاقبت عليها حكومات أكثر رجعية كممت الأفواه و خنقت الحريات، لكن هذا لم يوهن من عزيمة المنظمة ويسكتها ، بل رفعت صوتها عاليا متحدية السلطة تدافع عن حقوق الشعب الجزائري، مما عرض مناضليها لمشاق انتهكت قوى الكثير منهم ((و تحت حكومات من أكثر الحكومات رجعية ، و في الوقت الذي كان فيه كل الناس في بلادنا صامتين، وتحت حكم استثنائي، كان نجم شمال إفريقية هو الوحيد الذي تجرأ على رفع الصوت للاحتجاج ضد كل سوء استعمال للسلطة، والظلم والإجحاف، و ليقول أمام العالم أن الجزائر لم تمت، وأنها بإرادة أبنائها تريد أن تعيش حرة وسعيدة ، وهذه الجرأة هي التي

---

[1] المصدر السابق، القسم الثاني ، ص 44.

[2] د.أبو القاسم سعد الله ، الحركة الوطنية الجزائرية (1900-1930)، جـ3، ص 279 ، 280.

جرت على مناضلي النجم المشاق التي لا مثيل لها كما جرت عليهم أكثر أنواع الحقد عنصرية))[1].

فالمتاعب والضغوط التي تعرض لها مناضلو نجم شمال إفريقية من قبل الإدارة الاستعمارية كثيرة منها السجن والتغريم والنفي وسلسلة من الإجراءات التعسفية قصد كبح جماع الناشطين منهم ((لقد صدرت بحقنا أحكام بالسجن لمدة سنوات ، مع التغريم بآلاف الفرنكات، وقد عرفنا النفي والتهجر، ولم يسلم أحد خلال هذا الكفاح .. وحتى اليوم، وتحت حكومة الجبهة الشعبية مازلنا نتعرض لسلسلة من الإجراءات الخاصة والقوانين الاستثنائية، في قلب باريس. وهي إجراءات و قوانين لا تستعمل إلا ضدنا نحن فقط))[2].

قد توالت المتاعب على المنظمة و كثرت الاتهامات المغرضة لها لكن لم يجد ذلك نفعا في عزيمة رجالها المخلصين لمبادئها التي تحملوا من أجلها كل المشاق خدمة للشعب و من أجل أن تحيا الجزائر حرة و مزدهرة و متعلمة ((ومن أجل هذا اتهمونا أكثر من مرة بكوننا شيوعيين، ووهابيين، وعملاء ألمانيا، وعملاء موسكو، وغيرهما من البلدان.و نحن نقول لكم بأننا لم نكن عملاء لا لهؤلاء ولا لأولئك، لأننا كنا ومازلنا وسنظل دائما عملاء وخدمة للشعب الجزائري .لقد عزمنا على تحمل كل التضحيات من أجل أن تكون الجزائر حرة و مزدهرة و متعلمة))[1].

إلى جانب كل هذه الضغوط التي تعرض لها رجال المنظمة :إلا أنهم لم يستسلموا للأمر الواقع،فالخطيب يخبر بأن تلك الإجراءات الظالمة لم تثن من عزائمهم بل مازالوا يطالبون بحقوق الشعب الجزائري أمام المسؤولين ((ونخبركم بأننا أيضا كنا في وزارة الداخلية وأننا قدمنا إلى السيد(راوول أوبو)نائب كاتب الدولة، قائمتين بالمطالب إحداهما تخص الجزائريين المقيمين في فرنسا والأخرى تخص الشعب الجزائري))[2].

ويخبر الخطيب : أيضا عن موقف المنظمة من انعقاد المؤتمر الإسلامي في الجزائر إذ يظهر التأييد للمؤتمر الذي يراه بداية تحول في تاريخ الجزائر كما يوافق على المطالب التي قدمت إلى الحكومة،

---

[1] المرجع السابق، جـ3، ص 280.
[2] المرجع نفسه ،جـ3 ، 280.
[1] المرجع السابق، جـ3 ، 280.
[2] المرجع نفسه ، جـ3 ، ص 280.

لكن فيما يتعلق بخصوص ميثاق إلحاق الجزائر بفرنسا وبخصوص التمثيل البرلماني كان الموقف واضحا صريحا لا يقبل التراجع أبدا، وهو أن المنظمة تتبرأ من ذلك ((ونخبركم أيضا بأننا علمنا وسررنا بانعقاد المؤتمر الإسلامي الذي انعقد في بداية جوان بالعاصمة الجزائرية وقد أيدناه رغم أننا لاحظنا عليه الضعف والتسرع.ومنذ وصول الوفد الجزائري (إلى باريس) المنبثق من المؤتمر سارعنا إلى تحيته والاتصال به وتبادل الآراء معه حول مشكل بلادنا.ورغم موافقتنا وتأييدنا بل وتهنئتنا لمنظمي المؤتمر، الذي سيكون نقطة تحول في تاريخ الجزائر، فإننا نقول لكم بصراحة بأنه يجب علينا اليوم أن نقدم لكم توضيحات نراها ضرورية ،حقا إننا نوافق على المطالب التي قدمت إلى حكومة الجبهة الشعبية، وإننا سنؤيدها بكل قوانا حتى نراها منجزة ..

و هنا التزام باسم منظمتي و أمام الشيخ الجليل ابن باديس أن أعمل كل ما في وسعي لتأييد هذه المطالب و لخدمة القضية النبيلة التي ندافع عنها جميعا ، لكننا نقول صراحة و بشكل لا يقبل التراجع بأننا نتبرأ من ميثاق المطالب بخصوص إلحاق بلادنا بفرنسا و بخصوص التمثيل البرلماني))[1].

فإلحاق الجزائر بفرنسا في حقيقة الأمر كان بسبب الغزو و الاحتلال و الشعب لم يوافق عليه أبدا بل فرض عليه ذلك عنوة . أما ما نص عليه ميثاق المطالب في شأن الإلحاق الممثل من قبل إجماع الشعب الجزائري ففرق بينه و بين الإلحاق المفروض.غير أن الخطيب يقف موقفا واضحا إزاء هذا الشأن و يرفضه رفضا مطلقا و لم يقبل أن يراهن بمستقبل الأمة الذي هو أملها في الحرية و الانعتاق ((و الواقع أن بلادنا اليوم ملحقة بفرنسا إداريا و هي تابعة لسلطتها المركزية و لكن هذا الإلحاق كان نتيجة غزو فظيع، تلاه احتلال عسكري يقوم اليوم على الفيلق التاسع عشر من الجيش.لكن الشعب لم يوافق عليه أبدا .

أما الإلحاق الذي نص عليه ميثاق المطالب فهو مطلوب إداريا باسم مؤتمر يقولون عنه أنه يمثل إجماع الشعب الجزائري.ومن ثمة فهناك فرق أساسي بين إلحاق لبلادنا حصل رغم إرادتنا وإلحاق إرادي مقبول عن طيب خاطر في المؤتمر الذي انعقد في السابع من جوان بالجزائر العاصمة .

---

[1] المرجع السابق، جـ3 ، ص 281.

(وهو المؤتمر الذي ... في ثلاث ساعات فقط) إننا أيضا أبناء الشعب الجزائري ولن نقبل أبدا أن تكون بلادنا ملحقة ببلاد أخرى رغم إرادتها.فنحن لا نستطيع مهما كانت الظروف،أن نراهن على المستقبل الذي هو أمل الحرية الوطنية للشعب الجزائري))[1]

فالمستقبل ملك للأجيال الصاعدة فهي وحدها تملك تقرير مصيرها إزاء شأن الإلحاق، أما عن التمثيل البرلماني فالخطيب يرفضه و يرى أن يحل محله برلمان وطني جزائري يرعاه الشعب ومن أجل الشعب حتى يتسنى له التعبير عن نفسه بصراحة بعيدا عن كل الضغوط الإدارية ((إن هذا المستقبل يخص الجيل الصاعد، فهو وحده الذي يملك حق تقرير مصيره وقدره، ونحن أيضا ضد التمثيل البرلماني لأسباب عديدة .إننا نؤيد إلغاء الوفود المالية، ومنصب الحاكم العام، و نقف مع إنشاء برلمان جزائري منتخب عن طريق الاقتراع العام بدون تمييز بالعنصر أو بالدين .

إن هذا البرلمان الوطني الجزائري الذي يتكون في عين المكان سيعمل تحت مراقبة الشعب مباشرة ومن أجل الشعب.ونحن نعتقد،من جهتنا بأن هذه هي الوسيلة الوحيدة التي تسمح للشعب الجزائري أن يعبر عن رأيه بحرية و بصراحة بعيدا عن كل الضغوط والمناورات الإدارية ...))[2].

فهذه النماذج الخطابية ذات الطابع السياسي التي سقناها ، نحسب أنها قد أعطتنا صورة واضحة عن حقيقة تلك المواقف السياسية التي وقفها رجال الإصلاح وغيرهم إزاء الإدارة الاستعمارية في الجزائر آنذاك .

و قد تناولت هذه الخطابة قضايا سياسية كثيرة في واقع المجتمع الجزائري غير أننا تحدثنا عن بعضها قصد الإشارة لا الإحاطة .

ثانيا : موضوعات اجتماعية :

لقد تبين لنا بعد النظر في النصوص الخطابية التي تناولت الحياة السياسية في الجزائر إبان الاحتلال الفرنسي أنها كانت مضطربة وكثيرا ما تتجاوز القوانين الأصلية بمعاملات استثنائية مما اثر سلبا في حياة الشعب الجزائري، واضطربت لذلك حياته الاجتماعية وعمت الفوضى وانتشرت المفاسد وكل أنواع الآفات ،

---

(1) المرجع السابق، جـ3 ، ص 281.
(2) المرجع نفسه، جـ3 ، ص 282.

وهذا ما دفع برجال الإصلاح إلى التحرك وتحمل المسؤولية إزاء هذا الوضع، وذلك بإصلاح ما أفسده الاستعمار و إعادة بناء الإنسان الجزائري بناءا متكاملا ، و لعل ذلك ما نلمسه من خلال دراستنا لبعض النصوص الخطابية التي تناولت هذا الجانب ، علما بأننا لا نتناول الخطب كاملة بالدرس والتحليل وإنما نتتبع فقط ما بث فيها من حديث عن الظواهر الاجتماعية التي ذكرها الخطباء في خطبهم .

والظواهر الاجتماعية في المجتمع الجزائري أكثر من أن تحصى ولكن نحاول الإشارة إلى بعضها قصد التمثيل لا الحصر .

من مقاصد الاحتلال الفرنسي في الجزائر التفريق بين أبنائها لكي يتسنى له التحكم في رقابهم لكن تصدى له رجال أحرار في شتى أنحاء الوطن من علماء ومصلحين نهضوا لعلاج هذا الداء المهلك والمنهك لقوى الأمة وذلك بإرجاعها إلى أصولها، ومن هؤلاء الرجال الشيخ عبد الحميد ابن باديس الذي كان يدرك تمام الإدراك أن مثل هذا الداء المستفحل في وطنه لا علاج له إلا بالرجوع إلى الإسلام الذي استطاع أن يجمع بين أبناء يعرب وأبناء مازيغ منذ أمد بعيد حتى كون منهم عنصرا جزائريا مسلما أمه الجزائر و أبوه الإسلام ((إن أبناء يعرب وأبناء مازيغ قد جمع بينهم الإسلام منذ بضع عشرة قرنا، ثم دأبت تلك القرون تمزج ما بينهم في الشدة و الرخاء، وتؤلف بينهم في العسر واليسر وتوحدهم في السراء والضراء، حتى كونت منهم منذ أحقاب بعيدة عنصرا مسلما جزائريا أمه الجزائر وأبوه الإسلام.وقد كتب أبناء يعرب وأبناء مازيغ آيات اتحادهم على صفحات هذه القرون بما أراقوا من دمائهم في ميادين الشرف لإعلاء كلمة الله، وما أسالوا من محابرهم في مجالس الدرس لخدمة العلم))[1].

فبعد هذا الاتحاد وهذه الأخوة في الله هل يعقل بث التفرقة بين الأخوين؟ يتساءل الشيخ مستنكرا ذلك. وهو يعلم علم اليقين أن ما جمعته يد الله لا تفرقه يد الشيطان ((فأي قوة بعد هذا يقول عاقل تستطيع أن تفرقهم ؟ لولا الظنون الكواذب والأماني الخوادع يا عجبا.لم يفترقوا وهم الأقوياء، فكيف يفترقون وغيرهم القوي، كلا والله بل لا تزيد كل محاولة للتفريق بينهم إلا شدة في اتحادهم و قوة لرابطتهم (ذمتي بما أقول رهينة و أنا به زعيم). والإسلام له حارس ، و الله عليه وكيل))[2].

---

(1) **عبد الحميد بن باديس ، آثاره، جـ5 ، ص 459.**

(2) **المصدر نفسه ، جـ5، ص 459.**

ويخلص أخيرا في خطابه إلى شيء أساسي في حياة الأمة وهو المحافظة على الأخوة والاستمرار في الاتحاد الذي يعد الطريق الوحيد لصيانتها من التفكك والمزالق وخاصة أن الدين يدعو إلى ذلك و يحث عليه وهذا عهد بين العبد وربه ((نعم إننا نتحد لننفع أنفسنا، وننفع إذا استطعنا غيرنا، ومعاذ الله و الإسلام أن نتحد على أحد، أو نتفق على باطل ، أو نتعاون على إثم أو عدوان))[1].

وفي خطبة منبرية بمناسبة عيد الأضحى يتحدث الإمام ابن باديس عن الضحية التي من أسرارها تعليم الناس التضحية ، إذ تعد سببا رئيسيا في تقوية شبكة العلاقات الاجتماعية بين أفراد المجتمع، لذلك وجدنا الخطيب يدعو إلى التدبر في هذا السر العظيم والحث على البذل والعطاء في السراء والضراء لأن ذلك من التكافل الاجتماعي وإحياء لسنة الأنبياء والاستسلام لله رب العالمين ((فتدبروا أيها المسلمون في هذا السر العظيم ومرنوا أنفسكم على التضحية في كل وقت في سبيل الخير العام بما تستطيعون،ولا تنقطعوا عن التضحية ولو ببذل القليل، حتى تصير التضحية خلقا فيكم في كل حين، واجعلوا قصة هذا النبي الجليل نصب أعينكم ، وتدبروا دائما ما قصه الله منها في القرآن العظيم عليكم ، وأحيوا هذه السنة ما استطعتم ، وأسلموا الله رب العالمين))[2].

وحدة الأمة هي مصدر كل خير وسر نجاحها، فالشيخ بن باديس كان دوما يسعى في نشاطه الإصلاحي إلى توحيد الأمة وحثها على التعاون ونبذ الخلاف لذلك وجدناه يقف موقفا حازما إزاء ظاهرة الخلاف الذي يراه عين الشر كله في المجتمع وبخالصة إذا كان في الدين ، وهو ما يقع كل عام في ديار الجزائر من اختلاف في الصوم والإفطار وهذا يؤدي حتما إلى شر المصائر في المجتمع ((أيها الإخوة الكرام : إن الخلاف كله شر، وشره ما كان في الدين، وأشنع أنواعه وآلمها لكل ذي غيرة على دينه ما يقع كل عام بهذه الديار من اختلافكم في الصوم والإفطار .

وأن الشؤون الدينية إذا أخرجت على الاعتبارات الدينية وتناولتها أيدي التعصب صارت إلى شر المصائر وكان من أثارها في

---

[1] المصدر السابق ، جـ5، ص 459- 460.
[2] المصدر نفسه، جـ4، ص 173 - 174.

الأمـــة الجفـــاء والتعـــادي ، ثـــم التـــشتت والاخـــتلاف ، ثـــم الـــوهن والانحلال))[1].

إن تفرق الأمة في مسألة الصوم والإفطار نتج عنه التعصب للأشخاص والأحزاب وفتح بابا واسعا للجفاء والتشتت والانحلال في المجتمع،وهذا ما دفع بالخطيب إلى تدارك الأمر بالنصح والتحذير من نتائج ذلك الخلاف الممقوت المنهك لقوى الأمة ((إن مسألة الصوم والإفطار خرجت عندنا من باب الاعتبار الديني إلى باب التعصب الشخصي أو الحزبي،ومن آيات ذلك أن أصبحنا نرى في هذه الأمة من يصوم لأن فلانا مفطر،ومن يفطر لأن فلانا صائم ومن القبيح الشنيع أن نجعل الدين هو مناط وحدتنا ومعقد ارتباطنا موضوع اختلافنا ودائرة تفرقنا وسبب تفكك رابطتنا))[2].

التفرق في الدين مفسدة لدنيا الناس وقد حذر منه القرآن الكريم الذي يبقي الحجة القائمة على الأمة إلى يوم الدين؛ لذا وجدنا الخطيب يلفت انتباه الناس إلى الإدكار والعودة إلى أصل القضية كما وضحها الشارع الحكيم، ويحذر من التعصب وأتباع الهوى الذي من آثاره السلبية على المجتمع الوهن و الانحلال ((قد حذرنا القرآن الكريم – وهو الحجة القائمة علينا – من التفرقة في الدين مدرجة لمفارقته فهل من مدكر .

ولو كان هذا الاختلاف من باب اختلاف العلماء فيما لا نص فيه أو فيه ظاهر يقبل التأويل على وجوه من النظر شتى لكان للمختلفين عذر قائم ووجهة سديدة ولكنه اختلاف يمت إلى الهوى بأقرب الأنساب وينجذب إلى التعصب بأوثق الأسباب وحجته الداحضة قولهم : رأى بنو فلان ولم نرى ، مع أن السماء واحدة و العيون في الإبصار متكافئة كأن الله جعل الرؤية شرطا عينها في الصوم العيني ولم يجعل الله ذلك ولكن الهوى جعله))[1].

الخطيب لم يرض بهذا التفرق الذي مزق الأمة مما دفعه إلى مخاطبة ضمير الأمة الحي قصد مراجعة الذات واستحضار العهد الذي بينها وبين ربها فالمسألة لا تتعلق بفرد أو جماعة معينة وإنما الأمر يتعلق بالأمة كلها ، وهذا ما جعل الخطيب يذكر مستنكرا ما وقعت فيه الأمة من أخطاء فادحة في حق دينها، حيث صار التعصب

---

[1] المصدر السابق، جـ6 ، ص 68.

[2] المصدر نفسه ، جـ6، ص 68.

[1] المصدر السابق، جـ6، ص 68- 69.

للأشخاص والقبيلة ظاهرة سائدة في المجتمع مما ورث أضغانا وأحقادا بين أبناء الوطن ((أيحسن في الشرع أو يجمل في الذوق أن يكون في القبيلة الواحدة مفطر وصائم ثم لا يكفي ذلك حتى يكون في البيت الواحد مفطر وصائم .

أيحسن في الشرع أو يجمل في الذوق أن تكون في البلد الواحد أسرة مبتهجة بالعيد بطالعه السعيد كبارها يتقبلون التهاني و التبريكات و صغارها يتقلبون في صنوف الأفراح والمسرات بينما جار الجنب صائم ممسك وأولاده يتحرقون حسرة ويتميزون غيظا وإن كانوا لا يدرون على من؟ ولو كان الفرق يوما واحدا لهان الأمر ولكنه اليومان والثلاثة ، فلا عجب إذا كان هذا الحال من أسباب الضغائن والحقود تحملها القبيلة للقبيلة والأسرة للأسرة ثم يحملها الأولاد للأولاد))[1].

وفي ذكرى المولد النبوي الشريف يوجه الشيخ عبد الحميد بن باديس كلمة إلى الإنسانية جمعاء يدعوها إلى الإقتداء بهذا النبي الكريم في بناء المجتمعات بناء متكاملا حتى تسعد البشرية بحياتها .

وقبل ذلك يوجه كلامه إلى العرب الذين هم في أمس الحاجة إلى مثل هذا التذكير للعودة إلى الأسس الأولى في بناء الإنسان المتكامل الذي يعد الأنموذج الذي يقتدى به في عالم الناس ، إذ تجسد ذلك بالفعل في حياته (صلى الله عليه و سلم) حيث استطاع أن يبني جيلا فريدا من نوعه غير به وجه التاريخ في مدة لا تزيد عن ثلاث و عشرين عاما .

فهذا النبي العربي كان سببا رئيسا في بذر مستقبل العروبة وتخليدها في ذاكرة التاريخ : لذا وجدنا الخطيب يدعو العرب أن يعودوا بالذكرى إلى حياته (صلى الله عليه وسلم) ويقرؤوها قراءة واعية ليستمدوا منها أسباب النجاح والسعادة ذلك ما يستشف من خلال قوله : ((أيها العرب في مثل هذا اليوم ولد النبي العربي ، فتفتحت العروبة عن زهرة ماضيها، وبذرة مستقبلها،فوصل الله به مجدكم القديم بمجدكم الحديث، وأشاع لغتكم في الألسنة، وعنصركم في الأمم ، و تفكيركم في العقول ، فخلدتم في التاريخ خلود التاريخ،وبقيتم على الزمن بقاء الزمن فعودوا بالذكرى إلى حياة هذا العربي العظيم، كيف نشأ في صميم العروبة وترعرع في أحضانها ودرج على الكريم الصلب من أخلاقها، فحدب عليها عمره كله يهديها ويحوطها ويجمع أشتاتها، ويؤلف وحدتها، يكونها ليكون الله الأمم بها،ويرشحها للسيادة

---

[1] المصدر السابق ، جـ6، ص 69.

لتسود بها البشرية جمعاء،فما فارق الدنيا حتى تركها أمة شعرت بعزتها،وعرفت غايتها،وأخذت للحياة عدتها،وتقدمت للبشرية تحمل مشعال العلم والحرية والإخاء العام.فمن حياة هذا العربي الصميم استمدوا -أيها العرب- حياتكم،وعلى ما شادة من ماضيكم ابنوا حاضركم ومستقبلكم، ومن تاريخه الحافل استوحوا مناهج حياتكم، ومن سيرته الجليلة اجمعوا عناصر نهضتكم ومواد بنائكم القومي، فلسانه لسانكم، وقوميته قوميتكم ، وتاريخه تاريخكم ، فاتخذوه مثلكم الأسمى في الحياة تتخذكم الحياة -مثل ما كنتم- مثلها الأسمى ، وقادتها الراشدين))[1].

إن مولد النبي (صلى الله عليه وسلم) مولد للإنسانية جديد به أشرق على الكون نورا أضاء لبني آدم طريق العلم والحرية و السلام .

فلن تسعد البشرية إلا بإتباع خطاه فهو الأسوة الحسنة في بناء المجتمع الرباني؛ إذ كانت حياته الخاصة ترجمانا عمليا لبناء ذلك المجتمع السعيد، فالخطيب يلح على البشرية أن تعود إلى حياة هذا الرجل الإنساني الذي أسقط اعتبار الأجناس والألوان في الأفضلية، وأعلن أنه لا فضل لأحد على أحد إلا بتقوى الله ، وقد تحق ذلك في تاريخ البشرية على عهده (صلى الله عليه و سلم) : ((أيها البشر : في مثل هذا اليوم ولد محمد بن عبد الله بن عبد المطلب ، فولدت الإنسانية ولادة جديدة ، وأشرق على الكون نور لم يلح من قبل ، أضاء لبني آدم طريق العلم والعمل ، والحرية والسلام في حظيرة الإخاء العام، فعودوا بالذكرى إلى حياة هذا الرجل الإنساني، كيف أرضعته بدوية عربية، وحضنته أمة حبشية ، وتبنى مملوكها رقيقا، ثم أخذه أخا ومولى ثم عقد ألوية الإمارة للمولى على العرب غيره مرة، وأدنى بلالا الحبشي وسلمان الفارسي وصهيبا الرومي لفضلهم وسابقتهم على كثير من كبراء العرب وساداتهم، وذاق ألم الإنسانية في اليتم والفقر والفقد، وباشر العمل في الرعي والتجر، وبلا الحياة في الشدة والرخاء والسلم والحرب، فقضى حياته يرفع طبقات وضعها الظلم والجهل، ويخفض طبقات رفعها الطغيان والجبروت، حتى سوى بين بني آدم في الكرامة البشرية، وأسقط اعتبار اعتبار في الأفضلية وأعلن أن لا فضل لأحد على أحد إلا بتقوى الله فعودوا إلى الأصول التي جاء بها هذا الرجل، إنها جربت فصحت تجربتها فقد بنيت عليها مدنية ما في

---

[1] **المصدر السابق ،جـ6 ، ص 316.**

مدنية اليوم من خير هو من أثرها، ولن تسعد الإنسانية إلا بالاحترام والتسامح والتعاون وبالوفاء في التعاقد، وتلك أمهات مما جاء به، فاتبعوه تعيشوا في رغد آمنين))[1].

أما البشير الإبراهيمي يتحدث في خطبة له عن قضايا اجتماعية طالما شغلت بال المصلحين ، منها قضية محاولة المستعمر إبعاد الأمة عن ماضيها ، لكن عقلاء الأمة مثل الشيخ الإبراهيمي تفطن لهذه الحيلة الماكرة فدفعه ذلك إلى الحديث عنها محذرا من مغبة الاستجابة لإرادة الاستعمار الذي يعيب على الأمة الإسلامية تمسكها بماضيها ، فهو يريد أن تنسلخ من ماضيها وتعيش بلا ماض حتى لا تعلم من ماضيها شيئا ((أيها الإخوان : يقول المستعمرون عنا : إننا خياليون، وإننا -حين نعتز بأسلافنا- نعيش في الخيال، ونعتمد على الماضي، ونتكل على الموتى، يقولون هذا عنا في معرض الاستهزاء بنا، أو في معرض النصح لنا ، وأنا لا أدري متى كان إبليس مذكرا ، ما يرمون إليه ، إنهم يريدون أن ننسى ماضينا فنعيش بلا ماض))[2].

فالخطيب يعلم أن الأمة بلا ماض لا مستقبل لها، لذلك كل ما يخشاه هو إذا استيقظت الأمة وعادت إلى رشدها فإنها تجد نفسها مندمجة في حاضر الآخر ويصعب بعد ذلك علاج الأمر ، مشيرا إلى أهمية الاعتزاز بالسلف والاعتماد على الماضي وهذا الذي لم يغفله المستعمر أبدا بل يعتز به ويخلد عظماءه ((... يريدونا أن ننسى ماضينا فنعيش بلا ماض، حتى إذا استيقظنا من نومنا ومن تنويمهم لنا ، لم نجد ماضيا نبني عليه حاضرنا، فاندمجنا في حاضرهم، وهو كل ما يرمون إليه.وسلوهم... هل نسوا ماضيهم؟ إنهم يبنون حاضرهم على ماضيهم ، إنهم يعتزون بآبائهم وأجدادهم ، إنهم يخلدون عظماءهم في الفكر والأدب والفلسفة والحرب والفن ، إنهم لا ينسون الجندي ذا الأثر فضلا عن القائد الفاتح ، وهذه تماثيلهم تشهد وهذه متاحفهم تردد الشهادة))[1].

يستمر الخطيب في عرض القضايا التي أفسدت الواقع الاجتماعي للأمة الإسلامية حتى أضحت عرضة للاستهزاء والاحتقار من المستعمرين على الرغم من أنهم كانوا السبب الرئيس في ذلك ، لكن هذا لا يدعو إلى اليأس والاستسلام للأمر الواقع بل يجب على

---

[1] المصدر السابق، جـ6 ، ص 316- 317.
[2] محمد البشير الإبراهيمي ، آثاره ، جـ 2 ، ص 467- 468.
[1] المصدر السابق، جـ2 ، ص 468.

الأمة أن تعود إلى ماضيها وتعرف الرجال الذين عمروه في ميادين الحياة حتى يتحقق إكمال عمل اللاحق لعمل السابق ((إن القوم يحتقرون حاضرنا الذي أوصلونا إليه، ويعتقدون أننا صبيان، فيتذكرون ماضيهم ليبنوا عليه حاضرهم ومستقبلهم، وينكرون علينا ذلك فمن حقنا، بل من واجبنا أن نعرف ماضينا والرجال الذين عمروه في ميادين الحياة، فنعرف من هو أبو بكر ومن هو عمر؟ ونعرف ما صنع عقبة وحسان وطارق وموسى وطريف في الغرب، وما صنع المثنى وسعد وخالد وقتيبة في الشرق))[2].

ومن القضايا الاجتماعية الأخرى التي تطرق لها الشيخ الإبراهيمي قضية تلقين الأبناء ، فالعدو يذكر أبناءه بماضيهم ويلقنهم تاريخ أجدادهم وكذلك يفعل مع أبناء الأمة الإسلامية قصد إبعادهم عن ماضيهم وذكريات أسلافهم ليستحوذ على عقولهم فتجد الواحد من هذا الصنف من أبناء الأمة الإسلامية يعرف الكثير عن تاريخ العدو ويجهل تاريخ أمته، فالخطيب يحذر من ذلك وينبه إلى أهمية تلقين الأبناء ماضيهم وتاريخ أسلافهم حتى لا يقعوا ضحية للعدو،((إلا أنهم يذكرون أبناءهم بماضيهم، ويلقنونهم سر أجدادهم وأعمالهم، وأنهم يذكرون أبناءنا المتأثرين بعلومهم وصناعاتهم بذلك ، وأتون بما يملأ عقولهم ونفوسهم حتى لا يبقى فيها متسع لماضينا وأسلافنا ، وإن الواحد من هذا الصنف من أبناءنا ليعرف الكثير عن نابليون ، ولا يعرف شيئا عن عمر ، ويحفظ تاريخ (جان دارك) عن ظهر قلب ، ولا يحفظ كلمة عن عائشة وخديجة ، وإن هذه لهي الخسارة التي لا تعوض))[1].

بعد تشخيص الداء ينتقل الخطيب إلى العلاج فيراه في شيء واحد وهو تثقيف الأبناء عربيا شرقيا موحدا لأن و اقع الأمة السياسي مني بالخلافات مما أثر سلبا في ثقافتها وأنساها تراثها وهذه مصيبة يجب التنبه إليها ((... وإنها لمصيبة يجب علينا أن ننتبه إلى خطرها، ونبادرها بالعلاج ، وأن دواءها الوحيد هو تثقيف أبنائنا تثقيفا عربيا شرقيا موحدا، وأقول موحدا لأنني أعتقد أن الخلافات السياسية التي مني بها الشرق ، يرجع معظمها إلى اختلاف الثقافات، فالمثقف ثقافة انجليزية يحترم إنكلترا، والمثقف ثقافة فرنسية يحترم فرنسا، وهكذا وزعنا الاحترام على الغير، فلم يبق من احترامنا لأنفسنا شيء،وكأننا

---

[2] المصدر نفسه ، جـ 2 ، ص 468.

[2] المصدر السابق ، جـ 2 ، ص 468.

استبدلنا بجنسيتنا الواحدة جنسيات متعددة، كلها غريبة عنا، وكلها مجمعة على اهتضامنا وهضمنا، ولولا نزاعات موروثة من الأجداد الذين قهروا الرومان في إفريقيا، ودفعوا الصليبيين عن الشرق،لم يبق لنا من ذلك التراث الغالي شيء، بفعل التجهيل الذي هو غاية الاستعمار فينا، وبفعل هذه التعاليم الغريبة عنا))[1].

فالرجوع إلى الذات محمدة ومواجهة العدو واجب ، وذلك ما يعلمه الخطيب تمام العلم مما دفعه إلى استنهاض الهمم وشحذ العزائم وتوضيح حقيقة الاستعمار الذي لا يجدي فيه لوم ولا إرشاد ، إنما يستجيب ويتصاغر إذا احتقرت قوته ((ليس من سداد الرأي أن يضيع الضعيف وقته في لوم الأقوياء، وليس من المجدي أن يدخل معه في جدل ، إن من تمام معنى اللوم أن يتسبب في توبته ، أو يجر إلى إنابة ، ونحن نعلم أن القوم لا يتوبون ولا يذكرون.فالواجب أن نلوم أنفسنا على التقصير، ونقرعها عن الانقياد لآراء هؤلاء القوم و لإرشادهم ... أما لومنا إياهم فهو لوم الخروف للذئب ، وأما طمعنا في توبتهم فهو طمع الخروف في توبة الذئب ، فإن أردتم أن تروا المثل الخارق من توبة الذئب فقلموا أظافره ، واهتموا أنيابه ، كذلك إن أردتم توبة القوي فاحتقروا قوته ، واحذروا أن تكونوا زيادة فيها ، فإنه يتصاغر ثم ينخذل ، ثم يساويكم فإذا هو أقل منكم وأضعف ، إن هذه هي الأمثال التي يعقلها الطغاة ، وأن هذه هي التوبة التي يجب أن يحملوا عليها حملا، ويلجأوا إليها إلجاء))[2].

وفي موقف آخر يوم افتتاح دار الطلبة بقسنطينة نجد الإبراهيمي يقول وكله ثقة وتفاؤل بالمستقبل السعيد حاثا الحضور على الاستمرار في العمل والتعلق بعظائم الأمور لتحقيق نهضة الأمة دون أن ينسى تذكيرهم بنتيجة التعاون والإيمان والثقة بالله يقول ((أعيذكم أيها الإخوان الكرام، أن تقنعوا في نهضتكم بغاية، أو تقفوا عند حد، إن القناعة إنما تحصل فيما يقيم الجسم لا فيما يقيم الأمة ، وإن آية الأمة المهيأة للخير أن لا تفرغ من مأثرة، إلا لتبدأ مأثرة، ولا تنفض أيديها من عمل إلا لتضعها في عمل، فكونوا دائما مستعدين، واجعلوا هدفكم دائما العظائم لا الصغائر، وقد جربتم الإيمان وماذا يصنع ، وجربتم التعاون وأنه ينفع، وجربتم الثقة بالله فأتت بالعجائب ،

---

(1) المصدر السابق ، جـ 2 ، ص 468.
(2) المصدر نفسه ، جـ 2 ، ص 469.

شدوا الحيازيم واعتمدوا على الله و ثقوا بعونه وما أنفقتم من خير فهو يخلفه وهو خير الرازقين))[1].

وفي كلمة له أيضا يحث فيها جميع المسلمين في العالم إلى النهوض و نبذ الفرقة التي كانت دائما سببا رئيسيا في ضعفهم رغم كثرتهم يقول: ((إن المسلمين كثر،ولكن التفرق صيرهم قليلا مستضعفين في الأرض،يشقون لإسعاد غيرهم، ويموتون في سبيل إحياء عدوهم،وإنها لخطة من الهوان يأباها أكثر الحيوانات العجماء،فكيف الخلائق العقلاء))[2]

ومن الظواهر الاجتماعية النفسية في الأمة الاعتقاد في غير الله مما أثر سلبا في حياتها وترتب عنه الاستعباد لرقاب العباد حتى لو أنك أقمت اختبارا للمسلمين في علاقتهم بالإسلام ومدى تمسكهم بمبادئه لسقط الكثير منهم لأن انتماءهم للإسلام لم يكن انتماء فعليا بل انتماء بالوارثة ، وهذا ما جعل الشيخ البشير الإبراهيمي يحذر من هذه الظاهرة ز يطلب من الأمة أن تراجع نفسها و تعود إلى ربها ولا تسرف في حب الدنيا التي كانت السبب في كل ذلك يقول : ((... فإذا كان المسلم لا يرهب إلا الله فإنه لا يعبد وثنا ولا يهاب ظالما مهما بلغ طغيانه .ويوم كان المسلمون كذلك سادوا الدنيا وملكوها بالعدل،ولما انتقلوا إلى اعتقادهم بالمخلوق واعتمادهم على المخلوق استعبدوا.

فحسبكم أن في الأرض خمسمائة مليون مسلم كلهم مستعبدون، وحياة المسلمين لا تحتاج إلى ترجمة لأنهم كلهم خاضعون لهذا الاستعباد .

فلو أقمنا لجنة لامتحان المسلمين لسقط 99 % منهم ، لأننا مسلمون باللفظ وإلا فكيف نغلب بالكفرة ، أيكذب القرآن؟ حاشا الله : بل نحن كاذبون ،**{وما ربك بظلام للعبيد}***،**{وما ظلمناهم ولكن كانوا أنفسهم يظلمون}**** ، وقد كرر الله سبحانه هذا المعنى بأساليب مختلفة ، فنحن إذن بين أمرين : فإما أننا كاذبون في إسلامنا ، أو أن الله قد جار علينا، والله نزيه عن الجور، إذن فنحن كاذبون في إسلامنا ظالمون لأنفسنا فعلينا أن نتوب والتوبة تكون بالرجوع إلى الله سبحانه

---

[1] المصدر السابق ، جـ 2 ، ص 247.
[2] المصدر نفسه ، جـ 4 ، ص 60.
*** فصلت / 46**
**** النحل / 118.**

وتعـالى و إتبـاع أوامـره و نواهيـه ، والإقـلاع عـن الخـضوع لغيـره ، وبمواجهة الحياة والاستهانة بها))[1].

ومـا أهلـك الأمـة وأبعدها عـن جـادة الـصواب إلا التنـافس علـى الدنيا التـي أصبحت أكبـر هم المسلمين حتـى ألهتهم عن سـر وجـودهم فيها مما أدى بهم إلى أنه ملكهم الغربيون و استعبدوهم، فالخطيب ينبـه إلـى خطـر تفشي هذه الظـاهرة فـي المجتمـع ويحـذر منهـا قبل أن تعـم البلـوى يقـول : ((أتـدرون لمـاذا ملكنـا الغربيـون؟ لقـد ملكونـا لأننـا انغمسنا في الكماليات السخيفة التي غمرونـا بهـا والتـي تمـلأ الشوارع والمحـلات ليـضعفوا بهـا اقتـصادنا ويمتـصوا ثـروات، وانظـروا إلـى حكوماتنـا التــي لا تهـتم إلا بالـشيء التافـه والوضـيع مـن الـصناعات الوطنية...و هذه أموالنـا تخـرج مـن جيوبنـا إلـى خـزائن الـدول الغربيـة لتعـود لنـا بحبـال نـشنق بهـا وأسـلحة نقتـل بهـا ، وأصـبح كثيـر ممـا نستورده من الكماليـات كالـضروريات لا نطيق العيش بدونـه، فـصرنا نأكل الحلوى ونحن في البلوى))[1].

وهذا الشيخ العربي التبسي يشارك إخوانه من رجـال الإصـلاح في بناء المجتمع الجزائري الذي يريده أن يكون متعلمـا لمـا للعلم من دور فاعل في نـهضة الأمـة : لـذا وجدناه فـي خطابـه يحث علـى تهيئـة الأجـواء للأبنـاء والبنـات بفتح أبـواب التعليم حتـى يـتم القـضاء علـى الجهل المزروع في جسم الأمة الذي أماتها. فهذه الظـاهرة إذا استفحلت في المجتمع فخيـر لـه أن يكـف عـن الـولادة مـن أن تولـد أجيـال للجهل الذي يورثها الشقاء والضلال ((إن الحال التي نوجد عليهـا تتطلـب منـا تهيئة المهد لـلأولاد والبنـات، ولـيس هذا المهد إلا المدارس والكليـات، فـإن كنـتم تلـدون للحيـاة : فالجهـل ميـت يمـشي علـى قدمين، وإن كنـتم تريدون سعادة الأبناء فالأمية شقاء مستمر، وإن كنـتم تحبـون الإحسان إلى الجيل فعشرات الآلاف من مشرديه يشكونكم إلـى الله.وخيـر لنـا أن نكف عـن الـولادة مـن أن نلـد للبـؤس الـدائم، والجهـل الـسائد، والـضلال المبين))[2].

فالانبعاث والتحرر إنما يكون بالتعلم والتمسك بمقومـات الأمـة، لـذا وجـدنا الخطيـب يـدعو وينـادي فـي الـشعب أن يـنهض ولا ييـأس ويستسلم لإرادة الظالمين الذين أبعدوه عن كل أسباب النهـوض والتقدم

---

[1] المصدر السابق ، جـ 4 ، ص 210 - 211.

[1] المصدر السابق ، جـ 4 ، ص 211.

[2] العربي التبسي، مقالات في الدعوة إلى النهضة الإسلامية في الجزائر ، ص 228.

والرخاء،((فانبعث أيها الشعب من المقبرة التي وضعك فيها الظالمون الذين أبعدوك عن العلم حين أرادوا إبعادك عن الإنسانية، وأبعدوك عن الدين حين أرادوا أن يجردوك من كل حق، وأبعدوك عن الله حين فصلوك عن المسجد))[1].

وبمناسبة ختام أعمال المجلس الإداري لجمعية العلماء المسلمين ألقي الشيخ كلمة حارة تشع بنور الحياة والإيمان يشكر فيها إخوانه العاملين ويذكرهم بأهمية هذا الواجب الرسالي في بناء المجتمع وإصلاح حال الأمة، إذ لا يتم ذلك إلا بتحمل أعباء المسؤولية وأداء واجب الأمانة حق الأداء حتى يكونوا سببا في فتح أبواب السعادة في وجه الأمة يقول : ((إنكم معشر الإخوان تقومون بعمل عظيم في سبيل الدين الحنيف، والعربية، والوجود المحترم، وإننا لنشكركم على عاطفتكم الشريفة ، لأنكم أظهرتم أثناء اجتماعكم هذا توحدا في العمل عز نظيره، وتكتلا حول الغايات الشريفة التي كرستم حياتكم لها .

إنكم أيها الإخوان تقومون بواجب أداء الأمانة حق الأداء وإنكم لتربطون الأولاد بالجدود، وتتعرضون عن طيب خاطر لمحن الدنيا ومصائب العيش، وتكافحون لرد طائلة العدوان ، وتفتحون بأيديكم أبواب السعادة في وجه الأمة))[2].

فمثل هذا العمل العظيم لكي يثمر وتظهر نتائجه في المجتمع لابد من القائمين عليه أن يكونوا أسوة صالحة ومثالا يحتذى به في واقع الناس حتى تتحقق مقاصد أداء الواجب ((يجب علينا أن نتعلم محاسبة أنفسنا قبل أن نحاسب، وقبل أن يحاسبنا الناس، يجب علينا أن نكون أشداء على أنفسنا حتى نستطيع أن نحتفظ بهذا الميراث العظيم، ونبلغه سليما لأبنائنا من بعدنا))[1].

وتبليغ ميراث الأمة و إصلاحها لا يتم إلا بالتضحيات الجسام كما هو الحال عند الأمم الأخرى، فيلفت الخطيب انتباه إخوانه إلى أخذ العبرة من الآخرين في بناء مجتمعاتهم وبخاصة أنهم يحملون راية الدين والقرآن ((يجب علينا ونحن حاملوا راية الدين والقرآن أن نكون أقوى روحا، وأعظم همة، وأكثر حكمة من أولئك المبشرين والمبشرات الذين هجروا البلاد والأوطان ، والصحب والخلان ،

---

[1] المصدر السابق ، ص 229.
[2] المصدر نفسه ، ص 201.
[1] المصدر السابق ، ص 201- 202.

وتركوا (باريس)و(لاهاي)وغيرها يجوبون أقطار الأرض للقيام بدعوتهم، تاركين الدنيا وراء ظهورهم))[2].

ومن الظواهر الاجتماعية الأخرى التي يعاني منها المجتمع الجزائري ما ذكره الشيخ العربي التبسي فيما يخص الإمامة التي حولها الاستعمار إلى منصب إفتاء لصالحه، فالخطيب لم يرضه هذا الاستهتار بمكانة الإمامة ، فدفعه ذلك إلى توجيه صرخة مدوية في وجه كل من أنساق واستجاب لإرادة الإدارة الاستعمارية يخدمها باسم الدين ((إن أئمتنا ومفتينا اليوم من أتباع (البريفي) وليسوا من أتباع محمد، ولا شك أنهم ناقصوا آداب وهم وسادتهم يعلمون ذلك، وإلا فكيف يرتبطون (بالبريفي) ولا يرتبطون بالمصحف: ولو وجد من يعبد الله حقا لما دخل مسجدا يعلم أن إمامه (بوليسي) يتكلم باسم الدين، ورجال الإدارة من (قياد وباشغوات) يغلطون الأمة، ويحولون بينها وبين الحقيقة وإلا لما كان في الأمة من يدخل المسجد))[1].

وما رصده الشيخ العربي التبسي من ظواهر اجتماعية ألمت بالمجتمع الجزائري بخل و تقاعس كثير من أغنياء الأمة في المشاركة في تشييد المساجد وبناء المدارس لإغاثة التلاميذ حيث يعد هذا واجبا على الأمة جمعاء ولا مفر لأحد مادام يشهد أن لا إله إلا الله : ((أنعول على الأغنياء وقد فر منا كل غني إلا الغنى بالله، المتوكل على الله، الساعي في نفع عباده، الراجي عند الله جزاءه،وهؤلاء قليلون، فليس إذن من عون للدين والعلم والحياة السعيدة إلا الشعب الفقير الجيب الغني القلب، المؤن بربه، الساعي في مرضاته))[2].

ومن الظواهر الاجتماعية التي يعاني منها المجتمع الجزائري ما أشار إليه أيضا الأستاذ محمد خير الدين في خطابه عن السلوك المضطرب عند بعض أدباء الجزائر : إذ تجد الواحد منهم يعرف الكثير عن الشرق وأدبائه و يجهل تماما ما يتعلق بكنوز الأدب الجزائري، وهذه صرخة مدوية من الخطيب في وجه المثقف الجزائري الذي لا يريده أن يكون عالة على غيره بل يريده أن يتخلص من هذا الاضطراب ويبعث أدبه ليباهي به الأمم يقول : ((أيها الإخوة الكرام : إن من دلائل الفتور المستولي على شبابنا هذه الحقائق التي نعترف بها و نحن آسفون خجلون ، فأدباؤنا اليوم لا يخطر ببال

---

[2] المصدر نفسه ، ص 202.
[1] المصدر السابق ، ص 196.
[2] المصدر نفسه ، ص 223.

أحدهم أن يبحث وينقب عن كنوز الأدب الجزائري، وتالله لو بعث هذا الأدب من مرقده وجمعت هذه الثروة المتفرقة الموزعة، لاجتمع للجزائر أدب تباهي به الأمم وتطاول به العصور وتحي به فينا تلك الذكريات، وتحرك فينا تلك النعرات، ولكن أدباءنا – عفا الله عنهم – رضوا بأن يكونوا عالة على كتاب الشرق و أدبائه، لا يقرأون إلا ما يكتب بأقلام غير جزائرية كأنهم خلقوا للتقليد والمحاكاة وما خلقوا للابتكار، فلا هم لأدبائنا ومعتنقي الأدب منا في مجالسهم إلا المفاضلة بين شوقي وحافظ، وبين الرافعي والزيات، وبين مجلتي الرسالة والهلال، و قد يسرف البعض في ذلك حتى ينتهي بهم الأمر إلى خصام ثم إلى عراك، وهذه حالة لا تجمل بمن يريد أن يجدد أدبا قد أندرس، أو يحي أمة بعد موتها، ومن الخير لو أكب أدباؤنا على المطالعة والقراءة حتى تكمل ملكاتهم الأدبية ، ثم يكتبوا لنا في النواحي الأدبية التي تتصل بحياتنا، وهي كثيرة متسعة الأطراف))[1].

فمن العار على أمة تعد بالملايين وفيها من الأدباء والشعراء عدد غير قليل إلا أنهم في مواطن العمل يفتقدون، فالخطيب يلقي باللائمة على المثقفين الذين يرى فيهم الأمل في إحياء الأمة لو تخلصوا من اضطرابهم وحيرتهم وأعادوا للأدب الجزائري مكانته وللبلاد ذكرا تباهي به الأمم يقول : ((أليس من العار أن تكون عندنا مجلة واحدة مستعدة للنشر مؤسسة لنشر التراث العلمي والأدب القومي، ثم نحتاج في بعض الأحيان على ما تنشر، وكل تحريرها قائم على جهود منشئها – على كثرة شواغله العلمية – ونحن في أمة تعد بالملايين ولنا في الأدباء والشعراء عدد غير قليل، ولكنهم في مواطن العمل قليلون؟ وهل قرأتم في مجلتكم الجزائرية الوحيدة اعتذارا عن النشر لكثرة المواد؟ والله إنه لعار وأي عار، في حين أن الواجب على أدبائنا أن يملأوا مجلتهم، ثم يكتبوا في غيرها من المجلات الشرقية ليرفعوا لبلادهم بذلك ذكرا ويكسبوا لها فخرا))[1].

وفي موقف آخر نجد الأستاذ محمد خير الدين يحذر الأمة من الوقوع فيما من شأنه أن يؤدي بها على الانحلال والاضمحلال ويدعوها إلى التخلي عما هي عليه من سوء العادات لتستقبل حياة جديدة تسود فيها التربية والتعليم لان ذلك يحييها ويعود عليها بالخير والسعادة ويجعلها مفخرة للأجيال الصاعدة ((أيها الإخوان ما من أمة

---

[1] محمد خير الدين ، مذكرات ، جـ1، ص 150 - 151.

[1] المصدر السابق ، جـ1، ص 151.

سرى في صفوفها التخاذل والتحاسد والتواكل إلا وسارت بدورها إلى الانحلال والاضمحلال، فمن اليوم يجب أن تودعوا الماضي بما فيه وتستأنفوا حياة جديدة ملؤها التحابب والتصافي والتعاون،والاعتماد على النفس، لأن حياة العربية في هذا القطر العربي مرهونة بأعمالنا وجهودنا وتضحياتنا، ومن العبث أن ننتظر من الغير أن يقدم لنا ما يعود على أمتنا ولغتنا بالخير والسعادة .

أيها الإخوان لا حياة لأمة إلا بالتربية والتعليم، وكل أمة أعرضت عن التربية والتعليم والثقافة إلا وكان مآلها الموت والفناء، فعضوا بالنواجذ على لغتكم ودينكم وقدموا في سبيلهما كل مرتحض وغال فستجدون جزاءكم عند الله أحسن الجزاء، وستذكركم الأجيال المقبلة بالإعجاب والإكبار))[2].

إن حياة الأمة في عزها وكرامتها وقوتها فهي لا تختلف عن حياة الإنسان إلا أنها لا تقبر كما هو الحال عند البشر، فالخطيب يتحدث عن حياة الأمم وموتها فيشخص الداء الذي يصيبها ويحذر من عواقبه، ويدعو وكله تفاؤل وأمل في النهوض بالأمة إلى خيرها وخير أبنائها ((أيها الإخوان : إن الإنسان في هذه الحياة يحيا ويموت، ثم لا يرجع إلا بعد أن يقف بين يدي الله ، والأمم كذلك ، ولكن الأمة لا تقبر بل تموت موتا معنويا وحياتها ليست بالروح تدخل وتخرج ، إنما تحيا بالحياة الحقة وما الحياة الحقة إلا العزة والكرامة والقوة، وموت الأمم معنوي، تفقد معه اتحادها ودينها وعزها وعلمها وأخوتها ثم يصير أشتاتا .

فبلا غيرة ولا حمية، تداس حقوقها فلا تتحرك، وبذلك تفقد حريتها وتندمج في غيرها، وإذ ذاك لا يقام لها وزن بين الأمم، فلا تذكر ولا يشاد بتاريخها .

وإذا وصلت الأمة إلى هذا الدرك فهي الميتة لا حياة لها وهناك أصبحت لا تتحرك للهمز واللمز ولا للحرج (ما لحرج بميت إيلام) لكن الله لا يبقي الأمم ميتة بل يرحمها، فتندفع طائفة منها ولو قليلة فتوقظ الغافلين وتنبه النائمين، وإذا وجدت هذه الطائفة فبشر الأمة بالحياة وما حياة الأمة إلا في شعورها))[1].

ولأحمد توفيق المدني خطبة يتوجه بها إلى الشعب الجزائري ينبهه إلى أن الاحتلال الذي أصيب به لم يقع عليه وحده فقط، لذلك لا

---

[2] المصدر نفسه، جـ1 ، ص 190.
[1] المصدر السابق، جـ1 ، ص 202.

ينبغي أن يقنط ويستسلم للأمر الواقع بل عليه أن يعود إلى ماضيه لينطلق نحو المستقبل في بناء حياة جديدة تتكئ على مقوماته الشخصية لأنها السلاح الناجع في دحر العدو واسترجاع حريته وكرامته ((انتم أمة عظيمة، وكنتم دولة محترمة، ولستم وحدكم الذين وقع عليهم الاحتلال، فالتفوا حول أنفسكم واعتمدوا على سواعدكم واعتصموا بالإسلام دينا جامعا طاهرا نقيا وبالوطن الجزائري وطنا للأحفاد كما كان وطنا للجدود وباللغة العربية، لغة القرآن الطاهر لسانا قوميا يجمع بين أبناء الوطن ، إن من اعتمد على غيره دون نفسه كان كمن أراد مقاومة الدهر دون سلاح))[1].

فالعدو لم يتحكم ويسود إلا بعد استجابة الأمة لنداء الفرقة والخلاف : لذا وجدنا الخطيب يدعو إلى الوحدة القوية لدحر الاستعمار وقطع الطريق أما الطرق الصوفية التي فرقت الأمة و مزقت عرى الدين، وهذا لن يتحقق إلا بالرجوع إلى الإسلام الطاهر النقي الذي يعد الرابط القوي بين أبناء الشعب الجزائري ((عدوكم لم يتمكن منكم إلا بتفرقتكم وخلافتكم ، فكونوا وحدة قوية تدحر الأعداء، إن الإسلام الطاهر الشريف الذي يقول : **{أقيموا الدين ولا تتفرقوا فيه}**[*]، لا يرضى لكم أن تتفرقوا طرائق قددا، حول طرق صوفية مضلة ظاهرها الرحمة وباطنها من قبلها العذاب، فرقت الشعب، وشتت الشمل، ومزقت عرى الدين حتى أصبح كل منتسب لطريقة ما، وما أكثر الطرق، يلعن ويسب ويشتم، بل يخرج من الدين كل المنتسبين للطرق الأخرى، وبذلك تحكم الاستعمار وساد))[2].

وأخيرا ينهي الأستاذ أحمد توفيق المدني خطابه بكلمة صريحة كلها إخلاص وصدق يوجهها إلى مستمعيه محذرا إياهم من الآفات التي يزرعها الاستعمار في أوساط الشعب قصد إغراقه في الرذيلة و ينبههم إلى خطر التجنس الفاجر كما يحذرهم من الطرق الصوفية و يدعهم المضللة و يدعوهم إلى طريق الخلاص و النجاة المتمثل في الدين والوطنية و اللغة العربية يقول : ((أباح لكم الاستعمار المواخير، وحبب إليكم الحانات، وعلمكم احتساء الخمور، وحرم عليكم تعلم لغتكم والتفقه في دينكم، والرجوع إلى تاريخكم فصيركم مسخا في الشعوب، وأنزلكم منزلة العبيد الأذلة وأصبح الذين يدعون زعامتكم

---

[1] أحمد توفيق المدني ، مذكرات، القسم الثاني، ص 76.

[*] الشورى / 13.

[2] المصدر السابق، القسم الثاني ، 76- 77.

يسوقونكم نحو فرنسة إجرامية وتجنس فاجر، فاسمعوا كلمة أقولها بكل صراحة و بكل إيمان : المواخير والحانات أحبولة الاستعمار، والزعماء الذين ينادونكم إلى التجنس والفرنسة (أعوان العدو) فانتبهوا واحذروا فأنتم مساقون إلى الهاوية. مساقون إلى الموت الذريع .لا مخرج لكم إلا الدين الإسلامي فتذرعوا به ، أريد به دين الله الخالق لا دين الطرق والصوفية ، ولا خلاص لكم إلا بتعلم اللغة العربية واستعمال اللغة العربية وترك هذه الرطانة المضحكة المؤلمة التي تجمع بين سقيم العامية ومكسور الفرنسية .

أيها القوم : الدين، الوطنية، اللغة العربية، الاتحاد الإسلامي بين كل الطبقات، هذا هو طريق خلاصكم، هذا هو الذي يحطم شبكة الاستعمار التي تحيط بكم من كل جانب و السلام على من اتبع الهدى))[1].

وللشيخ إبراهيم أبو اليقظان خطبة يعرض فيها ناحية من نواحي أمراض الأمة مشيرا إلى مكامنها راجيا من رجال الإصلاح التنبيه إليها وعلاجها .

فيبدأ كلمته بسؤال يطرحه على الملتقين عن العز والسعادة : إذ بدونهما لا تستقيم حياة الأمة.فهذا السؤال البسيط من مقاصده أن تتهيأ الأمة لاستقبال حياة جديدة وذلك بالرجوع إلى مقوماتها الأساسية التي أشار إليها الخطيب وأكد عليها متيقنا من نجاعتها في استرجاع الأمة لعزها و سعادتها يقول : ((هل يمكن أن ننال عز وسعادة ونحن لا نسلك إليهما سبيلا، لو يسأل كل واحد منا هذا السؤال البسيط : هل تريد عزا وسعادة حقيقيين في الحياة وبعد الممات، وإذا سئل وهل ينال المرء ما ينشده من عز وسعادة من غير أن يسلك إليهما سبيلهما؟.

أجاب في الحال أنه لا ينال شيئا منهما أبدا من غير السلوك إليهما من سبيلهما، وإذا سئل : إذا كنت تريد حقا عزا وسعادة في الحياة وبعد الممات، وكنت تعترف انه لا ينال المرء شيئا منهما من غير أن يسلك إليهما سبيلهما فهل أنت سالك إليهما سبيلهما الموصل ؟ وجم ها هنا وتلعثم لسانه وحار في الجواب.

أليس كذلك أيها السادة ؟.

---

[1] المصدر السابق، القسم الثاني ، ص 77.

إن سبيل العز والسعادة الحقيقيين في الرجوع إلى كتاب الله وسنة رسول الله وآثار السلف الصالح .في العمل بأوامر الدين واجتناب نواهيه والوقوف عند حدوده))[1].

بعد تشخيص الداء و استحضار الدواء يتساءل الخطيب عن مدى جدية الأمة فيما يصلح حالها، ولكن واقع المجتمع ينبئ بعكس ذلك إلا من رحم ربك .

ويذكر الشيخ جملة من الرغبات التي من شأنها أن تصلح واقع الأمة إذا تم تحقيقها -لكن لا حياة لمن تنادي- فالأمة غارقة في أوحال التيه والضياع فهي نعمل عكس رغباتها يقول : ((نحن نريد رضوان الله ، و لكن في الإخلاص لعدوه الشيطان .

نريد نعم الله الضافية ، ولكن في استنزال نقمه بالمعاصي والموبقات .

نريد عزة الحق ، ولكن في إتباع الباطل .

نريد جادة الصواب، ولكن في تعاريج الأخطاء .

نريد فضاء اليقين ، ولكن في زعزعة الإيمان وضعف النفس .

نريد جنة الخلود ، ولكن في السلوك في طرق الهلاك والفناء .

نريد السلامة و الهناء ، ولكن في إدخال الفتن والبلاء .

نريد الفوز في معترك الحياة ، ولكن في الجزع وقلة الصبر وعدم التبصر .

نريد سمو المكانة و الاحترام ، ولكن في عدم احترام أنفسنا ووزنها بميزانها .

نريد القوة و العزة و القومية ، ولكن في تخاذلنا ودس بعضنا لبعض .

نريد أنس الأخوة و صفاءها ، ولكن في حقد وبغض ، وحسد وضغينة .

نريد المناصرة والمؤازرة والتأييد ، ولكن في إذاية بعضنا البعض ، وامتهان هذا لهذا ، وتجاهل ذاك بوجود الآخر .

نريد شرف العلم ومكانته العالية ، ولكن في الزهد في العلم ، وانتقاص أهله ، والإخلاد في مغارات الجهل و توقير ذويه .

نريد نعمة الغنى ووفرة المال ، لكن في الإسراف والتبذير وسوء التصرف .

---

[1] سجل مؤتمر جمعية العلماء المسلمين الجزائريين ، ص 163 -164.

نريد اغتنام الأرباح الطائلة ، ولكن في الكسل والبطالة والتواكل وسوء التدبير.

نريد صيانة العرض وحفظ الكرامة، ولكن في تمزيق الأعراض ودوس الكرامات.

نريد مواساة الفقراء والأخذ بأيدي الضعفاء وجبر قلوب البائسين حتى نمتلك قلوبهم ، ولكن في الشح والغفلة والجفاء وقسوة القلوب))[1].

بعد ذكر هذه الرغبات التي لم يعمل لها، نجد الخطيب يذكر أيضا جملة من الشكاوي التي كانت سببا رئيسيا في تراجع الأمة عن مكانتها ودورها الرسالي يقول ((نشكو إلى الله ما نزل بنا من الخزي والعذاب بسبب انحرافنا عن صراطه المستقيم، ولكن مازلنا نزداد انحرافا وابتعادا عن دينه القويم، وهو لا يزال يسلب منا نقمه، وينزل علينا نقمه، مادمنا كذلك.**{إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم}*** نشكو ما بلغنا عليه من حضيض الذلة والمهانة : ونحن مازلنا نتنافس في أسبابها ونتسابق في دركاتها .

نشكو ابتزاز أموالنا، وسلب أملاكنا، واغتصاب أراضينا، ونحن بأيدنا نهبت، وبمساعينا سلبت، وبسفهنا غصبت .

نشكو كساد تجارتنا، وبوار فلاحتنا، وموت صناعتنا، ونحن – لا غيرنا – كنا السبب في ذلك الكساد والبوار والموت، ولا ذنب للغير إذا أهلكت أخاك وأحييته، وأخنقت أخاك وأنعشته، ونبطت أخاك وشجعته، وفرغت جيبك وملأت جيبه، وخربت خزانتك و عمرت خزائنه ، فالذنب ذنبك .

نشكو الفقر وضعف الحال : ولكن مصاريفنا في الكماليات أو الموبقات في القهوة والشاي والدخان والنفة والسينما والمسارح والمراقص ودور القمار والحانات والمواخير تفوق مصاريفنا في الضروريات والحاجيات .

نشكو وهننا وضعفنا، وتشتت وحدتنا وذهاب ريحنا، ولكن مازلنا في النزاع والخصام على النقير والتطمير والتوافه والسفاسف من الأمور .

نشكو عقوق الأولاد وتمرد الشباب، وجمود الكهول وخراف الشيوخ، ونحن مازلنا نتسكع في دياجير الجهل وظلام الأمية .نشكو

---

[1] المصدر السابق ، ص 164 - 165.

*** الرعد / 11.**

من البلاد، وإرهاق العباد، ونحن مازلنا لم نقدر أن نحرر أنفسنا من رهن الشيطان ،واسر الشهوات و الهوى .

نشكو امتهان القوي للضعيف، واحتقار الغني للفقير، ونحن كلما نال أحد منا سببا من أسباب القوة، أو حظا من حظوظ الغنى تنمر للضعيف زميله بالأمس، واستنر من الفقير صاحبه من قبل))[1].

فهذه الآفات الاجتماعية التي أحيطت بالأمة من كل جانب أنهكت قواها ، فلا مناص منها ما لم تأخذ بالأسباب الكونية في علاج ما حل بها ، لكن مخالفة سنن الله في خلقه يورث الانحلال و الاضمحلال و التبعية الممقوتة . لذلك وجدنا الخطيب يؤكد على أن عز الأمة و سعادتها إنما يكون بعدم مخالفة سنن الله في خلقه ، و لمنطوق أهل العقول و أولي البصائر يقول : ((و هل بهذا و أمثاله ننال ما نصبو إليه – أيها السادة – من الأماني و الرغائب و نظفر بمعنى من معاني السعادة الحقيقية ؟ كلا و ألف كلا.

إن منطقا كهذا فاسد المقدمات عقيم النتائج ، فهو يقتضي أن يكون النزول إلى أسفل، معناه صعود إلى أعلى، والسير إلى الغرب، معناه السير إلى الشرق، والبحث عن أسباب الموت ، معناه البحث عن أسباب الحياة ، والسعي في أهداف التعاسة والشقاء، سعي في وسائل الغزو والسعادة .

وهذا مخالف لسنن الله في خلقه ، ولمنطوق أهل العقول وأولي البصائر))[1].

أما الشيخ بيوض يتحدث في خطبة له عن حالة الأمة التي أصيبت بمختلف الآفات الممزقة لعرى شبكة العلاقات الاجتماعية . فيقف موقفا صارما تجاه مرتكبي هذه الآثام المهلكة ويصور حالتهم التي هم عليها قصد تعريتهم وفضحهم أمام المجتمع حتى يرتدع المسيء ويثبت المحسن على إحسانه يقول: ((يهبط الناس بلحي بيضاء زرافات وحدانا إلى هذه الأماكن يستحي أحدهم أن يرى في المسجد، ولا يستحي أن يرى في دور الخنا، يتزين أحدهم لا ليقف في المسجد أمام ربه،عملا بقوله تعالى:**{خذوا زينتكم عند كل مسجد}*** ويطلب

---

[1] المصدر السابق ، ص 165 - 166.
[1] المصدر السابق ، ص 166 - 167.
*** الأعراف/ 31.**

بذلك مرضاته ،ولكن ليكون مخطيا عند فاسقة ، مرضيا لديها ، ينافس بذلك الفساق أمثاله))[2].

فهذه الآفات الاجتماعية التي تفشت في المجتمع ساعد على انتشارها أولئك الذين يحاربون الإصلاح و يعترضون طريق كل آمر بالمعروف حتى عمت البلوى في البلاد التي سببها الخمر والزنا والقمار ((نحجر على الطاعات، ونحارب العلماء والمتعلمين، والمدارس والمشاريع الخيرية، ونترك الناس يفعلون ما يشاءون،خمور متدفقة، فسوق منتشر، سرقات شائعة، وقمار وقع فيه كثير من رجال الأمة، وموبقات أخرى كثيرة سببها الخمر والزنا))[1].

أمام انتشار هذه المفاسد في المجتمع فإن تحمل المسؤولية للحد من تفشيها يتولاها الجميع لا تسقط عن أحد من أفراد المجتمع لأن عقاب الله إذا جاء يطال الجميع: ((إن المسؤولية مشتركة عامة، يجب على شخص معرفة المفسد من المصلح، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر،وإلا فإن عقاب الله الشديد يعمنا جميعا... إن الفاحشة لا تظهر إلا باختفاء الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، لموت الشعور والضمير الديني،فيعاقب الله أصحابه بالموت لأنهم أموات لا يشعرون،إذ استعلنت الفاحشة في قوم أصبحوا كلهم مستحقين للعقاب))[2]

فالمجتمع الجزائري يعج بالآفات الاجتماعية التي أفسدت عليه دينه ودنياه وما زاد في تكريسها ذلك الداء العضال المتمثل في التقليد الأعمى الذي قيد الفكر وأسره. وذلك ما تحدث عنه الشيخ علي بن سعد القماري في خطبته أمام إخوانه من أعضاء جمعية العلماء العاملين يدعوهم إلى إنقاذ الأمة الجزائرية من ربقة التقليد والعمل لحرية الأفكار .

فهذا المرض الفتاك فد منع الأمة من النظر في شؤون حياتها وعطلها عن دورها الرسالي المنوط بها بل صيرها إلى شتات ممزق وفكر أسير. فإذا ما حاولت إرجاعها إلى صوابها ورشدها لاقيت عنادا مظلما وقساوة متأججة حتى أنك تخال نفسك أمام جماد لا يتحرك ساكنا ((هو المرض الفتاك ،والداء العضال مانع يمنع الأمة من النظر

---

[2] محمد علي دبوز ، أعلام الإصلاح في الجزائر، مطبعة البعث ، قسنطينة ، الجزائر، جـ4، ط1، سنة 1974م، ص 85 .

[1] المرجع السابق ، جـ4 ، ص 85.

[2] المرجع نفسه ، جـ4 ، ص 87.

في شؤون الحياة، ويبعث فيها عوامل الشتات تفعل ما يفعله لاعن روية وبصيرة، بل عن تقليد أعمى وفكر أسير فإذا ما حاولت إرجاعها عن غيها وضلالها، وظلمها وطغيانها، قاسيت في سبيل ذلك اشد المقاساة و لحقت بك ما كنت تجعله من المصائب والنكبات وربما لا توفق في ذلك بعض التوفيق حينما تندبها إلى العمل بأقوم طريق، فلا تجد أمامك إلا أذانا صما وقلوبا غلفا -فتخال نفسك تخاطب الجماد فتحكم عليهم بالبعد عن الرشاد-وكيف لا تحكم وهم فقدوا حرية التفكير.فأصبحوا لمن قلدوهم كالأسير))[1].

فالمقلد شخص مسلوب الإرادة و القدرة على التفكير . وهذه الظاهرة تفشت في المجتمع الجزائري ، ما جعل الخطيب يشخصها و يتحدث عن مساوئها .

وقبل ذلك يشير إلى حقيقة خلق الإنسان فهو ذلك المخلوق السوي في جميع أحواله ، ولكن عندما يعطل عقله ويستجيب لإرادة غيره فإنه يقع في هاوية التقليد الذي حذر منه الخطيب ، لذا يريده أن ينتفض و يعود إلى رشده و يستجيب لأمر الله حتى يتخلص من ربقة التقليد الأعمى ((أيها الإخوان : إن الله عندما أبرزنا إلى الوجود خلقنا أحرارا في ذراتنا أحرارا في أفكارنا – أحرارا في عقيدتنا و ما ذاك إلا لبعدنا عن الوقوع في هاوية التقليد لأن المقلد لا إيمان له وهب أن له بعض الإيمان فهو ليس على النضال والدفاع عنه وقت الخصام – وكفانا على ذلك شهيدا ودليلا – قول المولى جل وعلا – **{لا إكراه في الدين قد تبين الرشد من الغنى}***، وعدم الإكراه في الدين هو عدم إلزام أحد بإتباعه إتباعا تقليديا لا عن تبصر وتفكير))[1].

إن التقليد يقعد الأمة عن أداء دورها ويجعل بينها وبين اتخاذ أسباب النهوض بل يعطل حرية الفكر لديها حتى تضحي مولعة بتقليد الغالب فتفقد شعورها وإحساسها بالواجب كما تفقد خضوعها لسلطان الحق و الأحرى بها أن تتخلص من أسباب التقليد وترسل النظر فيما من شأنه أن يحقق لها عزها وسعادتها((أيها الإخوان: إن من الآفات التي تقعد بالأمم عن الأخذ بأسباب النهوض هي من غير شك عدم إرسال النظر فيما من شأنه أن يزود عن كيان الأمة ويبعث فيها الشعور والإحساس اللذين بهما يعرف بنو الإنسان الواجب عليهم

---

[1] سجل مؤتمر جمعية العلماء المسلمين الجزائريين ، ص 197.

*** البقرة / 256.**

[1] المصدر السابق ، ص 197 - 198.

فيهبوا مسرعين للقيام بأدائه لا تأخذهم في ذلك لومة لائم ومقالة عاذل .

ولا يقوم بأداء الواجب إلا أحرار الفكر – فحرية التفكير تبعث في الشخص الفهم ومن فهم شيئا اعتقده ودافع عنه وصار عنده واجب لا بد من حمايته والذب عنه.حرية الفكر هي أساس النجاح – والباعثة على الفلاح فإذا تكونت في أمة من الأمم صيرت فيها رجالا أحرارا لا يخضعون إلا لسلطان الحق ولا يذعنون لقوة إلا لقوة الحق فتمتلئ قلوبهم إيمانا ويضعوا لأمتهم أركانا))[1].

فالحالة التي تعيشها الأمة لم تعجب الخطيب لذا يدعوا قادة الأمة ومرشديها إلى تدارك الأمر والسعي حثيثا لإنقاذها لأن حياتها حياة الجميع وموتها موت للجميع((فما على قادة الأمة وهداتها المرشدين إلا أن يسعوا سعيا جديا لإنقاذ أمتهم التي يعتبرون حياتها حياة لهم وموتها موتا لهم من هاوية التقليد وأن يأخذوا بيدها إلى ميدان حرية التفكير ويكون إرشادهم إلى ذلك بالغ الحد بتفهيمهم بالأدلة العقلية والبراهين المدعمة بالحجج القطعية))[2].

ومهمة التغيير والسعي لإنقاذ الأمة محفوفة بالمكاره وبخاصة إزاء إرشاد الذين ابتلوا بالجمود وتعطيل العقول التي سيطر عليها التقليد فهم لا يستجيبون لنداء الحق، لكن هذا ليس مدعاة للتخلي عن أداء واجب النصح والإرشاد فهو الطريق الوحيد لتحرير العقول من ربقة التقليد الأعمى وإرجاع مجد الأمة وعزها : ((أيها الإخوان : كلكم يعلم ما يلاقيه دعاة الإصلاح من أعراض البعض الذين ابتلاهم الله بالجمود وما ذلك إلا لكون العقول قد عم عليها الجهل وطم بها مرض التقليد فصارت لا تفقه حديثا ولا تسمع نصحا فيا لها من مصيبة دهماء أصابت الأمة في حبة قلبها فتركتها ترعى الحنضل والصاب، وتتمرغ في أنواع من العذاب، فواجب النصيحة معشر الإخوان يحثنا على القيام بأداء هذه المهمة فبها تحرر النفوس من ذل التقليد وتتبارى في السباق إلى التجديد وأن كل أمة ابتليت بداء التقليد فقد أضاعت رشدها وضلت سواء السبيل وتركت أعظم ميزة منحها الإنسان ألا وهي العقل فيطرقها الخلل في أعمالها المادية والأدبية فتصبح مملوكة للغير يصرفها حيث شاء من غير أن تبدي ولا تعيد.

---

(1) المصدر السابق ، ص 198- 199.
(2) المصدر نفسه ، ص 199.

فإذا كانت لنا عزيمة على إرجاع مجدنا الغابر وعزنا الدائر فما علينا إلا أن نطلق للفكر سراحه يصول ويجول))[1].

ثالثا : موضوعات دينية وتربوية :

لا شك أن جمعية العلماء المسلمين الجزائريين كانت جمعية دينية إصلاحية من مقاصدها إصلاح المجتمع الجزائري في مختلف جوانب حياته، متسلحة في ذلك بمبادئ الإسلام وتعاليمه التي تهدف إلى ربط الإنسان بخالقه حتى يتحرر من القيود المكبلة لإرادته و ينطلق نحو التغيير المنشود، وقد استطاع رجال الإصلاح في الجزائر من خلال الخطابة تبليغ رسالة الجمعية التي وجدت قبولا واستحسانا من جموع الأمة مما هيأ أجواء مناسبة لإصلاح الواقع الجزائري.

فمن الناحية الدينية والتربوية ألقيت كثيرا من الخطب تعالج واقع الناس وتحاول بناء الإنسان الجزائري بناءا متكاملا هذا ما سنلاحظه من خلال نماذج خطابية مختارة تناولت قضايا كثيرة تهدف إلى الإصلاح الديني والتربوي في المجتمع منها: خطبة الإمام ابن باديس التي ألقاها بمناسبة ذكرى المولد النبوي الكريم تحدث فيها عن فضائل الإسلام الذي جاء به صاحب هذه الذكرى الحامل للواء الهداية التي لا يسعد العالم سعادة حقة إلا إذا تمسك بها.

فالمناسبة عظيمة أحياها الشعب الجزائري مع الملايين من المسلمين في أنحاء المعمورة احتفاء وتعظيما بذكرى مولد خير الخلق (صلى الله عليه وسلم)((لسنا وحدنا في هذا الموقف الشريف لإحياء هذه الذكرى العظيمة،بل يشاركنا فيها نحو خمسمائة مليون من البشر في أقطار المعمورة كلهم تخفق أفئدتهم فرحا وسرورا وتخضع أرواحهم إجلالا وتعظيما لمولد سيد العالمين))[1].

فهذه الأعداد الهائلة من المسلمين الذين جمعتهم مناسبة ذكرى المولد النبوي الشريف لو استشعروا أسرارها وتفهموا معانيها فأدركوا حقيقة وقيمة مسؤوليتهم وذلك بأداء دورهم الرسالي إزاء البشرية وقدموا لها أعمالا جليلة ((قلوب خمسمائة مليون هذه قوة كبيرة في هذا العالم مرتبطة بالحب متذرعة بالإيمان فلو شعرت حقيقة الشعور ببعضها لأثمرت للإنسانية فوائد كبرى وعملت لها أعمالا عظيمة))[2].

---

[1] المصدر السابق ، ص 199.

[1] عبد ابن باديس ، آثاره جـ 6، ص 46.

[2] المصدر نفسه ، جـ6، ص 47.

فالذكرى الخالدة شاركت فيها كل الإنسانية لأن صاحب هذه المناسبة جاء بالإسلام الذي كان سببا رئيسا في تحرير العقول والرقاب وبسط العدل والمساواة بين الجميع فذاقت البشرية حلاوته واستطاعت تحقيق مقاصده في خدمة العلم والمدنية في أنحاء المعمورة ((بل تشاركنا في موقفنا هذا الإنسانية كلها وإذا لم يكن بلسان مقالها فبلسان حالها.فمن الإسلام الذي جاء به صاحب هذه الذكرى عرفت الإنسانية وذاقت حرية العقول والرقاب، ومنه عرفت وذاقت العدل على أتم معناه، ومنه عرفت وذاقت المساواة بين العباد فيما هم متساوون فيه، وبهذه الأصول العظيمة أمكن اشتراك أمم كثيرة تحت راية الإسلام في خدمة العلم والمدنية حتى أزهرت رياضهما وسمت صروحهما في الشرق والغرب واغترفت من معينهما أبناء الإنسانية جمعاء))[1].

إن فضائل الإسلام على أبناء الإنسانية في مختلف جوانب حياتها أكثر من أن تحصى، ففي المجال الحضاري مثلا استطاع الاستفادة من المدنيات السابقة في بناء مدنية متينة أشرك فيه جميع الناس وهذا ما يدعى في بناء الحضارات بإكمال عمل اللاحق لعمل السابق ((نقلت المدنية الإسلامية أصول المدنيات السابقة نقل الأمين. ونخلتها نخل الناقد البصير، وزادت عليها من نتائج أفكارها وثمار أعمالها ما كان الأساس المتين لمدنية اليوم))[2].

إن الواقع يشهد على حقيقة فضائل الإسلام على الإنسانية جمعاء بما قدمه علماءه من خدمات جليلة اعترف بها أكثر من واحد من عقلاء الأمم الأخرى، والأمثلة العملية كثيرة أورد بعضها صاحب الخطبة في كلامه وهي دليل واضح على الاعتراف بتلك الفضائل التي ساهمت في خدمة العلم وبناء الإنسانية منذ أمد بعيد ((هذا الذي نقوله يعترف به العلماء المنصفون من الغربيين أنفسهم ويشهد به مثل قانون ابن سينا الذي لا زال يدرس إلى القرن الثامن عشر في جامعاتهم ومثل مقدمة ابن خلدون التونسي تلميذ مواطنين شيوخ تلمسان، واضع علم الاجتماع المترجمة إلى جميع لغاتهم.

كنا نسمع هذا الاعتراف من الأفراد لكننا اليوم صرنا نسمعه من الأمم، ففي العام الماضي كان احتفال إسبانيا أمتها وحكومتها بانقضاء ألف سنة على تأسيس الخلافة الإسلامية في قرطبة، ومعنى ذلك

---

[1] المصدر السابق ، جـ6، ص 47.
[2] المصدر نفسه، جـ6، ص 47.

الاعتراف لهذه الخلافة الإسلامية العربية بفضلها على مدنية اليوم، ورفعها منار العلم والعمران أيام كانت أمم الغرب في همجية عمياء، وفي هذه السنة كان الاحتفال في جامعة ألمانية ببرلين، بذكرى أبي القاسم الزهراوي الأندلسي الطبيب الجراح الذي لا تزال نظرياته واستنباطاته معتمدا عليها إلى اليوم، وكان الاحتفال في القاعة الكبرى التي لا يحتفل فيها إلا بأكابر العلماء الذين خدموا الإنسانية خدمة جليلة، ومعنى هذا الاعتراف لعلماء العرب بخدمة العلم والإنسانية في ظل الإسلام منذ قرن))[1].

فهذا الإسلام الذي جاء به صاحب هذه الذكرى يعد أبو المدنية التي تفردت بخصائص تميزها عن غيرها من المدنيات الأخرى، فهي قد خدمت الناس وقدمت لهم الكثير من الأعمال في كافة المجالات مما يؤكد مشاركة الإنسانية جمعاء في الاحتفال بهذه المناسبة العظيمة : ((فالإسلام الذي جاء به صاحب هذه الذكرى هو أبو المدنية أمس واليوم –وأعني بمدنية اليوم- المدنية من جهة العلم والعمران، لا من جهة الأخلاق والاجتماع فهنالك ما يتبرأ منه الإسلام.

لا عجب بعد هذا البيان أن نقول : أن الإنسانية تشاركنا بالاحتفال في هذا المقام))[1].

بعد أن تحدث الخطيب عن فضائل الإسلام وما قدمه للبشرية من خدمات جليلة يعود بالحديث عن صاحب هذه الرسالة السماوية وعن دواعي إحياء ذكراه : فهو النبي الكريم المحسن الذي لا يضاهيه أي إنسان في إحسانه، فكان بذلك رحمة للعالمين. فحري أن يكون هذا النبي أحب إلينا من أنفسنا وأموالنا ومن الناس أجمعين؛ إذ مثل هذه المحبة تدعونا إلى الإقتداء به والتشبث بسنته وتجديد ذكرى مولده في كل عام : ((إن الشيء يحب لحسنه أو لإحسانه، وصاحب هذه الذكرى قد جمع –على أكمل وجه- بينهما، فله من الحسن ما كان به أكمل الناس حتى اضطلع بالقيام بأعباء ما جاء به، ويعرف ذلك الكمال من درس أي خلق من أخلاقه وأي يوم من أيامه. وله من الإحسان ما أنقذ به البشرية، وكان رحمة خاصة وعامة، وعم الإنسانية جمعاء على ما قدمنا في البيان فمن الحق والواجب أن يكون هذا النبي الكريم أحب إلينا من أنفسنا وأموالنا ومن الناس أجمعين، ولو لم يقل لنا في حديثه الشريف : {لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحب إليه من ولده ووالده

---

[1] المصدر السابق، جـ6 ، ص 47 -48.
[1] المصدر السابق، جـ6 ، ص 48.

والنـاس أجمعـين}* وكـم فينـا مـن يحبـه هـذه المحبـة ولـم يـسمع بهـذا الحديث.

فهذه المحبة تدعونا إلى تجديد ذكرى مولده في كل عام))[1].

فمحبة هذا النبي الكريم يجمل أن تستثمر في حياتنا، فكل خلق من أخلاقه وكل عمل من أعماله دعوة إلى التأسي به وبمنهجه في الحياة. فعلى البشرية الاهتداء بسيرته حتى تسعد بحياتها : ((إن محبتنا فيه تجعلنا نحب كل خلق من أخلاقه، وكل عمل من أعماله، ففي ذكريات مولده نذكر من أخلاقه ومن أعماله ما يزيدنا فيه محبة، ويحملنا على الإقتداء به، فنستثمر تلك المحبة بالهداية في أنفسنا، ونشرها في غيرنا، تلك الهداية التي لا يسعد العالم سعادة حقة إلا إذا تمسك بها))[2].

في خطبة أخرى بمناسبة ذكرى المولد النبوي الشريف يوجه فيها ابن باديس كلامه للمسلمين يدعوهم إلى طريق النبي (صلى الله عليه وسلم) ويذكرهم بمكانتهم بين الناس؛ إذ تعد ذكرى مولده بمثابة النور الذي كان السبب الرئيس في هدايتهم إلى الإسلام؛ بحيث أحدثت هذه الهداية انقلابا شاملا في حياتهم لذلك ينبغي العودة بالذكرى إلى حياته (صلى الله عليه وسلم) والإقتداء به في المنشط والمكره لأن ذلك سر نجاحهم وسعادتهم في الدارين : ((أيها المسلمون : في مثل هذا اليوم انبثق النور الذي هداكم الله به إلى الإسلام، فأخرجكم من الظلمات إلى النور، وجعلكم خير أمة أخرجت للناس، ما دمتم تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر وتؤمنون بالله، فعودوا بالذكرى إلى حياة هذا النبي الكريم، فاستمدوا منها نور إيمانكم وجددوا بها صرح توحيدكم وحصنوا بها قلوبكم من جهالات الغفلة وظلمات الشرك، ونزعات الشياطين، وانظروا إليه في نشأته، وقبل نبوته، كيف كان بعيدا عن حياة الجاهلية وهو بين أهلها، وكيف كان يتوجه إلى الله والعرب غارقة في وثنيتها، وكيف كان يحمل مما يرى من الجهل والضلال أثقالا ينوء بحملها، حتى جاءه الحق الصريح، والهدى البين، والنبأ الصادق بالرسالة العامة، فقام بأعباء ما حمل مبلغا عن الخالق، شهيدا على الخلق، مبشرا ونذيرا، وداعيا إلى الله بإذنه وسراجا منيرا،

---

* **السيد عبد الرحيم عنبر الطهطاوي ، هداية الباري إلى ترتيب صحيح البخاري، دار الرائد العربي ، بيروت ، لبنان، جـ2 ، ط5، سنة 1982م ، ص 280.**

[1] **عبد الحميد بن باديس، آثاره ، جـ6، ص 48 - 49.**

[2] **المصدر نفسه، جـ6، ص 49.**

فجاهد وجالد، وصبر وصابر لمدة قضاها ثلاثا وعشرين سنة مثالا أسمى للإحسان والكمال، ونورا ساطعا للأجيال، حتى تمم الله النعمة، وأكمل الدين، ودخل الناس في دين الله أفواجا، وتركها بيضاء نقية، لن يهلك عليها إلا هالك، فإلى هذا الطريق أيها المسلمون ففيه نجاحكم وسعادتكم إلى يوم الدين))[1].

وهذه خطبة منبرية يتحدث فيها الشيخ عن سر الضحية في يوم الحج الأكبر الذي جعله الله عيدا للمسلمين وشرع فيه للبشرية ما يزكيهم ويسعدهم في دنياهم ومناسبة كبرى للتذكير بسيرة إبراهيم الخليل (عليه الصلاة والسلام) الذي وقف موقف العاقل المتدبر، فحاج قومه وبين لهم وجه الصواب صابرا محتسبا أمره لله حتى نجاه الله من كيدهم وجعلهم الأخسرين ((فهذا يوم الحج الأكبر والموسم الأشهر، جعله الله عيدا للمسلمين، وشرع فيه ما شرع من شعائر الدين، تزكية للنفوس، وتبصرة للعقول، وتحسينا للأعمال، وتذكيرا بعهد إمام الموحدين، وشيخ الأنبياء و المرسلين، إبراهيم الخليل عليه وعليهم الصلاة والسلام أجمعين.

فقد كسر الأصنام، وحارب الوثنية، وحاج قومه وما كانوا يدعون من دون الله، وقام يدعو ربه وحده طارحا ما سواه، وحاج الملك الجبار حتى بهت الذي كفر، وقذفوا به في النار فما بالى بها ولا بهم وثبت وصبر حتى نجاه الله وجعل الذين أرادوا به كيدا هم الأخسرين))[1].

فهذا النبي الكريم امتحن امتحانا عظيما في ابنه الوحيد حين أوحي إليه أن يذبحه فاستجاب لإرادة الله، وامتثل الابن للأمر بعد استشارته فكانت النهاية أن فداه الله بذبح عظيم، وبقيت المناسبة عيدا للمسلمين ودرسا عمليا يتعلم منه المسلم الصدق في القول والفعل، والتضحية بالنفس في سبيل الله ((وأوحى الله إليه بذبح ابنه فامتثل، واستشار ابنه إسماعيل فأجاب وقبل، فطرحه للذبح وأسلما لله في القصد والعمل، ففداه الله بذبح عظيم، وترك عليه في الآخرين سلام على إبراهيم، وأبقى سنة التضحية في الملة الإبراهيمية، والشريعة المحمدية، تذكارا بهذا العمل العظيم، والإسلام الصادق لرب العالمين، ليتعلم المسلمون التضحية لله بالنفس والنفيس، وليعلموا أن المسلم من صدق قوله فعله، ومن إذا جاء أمر الله كان لله كله.

---

[1] المصدر السابق، جـ6، ص 315 - 316.

[1] المصدر الساق ، جـ4 ، ص 173.

فتدبروا أيها المسلمون في هذا السر العظيم ومرنوا أنفسكم على التضحية في كل وقت في سبيل الخير العام بما تستطيعون، ولا تنقطعوا عن التضحية ولو ببذل القليل، حتى تصير التضحية خلقا فيكم في كل حين، واجعلوا قصة هذا النبي الجليل نصب أعينكم، وتدبروا دائما ما قصه الله منها في القرآن العظيم عليكم))[2].

هذا عن الحث للتدبر في سيرة شيخ الأنبياء إبراهيم الخليل (عليه الصلاة والسلام) أما فيما يخص قضية الصوم والإفطار في الجزائر فقد وجدنا ابن باديس يوجه كلامه إلى عموم المسلمين الجزائريين يحذرهم من الخلاف الذي يقع كل عام بمناسبة حلول شهر رمضان، إذ يراه السبب الرئيس في كل شر في البلاد وبخاصة إذا تناول الدين فتكون آثاره مضرة في الأمة ومدمرة لكيانها ((أيها الإخوة الكرام : إن الخلاف كله شر، وشره ما كان في الدين، وأشنع أنواعه وألمها لكل ذي غيرة على دينه ما يقع كل عام بهذه الديار من اختلافكم في الصوم والإفطار.

وإن الشؤون الدينية إذا أخرجت على الاعتبارات الدينية و تناولتها أيدي التعصب صارت إلى شر المصائر وكان من آثارها في الأمة الجفاء والتعادي، ثم التشتت والاختلاف، ثم الوهن والانحلال))[1].

فالتعصب ما دخل شيئا إلا أفسده وبخاصة في الدين الذي يعد مناط الوحدة ومعقد ارتباط الأمة وهذا ما أشار إليه الخطيب وحذر منه ومن نتائجه المهلكة دون أن ينسى التذكير بتوجيه القرآن وتحذيره من مغبة التفرق في الدين ((إن مسألة الصوم والإفطار خرجت عندنا من باب الاعتبار الديني إلى باب التعصب الشخصي أو الحزبي، ومن آيات ذلك أن أصبحنا نرى في هذه الأمة من يصوم لأن فلانا مفطر و من يفطر لأن فلانا صائم ومن القبيح الشنيع أن نجعل الدين –الذي هو مناط وحدتنا ومعقد ارتباطنا- موضوع اختلافنا ودائرة تفرقنا وسبب تفكك رابطتنا.

قد حذرنا القرآن الكريم –وهو الحجة القائمة علينا- من التفرق في الدين مدرجة لمفارقته فهل من مُدّكِر))[1].

---

[2] **المصدر نفسه ، جـ4، ص 173 -174.**

[1] **المصدر السابق، جـ6 ، ص 68.**

[1] **المصدر السابق، جـ6 ، ص 68.**

فهذا الاختلاف في أمر الصوم والإفطار يفتقر إلى دليل وينجذب إلى التعصب الممقوت الذي ضرب الأمة في وحدتها وجعل الهوى الحاكم في شؤون دينهم وهذا ما دل عليه قول الخطيب : ((ولو كان هذا الاختلاف من باب اختلاف العلماء فيما لا نص فيه أو فيه ظاهر يقبل التأويل على وجوه من النظر شتى لكان للمختلفين عذر قائم ووجهة سديدة ولكنه اختلاف يمت إلى الهوى بأقرب الأنساب وينجذب إلى التعصب بأوثق الأسباب وحجته الداحضة قولهم : رأى بنو فلان ولم نر، مع أن السماء واحدة والعيون في الأبصار متكافئة كأن الله جعل الرؤية شرطا عينها في الصوم العيني ولم يجعل الله ذلك ولكن الهوى جعله))[2].

فالذي يحدث في الأمة من اختلاف في الصوم والإفطار قد أثر في الخطيب تأثيرا بالغا مما دفع به إلى محاولة تغيير الواقع الذي أصبح الاختلاف فيه شعار كثير من أبناء الأمة، فهذا التغيير اعتمد فيه الخطيب على الكلمة الهادفة والأسلوب المؤثر حتى تثوب الأمة إلى رشدها ذلك ما نلمسه بوضوح من خلال قوله : ((أيحسن في الشرع أو يجمل في الذوق أن يكون في القبيلة الواحدة مفطر وصائم ثم لا يكفي ذلك حتى يكون في البيت الواحد مفطر وصائم.

أيحسن في الشرع أو يجمل في الذوق أن تكون في البلد الواحدة أسرة مبتهجة بالعيد بطالعه السعيد كبارها يتقبلون التهاني والتبريكات وصغارها يتقلبون في صنوف الأفراح والمسرات بينما جار الجنب صائم ممسك وأولاده يتحرقون حسرة ويتميزون غيظا وإن كانوا لا يدرون على من؟ولو كان الفرق يوما واحدا لهان الأمر ولكنه اليومان والثلاثة، فلا عجب إذا كان هذا الحال من أسباب الضغائن والحقود تحملها القبيلة للقبيلة والأسرة للأسرة ثم يحملها الأولاد وللأولاد))[1].

فالاختلاف شر يورد المهالك فعلاجه لا يتم إلا بعودة الأمة إلى دينها الذي هو سر وحدتها ونجاحها ذلك ما أشار إليه الخطيب وهو يتحدث عن حالة الأمة حين تثق بربها وتطبق مبادئ دينها فإنها تنعم بحياتها وتجني ثمرات وحدتها : ((...ولكن الحسن في الشرع والجميل في الذوق هو أن يتحد الناس في الصوم فيصبحون صائمين في يوم واحد يجمعهم الخضوع لأمر الشريعة والظهور بسر الشعيرة وتلوح عليهم جميعا سيمات الإجلال وآثار الجلال، ثم يصبحون مفطرين في

---

[2] المصدر نفسه، جـ6 ، 69.

[1] المصدر السابق، جـ6 ، ص 69.

يوم واحد مستبشرين بنعمة الله عليهم فيصلون ويتزاورون ويشرك غنيهم فقيرهم فيما أتاه الله من فضل ويطوون من تاريخهم صحيفة ختامها عبادة وينشرون منه صحيفة طفراؤها عيد وسعادة فبهذا لا بغيره يجمعون بين امتثال أمر الله وبين تحقيق حكمة الله، وبهذا لا بغيره تتجلى حقيقة الاتجاه الديني المستتبع بالطبيعة للاتحاد القومي.

وبهذا لا بغيره نغتبط بالتآخي ونجني ثمراته ثم نورثه لأولادنا رطبا جنيا وسائغا هنيا))[1].

فوحدة الأمة لا تتم إلا بالعودة إلى دينها الحقيقي؛ لذا وجدنا الشيخ عبد الحميد بن باديس يطرح قضية الإسلام الحقيقي والإسلام المتوارث ويدعو إلى التمسك بالإسلام الحقيقي وذلك بتعلمه وتعليمه للأبناء. فجاءت كلمته تحث على المحبة لله ورسوله والتمسك بالإسلام والعمل به حتى تتحقق مقاصده في آفاق الأرض ((لا يؤمن أحد حتى يكون الله ورسوله أحب إليه مما سواهما، وحتى يكون محمد صلى الله عليه وآله وسلم أحب إليه من ولده ومن روحه التي بين جنبيه، بهذا صحت الآثار النبوية وعليه وقع الإجماع.

وما مظهر هذه المحبة إلا التمسك بالإسلام والمحافظة عليه والعمل على بقائه راسخا في القلوب منتشرا في آفاق الأرض))[1].

فإذا تحققت مقاصد الإسلام الحقيقي ترى المسلم المتشبع بروحه ينتفض ويشعر بالمسؤولية تجاه الواقع الإسلامي في كل بقاع الأرض بينما ترى غيره من الذين ينتسبون إلى الإسلام انتسابا جغرافيا لا يتحرك منهم عرق إزاء ما يحدث للإسلام وأهله ((فترى المسلم الحقيقي إذا هدى الله أحدا للإسلام،أو أقيمت شعيرة من شعائر الإسلام، أو رأى مظهرا كريما من مظاهر الإسلام، كأنما سيقت إليه الدنيا بحذافيرها وإن كان ذلك في بلد غير بلده وقوم غير قومه.

وترى المسلم النسبي أو المسلم الجغرافي –على حد تعبير بعضهم- يرى أبناء المسلمين تتخطفهم أيدي المضللين أو يهملون من التعليم الإسلامي حتى يشبوا جاهلين به وعلى غير مبادئه، ومشربين غير روحه، ولا يربطهم به إلا خيط من العادة رقيق.

ويرى شعائر الإسلام تداس وتهان، ويرى المظاهر المزرية بالإسلام الملصقة كذبا وظلما به تقام -يرى كل هذا- ولا يتحرك منه

---

[1] المصدر السابق، جـ6 ، ص 69- 70.

[2] المصدر نفسه، جـ4 ، ص 65.

عرق، ولا تكون له غيرة ولا حمية ولو كان ما يراه في بلده وقومه وفي نفس أبنائه))[1].

بعد أن تحدث الخطيب عن حقيقة الإسلام والعلاقة التي يجب أن تكون بين المرء ودينه، يطرح قضية تمس الواقع وهي أين الأمة من الإسلام الصحيح والإسلام النسبي المتوارث؟.

الناظر في الواقع بعد هذا الميزان يحكم أن كفة الإسلام النسبي لراجحة مما أثر سلبا في المجتمع الجزائري ويبعث الحزن والأسى في القلوب، غير أن خيط الرجاء يبقى قائما يبعث في ذوي القلوب الحية فسحة للأمل في التغيير.

فالحالة التي أصيبت بها الأمة في دينها ليست عن زهد فيه أو كفر به وإنما يعود الأمر أساسا إلى الجهل بالإسلام وهذا علاجه يتمثل في التعليم ذلك ما ركز عليه الخطيب في كلامه مشيرا إلى الدور الذي تقوم به جمعية العلماء المسلمين الجزائريين في تعليم الأمة وتذكيرها حتى تعود إلى ربها ودينها يقول : ((لنزن أنفسها بهذا الميزان حتى نعرف أين نحن من الإسلام الصحيح والإسلام النسبي أو الجغرافي.

وأن الذي يقوله كل منصف عارف بعد هذا الميزان : إن كفة الإسلام النسبي لراجحة، وأن كفة الإسلام الصحيح لشائلة، وهذا – والله- ما يعظم منه الروع والفزع على الإسلام بيننا، وتشتد عليه اللوعة والحسرة.

غير أن الذي يبقى لنا في المسلمين الرجاء، ويفسح لنا الأمل، ويبعثنا على العمل، هو أن ما عليه أكثرنا ليس عن زهد في الإسلام، ولا عن قلة محبة فيه، وإنما هو عن جهل طال عليه الأمد، وغفلة توالت على الحقب. وللجهل –بحمد الله- دواؤه الشافي وهو التعليم، وللغفلة علاجها النافع وهو التذكير. وما أسست جمعية العلماء المسلمين الجزائريين إلا لهما، ولا أنشأت صحيفتها إلا لنشرهما والقيام بهما.

فليعلم إخواننا المسلمون أن الإسلام دين له عقائد وأخلاق وأحكام، وأن على المسلم أن يعرف من ذلك ما لا يكون المسلم مسلما إلا به، وأن عليه أن يقوم بذلك في أهله وبنيه وبناته ومن في رعايته وكفالته.

وليعلموا أن على من لم يعرف شيئا من ذلك ليس له من الإسلام إلا إسمه، وأنه لا يجني من ثمرات الإسلام ما يكون به عضوا حيا في

---

[1] المصدر السابق ، جـ4، ص 65 - 66.

جسد الإسلام، وأنه لا يرجى منه للمسلين أدنى خير، وأنه ينقلب شرا على الإسلام والمسلمين بعرض قليل يلوح له به.

فليعلموا أنهم إذا أهملوا أبناءهم من التعليم الإسلامي وأخلوهم منه جملة، فإنهم يكونون قد أوقعوهم في هذا الشر كله،وعرضوهم للخروج من الإسلام والانقلاب عليه، وفي ذلك أعظم جناية على أنفسهم وعلى أبنائهم وعلى الإسلام والمسلمين.

فليذكر إخواننا المسلمون هذا وليعملوا على اجتناب هذا الخطر العظيم بتعليم أبنائهم –إلى ما يعلمونهم- ما لا يكون المسلم مسلما إلا به، وما ذلك إلا بتأسيس المكاتب الابتدائية الإسلامية التي تعلم الدين ولغة الدين مثل ما هو مؤسس منها اليوم –على قلة- في بعض البلدان))[1].

وهذا الشيخ محمد البشير الإبراهيمي في خطابه النفيس الذي ألقاه أمام جموع محبي جمعية العلماء المسلمين الجزائريين يحدثهم فيه عن إحياء مجد الدين الإسلامي في قلب كل مسلم في هذا الوطن الغالي؛ إذ بإقامته في النفوس كما أمر الله بتصحيح أركانه الأربعة العقيدة والعبادة والمعاملة والخلق تسترجع الأمة عافيتها وحيويتها بعد أن أصيبت بالاختلال الذي أوقعها في مصائب اجتماعية مهلكة ((فأما إحياء مجد الدين الإسلامي فبإقامته كما أمر الله أن يقام بتصحيح أركانه الأربعة العقيدة والعبادة والمعاملة والخلق فكلكم يعلم أن هذه الأركان قد أصبحت مختلة وأن اختلالها أوقعنا فيما ترون من مصائب وبلايا وآفات))[2].

فالمجتمع الجزائري يعاني من مظالم كثيرة في مختلف الجوانب أفسدت عليه حياته؛ فالعقيدة قد اختلت ولابسها شوب الخرافات والبدع الضالة مما أثر سلبا في النفوس فاهتزت وفقدت الثقة في الله، كما اختلفت العبادات فخوت النفوس واضطربت في سلوكها وفقدت توازنها في الحياة، وتفككت شبكة العلاقات الاجتماعية فتراجعت الفضيلة الإسلامية في المسلمين وحلت محلها الرذيلة وبخاصة عند الاحتكاك بالآخر مما أدى إلى نتائج مفسدة في المجتمع، وعن الأخلاق التي هي ترجمان الإيمان قد اعتراها الاختلال هي الأخرى وهذا بلاء مبين في الدين؛ إذ تعد صمام أمان الأمة ولا تقوم وتحفظ وجودها إلا برسوخ الأخلاق فيها، لذا وجدنا الخطيب يلفت انتباه الناس إلى علاج

---

(1) المصدر السابق، جـ4 ، ص 66 - 67.

(2) محمد البشير الإبراهيمي ، آثاره، جـ1، ص 133.

تلك المفاسد بالرجوع إلى الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر قصد إقامة الدين وبث تعاليمه في المجتمع حتى ينعم بالسعادة ويفوز بالدارين ((اختلت العقائد ولابسها هذا الشوب من الخرافات والمعتقدات الباطلة فضعفت ثقتنا بالله ووثقنا بما لا يوثق به.

واختلت العبادات فخوت النفوس من تلك الآثار الجليلة التي هي سر العبادة والتي هي الباعث الأكبر على الكمال الروحي واختلت الأحكام فانتهكت الحرمات واستبيحت المحرمات وتفككت روابط الأسرة الإسلامية وقطعت الأرحام وتعادى المسلمون وتباغضوا وتنكر الأخ لأخيه –وضعف الوازع الديني الذي يهيئ النفوس للانطباع بطابع واحد فأصبحت مستعدة للتكيف بما يقبح وما يحسن- ثم غلب ما يقبح على ما يحسن فخرجت الفضيلة الإسلامية من عقل المسلم ومن نفسه وحلت محلها الرذيلة – ثم جاء الاحتكاك بالأجانب عن هذا الدين ومعهم عاداتهم وأخلاقهم فوجدت السبيل ممهدا ووجدت نفوس المسلمين عورات بلا مدافع ولا محام فتمكنت فيها ومكنت لغيرها والشر يعدي وكان من نتائج ذلك ما ترون من انحلال وتفكك.

ولو كنا نعبد الله حق عبادته ونبني العبادة الخالصة على عقيدة خالصة، لكان من آثار تلك العبادة في نفوسنا ما يقيها من شرور هذه العوائد العادية.

واختلت الأخلاق وفي اختلالها البلاء المبين وأن الأخلاق في دينكم هي شعب الإيمان فلا يختل خلق إلا وتضيع من الإيمان شعبة- وقد أجمع حكماء الأمم على هذه الحقيقة التي قررها الإسلام بدلائله وأصوله وهي أن الأمم لا تقوم ولا تحفظ وجودها إلا برسوخ الأخلاق الفاضلة في نفوس أفرادها.

ولهذا نرى الإسلام يأخذ في شرطه على أبنائه أن يتآمروا بالمعروف ويتناهوا عن المنكر ويبدئ في هذا المعنى ويعيد ويضرب الأمثال ويبين الآثار ويلفت النفوس إلى الاعتبار بمن مضوا وإلى سنن الله الخالية فيهم.

لو لم يكن من أصول دينكم أيها الإخوة وتعاليمه إلا هذا الأصل –وهو الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر لكفاه دلالة على أنه دين اجتماع وعمران وحياة وبقاء ولو لم نضع فيما أضعنا من تلك الأصول إلا هذا الأصل لكفانا مقتا واستحقاقا لغضبه واستبداله بنا قوما غيرنا))[1].

---

[1] المصدر السابق، جـ1 ، ص 133-134.

وهذه نصيحة دينية للأمة الجزائرية الإسلامية يقدمها رئيس جمعية العلماء المسلمين الجزائريين الشيخ محمد البشير الإبراهيمي بخصوص الصوم والإفطار؛ إذ تفرقت الأمة في ذلك تفرقا شنيعا، والتفرق كله شر وشر أنواعه ما كان في الدين وبخاصة إذا كان منشؤه الهوى والانتصار للذات بحيث تكون نتائجه مضرة وأثره في نفوس غير المسلمين أنهم يتخذون ذلك ذريعة للاحتجاج وهذه أعظم جناية يجنيها المسلم على دينه بأعماله الفاسدة.((أيها الأمة ...إن التفرق شر كله، وشر أنواع التفرق ما كان في الدين، وأشنع أنواع التفرق في الدين ما كان منشؤه الهوى والغرض، ونتيجته التعادي والتباغض وأثره في نفوس الأجانب السخرية من الدين والتنقص له واتخاذ أعمال أهله حجة عليه، وما أعظم جناية المسلم الذي يقيم من أعماله الفاسدة حجة على دينه الصحيح، وما أشنع جريمة المسلم الذي يعرض -بسوء عمله- دينه الطاهر النقي للزراية والاحتقار))[1].

فشهر رمضان شهر تصفد فيه الشياطين وشهر الوحدة لكن حوله المسلمون في الجزائريون كلما حل إلى شهر الفتنة والاختلاف في صومه وإفطاره وانطلق دعاة التفرق إلى تشتيت الأمة متذرعين باسم الفقه في الدين ((أيها المسلمون الجزائريون...في كل عام تفتنون في دينكم مرتين، فتختلفون في الصوم اختلافا شنيعا وتتفرقون في الإفطار تفرقا أشنع، وكلما جاء شهر رمضان الذي تصفد فيه الشياطين انطلقت من بينكم شياطين تدعوكم إلى التفرق في شعيرة لم تشرع إلا للجمع، وتزين لكم الاختلاف في الدين باسم الفقه في الدين))[2].

الخطيب يلفت انتباه الأمة إلى أن هذا التفرق في الصوم والإفطار لم يكن مبنيا على أي دليل صحيح فكل الاعتبارات واهية إزاء كل الإدعاءات فالأمر واضح لا يحتاج إلى ذريعة أو احتجاج ولكنه التعصب والجمود والعناد حتى ضاعت حرمة الشهر الكريم فترى الصائم والمفطر في بيت واحد مما أدى إلى انطفاء بشائر العيد في النفوس، وضعف الإحساس بالمحبة والرحمة وطفت حزازات وعداوات تقطع عرى أخوة الإسلام ((ولو كان تفرقكم في الصوم والإفطار مبنيا على اعتبار صحيح وعلى أسباب ضرورية –كعدم العلم بالرؤية مثلا- لهان الأمر ولكان لكم بعض العذر ولكن في

---

(1) المصدر السابق، جـ2 ، ص 162.
(2) المصدر نفسه، جـ2 ، ص 162.

الأغلب مبني على جمود، وعناد مقصود، وتمحلات فقهية لا ترجع إلى مستند صحيح من النص، ولا إلى برهان صريح من علم، ثم انتهى بكم العناد واللجاج إلى شر ما تقع عليه العين من تفرق واختلاف، وهو أن البيت الواحد يضم صائمين ومفطرين فضلا عن القرية الواحدة، والصائم يرمي المفطر بالموبقات والمفطر يرمي الصائم بالشناعات وبين هذين ضاعت الحرمة الحقيقية والحكمة الحقيقية، و بين البطون الخماص والبطان تتلاشى المعاني العالية التي طواها الإسلام فيما شرع من صوم وشرع من إفطار ويضعف إحساس الرحمة والإحساس وتنطفئ بشاشة العيد وبهجته وإشراقه، ويجف ما يفيض به على المسلمين من خير وأنس وتسامح وحب فانظروا –رحمكم الله- إلى ما يبقي ذلك الخلاف في نفوسكم من حزازات وعداوات وتقطيع لما أمر الله به أن يوصل من أخوة الإسلام))[1].

فشعائر الله ما كانت عبثا إن من مقاصدها جمع الأمة على الدين فما شهر رمضان إلا مقويا للإرادة في الخير والجمع بين القلوب والأرواح ونبذ التشتت وعدم التفرق في الصوم الذي يذهب بجلاله وحكمته والتفرق في العيد الذي يذهب بجماله وبهجته ((إن التفرق في الصوم يذهب بجلال الصوم وحكمته، وأن التفرق في العيد يذهب بجمال العيد وبهجته، وأن الله تعالى ما شرع هذه الشعائر عبثا وإنما شرعها لحكم جليلة أعلاها جمع الأمة على الدين، لتجتمع في شؤونها الدنيوية، وتوحيدها في عبادة الله، لتتربى على الاتحاد في مصالحها العامة المشتركة.

يا للعجب أيكون الشهر الذي جعله الله مقويا للإرادات، ومشددا للعزائم ومطهرا للأرواح ومهبا لنفحات الخير والرحمة والمحبة –سببا للفتور والضعف ومدبا للبغضاء والعداوة؟ أتجعلون من هذا الشهر الذي جعله الله جامعا للقلوب على الأخوة وللأرواح على الطهر وللمشاعر على الإحسان- وسيلة إلى التفريق والتشتيت؟))[1].

ومن خطبه أيضا التي يتحدث فيها عن الإصلاح بين المرء وربه؛ إذ لا يتم إصلاح المرء ما لم يصلح المعاملة مع الله. فما أخر المسلمين إلا الشرك بالله الذي أبعدهم عن الإرادة الحقة والعزيمة الصادقة في التعلق بالله حتى أصبحوا مسيرين في كل شيء

---

[1] المصدر السابق، جـ2، ، ص 162-163.

[1] المصدر السابق، جـ2 ، ص 163.

((...وهيهات أن يصلح المرء ما لم يصلح المعاملة مع الله وما لم تعمل لله وحده وتستغيث بالله وتتصل بالله.

وما أخر المسلمين إلا هذا الشرك الذي أبعد المسلمين عن عبادة الله، لأن الإنسان إذا تلفت إلى جهات متعددة فإنه يصبح بلا إرادة وما الإنسان إلا إرادة وعزيمة فإذا صلحت إرادته صلحت عزيمته وإذا أراد الإنسان إرادة وسعى لها سعيها فإن إرادته تؤدي به إلى نيل سعادة الآخرة ومن أصبح بلا إرادة أصبح مسيرا ونحن الآن مسيرون في كل شيء))[2].

فعلاج هذا المرض المدمر لكيان الأمة لا يتم إلا بما كان عليه رسول الله (صلى الله عليه وسلم) وذلك بإحياء الإسلام في النفوس والتدبر في أي القرآن الكريم والثبات على القوة الحقة في إرادة الخير والتعبير الصادق في التغيير ((فانظروا ذات اليمين وذات الشمال تجدوا المسلمين مسيرين متأخرين في كل شيء، فإن أرادوا أن يكونوا كغيرهم من الأمم فعليهم أن يكونوا كما كان رسول الله صلى الله عليه وسلم فعبروا بما شئتم من تعابير فسموها بحركة أخوة أو حركة إحياء الإسلام لأن الإسلام حي بل إحياء الإسلام في نفوسنا وأن الإسلام لا يقوم بالكم بل بالكيف وتدبروا آيات سورة الأنفال ولم يرد الله إرهاقنا بل أراد أن يثبتنا على القوة الحقة التي هي قوة النفوس التي تستكن في الإرادات))[1].

بعد هذه التوجيهات العامة ينطلق الخطيب بكلامه إلى الأبناء خاصة المعول عليهم في بناء صرح الإسلام وذلك بإعدادهم إعدادا يربطهم بدينهم الحق ليحلموا مشعل التغيير في واقع الناس وذلك بقوة العزيمة وعدم الخوف إلا من الله ((أيها الأبناء : التعويل عليكم بأعدادهم روحيا لا بدنيا فإذا أشرقت أنوار الإسلام وهنالك مشعل البشرية وتصبح بشرية أسرية لأن المسلم إذا مات يعتقد أنه يموت في سبيل الله وينتقل من حياة بعضها شقاء إلى حياة كلها سعادة فكونوا مسلمين كاملين أي كونوا عاملين في سبيل الإسلام وإياكم أن تكونوا أنصاف أناس أو أرباع مسلمين فحاسبوا أنفسكم قبل أن تحاسبوا واقتدوا بالقدوة الصالحة وأن الواحد منا يستطيع أن يقود الملايين بشرط أن تكون النفوس مستعدة ، وأن هذا الشباب إذا تدرب على

---

[2] المصدر نفسه، جـ4، ص 210.
[1] المصدر السابق، جـ4 ، ص 210.

الإقـــدام وقـــوة العزيمـــة وعـــدم الخـــوف إلا مـــن الله فإنـــه يـــأتي بالأعاجيب))[2].

فالشجاعة والإقدام وعدم الخوف إلا من الله يأتي بالأعاجيب وهذا ما كان عليه أسلاف المسلمين فسادوا الدنيا وملكوها بالعدل، وعليه يجب أن ينظر الأبناء إلى ذلك حتى لا يسقطوا في الاعتقاد بالمخلوق والاعتماد عليه حتى لا يستعبدوا ((وأن الله يأتي بعبارات الحصر والخوف **{وإياي فارهبون}*** وأن المسلمين لم يؤخذوا إلا من هذا..فإذا كان المسلم لا يرهب إلا الله فإنه لا يعبد وثنا ولا يهاب ظالما مهما بلغ طغيانه ويوم كان المسلمون كذلك سادوا الدنيا وملكوها بالعدل ولما انتقلوا إلى اعتقادهم بالمخلوق واعتمادهم على المخلوق استعبدوا))[1].

وفي ذكرى يوم بدر بمركز جمعية العلماء المسلمين الجزائريين ألقى الشيخ محمد البشير الإبراهيمي خطابه النفيس ذكر فيه بأيام الله. إن الأمم في هذه الحياة إنما هي بأيامها، والأيام سراء وضراه،وأعمار الأمم إما مشرقة وضاءة وإما مظلمة حالكة السواد كما هو الحال عند الأفراد.

والناظر بإمعان في أيام الأمم الزاهية لم يلفها إلا قليلة جدا وهي تعد العمر الحقيقي لتلك الأمة، وكذلك الحال بالنسبة لأمة الإسلام فأيامها السعيدة تكاد تعد على الأصابع، وما يوم بدر إلا أنموذج حي من هذه الأيام في تاريخ الإسلام والمسلمين الطويل يجمل التذكير به وأخذ العبرة منه كما في تاريخ البشرية أكثر من مثال للتذكير بأيام الله.وتلك حكمة الله البالغة قصد الاتعاظ والرجوع إلى الله والتذرع بالعبر وحسن التأسي ((أما بعد : فإن الأمم تعرف في هذه الحياة بأيامها، والأيام أفراح وأتراح، الفرد فيها كالجماعة، وأن أعمار الأمم منها ما كان كله كالصفحات البيضاء نقاء وإشراقا، ومنها ما كان مظلما حالك السواد، وإذا درسنا بدايات الأمم ونهاياتها –وهي ضاربة في القدم والطول- وجدناها كبدايات ونهايات الأفراد سواء بسواء، وإذا أمعنا النظر في أيام الجميع السارة لم نلفها إلا قليلة جدا، وكذلكم كانت أيام المسلمين الزاهية السعيدة تكاد تعد على الأصابع، وما كان يوم بدر إلا من هذه الأيام القليلة، وما كانت واقعة بدر إلا من هذه الوقائع

---

[2] المصدر نفسه، جـ4 ، ص 210.

*** البقرة / 14.**

[1] المصدر السابق، جـ4 ، ص 210-211.

المشرفة في تاريخ الإسلام والمسلمين الطويل، فلقد حيرت المؤرخين وملأت الاسفار بأسماء أبطالها القليلين، وذكر مآثرهم، وتعداد مناقبهم، وذكر عددهم الحربية المتواضعة، والإشادة بالمكان –كل ميزته أنه به قليل ماء، ما كان يوم بدر إلا يوما من أيام الله في الإسلام –إذن- وهل يحسن التذكير إلا بأيام الله؟ ولقد قال الله تعالى لموسى عليه السلام **{وذكرهم بأيام الله}*** ذكر موسى بني إسرائيل بأيام الله، وذكرهم بآلائه عليهم، ولما لم ينفعهم التذكير، وخالفوا أمر الله وكثيرا ما قتلوا أنبياءهم بغير حق، حقت عليهم كلمة الله، وحاق بهم العذاب وهم لا يشعرون، فكان التيه الذي ظلوا فيه معذبين أربعين سنة، كانت كافية لأن تنهض جيلا من الشباب عزيزا، شديد المراس، يأبى الضيم، ولا يرضى المهانة، وكافية لأن تذهب جيلا من العجزة وشيوخ الهمم الأذلاء الذين درجوا في ساحات الذل، وشبوا وشابوا تحت كلاكل الاستعباد والسخرة المقيتة، وتلك حكمة الله في تذكير الأمم بأيام الله، لتتعظ، وترجع إلى الله، وتتذرع بالعبر والمثلات، وحسن الإقتداء))[1].

فأيام النكبات في تاريخ الأمم عند العقلاء أعظم من أيام الرخاء، وما يوم بدر ويوم أحد إلا من غر أيام المسلمين، فكان الأول نصرا وكان الثاني كسرا إلا أن استيعاب الدرس عن خلالهما كان واضحا عرفوا به مصدر الانتصار ومكمن الانكسار نستشف ذلك من خلال قوله ((إن يوم بدر، ويوم أحد ليعدان .باعتبار آثارهما- غر أيامنا التاريخية، فلقد كان الأول نصرا وكان الثاني كسرا، أفكان يوم أحد شرا على المسلمين، وهم يعلمون ما سبب الهزيمة؟.

إن القيم المعنوية في الرجال، من زكاء النفس، وعلو الهمة، وإطاعة أوامر الله، هو الجانب المعتبر في حياة الرجال، وذلك ما أتاح النصر للمسلمين يوم بدر وهم قلة، وأن الطمع في الأسلاب الحقيرة، ومخالفة أوامر الرسول صلى الله عليه وسلم هما السبب في هزيمة المسلمين يوم أحد، وهم كثرة، وأن القوة المعنوية التي تسلح بها رجال بدر هي التي رجحت كفتهم، ولئن استشهد منهم قليل فقد انتصر الباقي على عدو قوي البأس، محارب بطل، يفوقهم عددا وعدة، وشتان بين من يسترخص الموت من أجل الحياة، وبين من يحاولها لإرضاء الشهوات، شهوات الغلب، ومحبة السمعة الزائفة، ومحاولة تعدي سنن الله وإرادته الرامية للأخذ بيد المستضعف في الأرض، وهو ما هزم

*** إبراهيم / 5.**

(1) المصدر السابق، جـ2 ، ص 297-298.

المشركين يوم بدر وتركهم عظة وذكرى إلى يوم الدين، وكذلكم كانت واقعة أحد درسا قاسيا للمسلمين عرفوا به مصدر الداء، داء الغرور، ذلك المرض الذي ما أصيب به فردا أو جماعة إلا أهلكه، فلا يغترن أحد بنفسه، ولا يغرنه زهوه وخيلاؤه فإن الدائرة في الأخير لا تدور إلا على رأسه، وإن من أعظم أدواء الغرور أن يلبس الإنسان غير لبوسه فيجني نتيجته هزيمة منكرة، ومرارة مستديمة، وتتعطل به قوة الفرد، وقوى الجماعة، وأي خير بعد ذهاب القوة؟))[1].

أما الشيخ العربي التبسي يلقي كلمة حارة بليغة يشحذ فيها العزائم ويستنهض الهمم ويدعو إلى الإقتداء بتعاليم الإسلام وذلك بإتباع نصائحه وتوجيهاته التربوية إذ بدونها لا تستقيم حياة الأمة ولكي تستقيم حياتها وتنال وجودها المحترم يجب على كل أفرادها مراقبة النفس ومحاسبتها قبل محاسبة الناس أو محاسبتهم لها وهذا لن يتأتى إلا بالإلزام النفس على المحاسبة وبذلك تتحقق مقاصد الدين الحقيقي وتسعد به الأجيال اللاحقة ((يجب علينا أن نتعلم محاسبة أنفسنا قبل أن نحاسب الناس، وقبل أن يحاسبنا الناس.يجب علينا أن نكون أشداء على أنفسنا حتى نستطيع أن نحتفظ بهذا الميراث العظيم، وأن نبلغه سليما لأبنائنا من بعدنا))[2].

فحاملو راية الإسلام يجب عليهم التحلي بالروح القوية والهمة العالية والتضحية أكثر من غيرهم في سبيل تبليغ الدين. فهم ليسوا أقل من أولئك المبشرين والمبشرات الذين تركوا الدنيا وراء ظهورهم في سبيل دعوتهم ((يجب علينا –ونحن حاملوا راية الدين والقرآن- أن نكون أقوى روحا، وأعظم همة، وأكثر تضحية من أولئك المبشرين والمبشرات الذين هجروا البلاد والأوطان، والصحب والخلان، وتركوا (باريس) و(لندرة) و(لاهاي) وغيرها يجوبون أقطار الأرض للقيام بدعوتهم، تاركين الدنيا وراء ظهورهم))[1].

فإرضاء كل الرغبات في آن واحد لا يمكن تحقيقها ولكي تتحقق مقاصد الإسلام لا بد من التضحية ونسيان كل ما يدعو إلى التقاعس وإلى الموت مقتدين بماضي الأجداد وبما كانوا يتحلون به من قوة واتحاد ((إنه لا يمكن إرضاء الإسلام والوطن وإرضاء الزوج والأبناء

---

[1] المصدر السابق، جـ2 ، ص 298-299.
[2] العربي التبسي، مقالات في الدعوة إلى النهضة الإسلامية في الجزائر ، ص 201-202.
[1] المصدر السابق ، ص 202.

في وقت واحد. إنه لا يمكن لإنسان أن يؤدي واجبه التام إلا بالتضحية، فلننس من ماضي الآباء والأجداد كل ما يدعو إلى الفتور وإلى الموت، ولنأخذ من ماضيهم كل ما هو مدعاة قوة واتحاد))[2].

فأخذ العبرة درس عملي وطريق قوي للتغيير في الحياة فأبناء الأمة الإسلامية ليسوا أقل من أولئك المبشرين والمبشرات الذين جاءوا ديارنا من أجل بث دعواتهم، لذا يجب على أبناء الإسلام تحمل مسؤولياتهم فهم مؤهلون لذلك وكل أسباب التغيير متوفرة من أجل تحقيق الغايات والقيام بالواجبات والتكاليف التي تزداد يوما بعد يوم ((إن الذين جاءوا ديارنا هذه لم يكونوا أكثر منا مالا وولدا، إنما كانوا أكثر منا علما ونظاما، فلنكن نحن دعاة وبناة العلم والنظام، وفينا والله نواة هاتين القوتين، ولنكن مع ذلك مثال الاستقامة الدينية، فديننا السمح دين أعمال لا دين أقوال، ولنحارب الزيغ في الدين، والضلالة في الإسلام، فالدين الإسلامي لا يتحمل زيغا ولا ضلالة.إنكم ما جئتم هنا، وما تجشمتم عناء السفر إلا من أجل تحقيق هذه الغايات، والقيام بهذه الواجبات.وأن الواجبات والتكاليف لتزداد يوما بعد يوم، وما من يوم طلعت علينا شمسه إلا جاءنا بواجبات جديدة))[1].

فمهمة تغيير الواقع تقتضي تحمل كل الصعاب لذا يجب على أبناء الأمة الإسلامية أن يكونوا جنود الله لنصرة دينه وإنقاذ الأمة من الزيغ والضلال واسترجاع مكانتها بين الأمم.((لنلبس أيها الإخوان جلباب المحن، ولنعمل قلبا وقالبا على أننا جنود الله، ننصر دينه، ونبشر بتعاليمه، ونصلح حال أمته.

فالأمانة التي وضعها الله سبحانه وتعالى على أعناقنا عظيمة شاقة، إن البدع الضالة كادت تستولي على العامة، والأمة كادت تنحل، فلا لغة جامعة، ولا قضاء جامع، حتى كاد أضدادنا أن يقولوا : أن هناك جماعة من البشر تسكن قطر الجزائر، لا أمة تسكن الأرض الجزائرية))[2].

فالاستعداد لمهمة التغيير لا يحملها إلا الرجال وفي الأمة الإسلامية رجال يتشرفون بحمل لواء الإصلاح لاسترجاع مقومات الأمة التي تعد الحارس القوي لكيانها، وهذا لا يتحقق إلا بالصبر والثبات على الطريق ((يجب علينا أن نستعد، وأن نكون رجالا

---

[2] المصدر نفسه ، ص 202.

[1] المصدر السابق ، ص 202- 203.

[2] المصدر نفسه ، ص 203.

يتشرفون بحمل لقب الرجولة الكاملة، وأن نندفع لفتح المستقبل فتحا مبينا، ليسمو الإسلام سموا عظيما، ولتنشر العربية انتشارا ذريعا، ولتنسف –إلى غير رجعة- تلك الخرافات، والبدع، والأباطيل التي هي ضد أخلاقنا، وضد أمتنا، وضد ديننا الحنيف.

فإذا كنتم حقا –معشر العلماء- ورثة الأنبياء، فكونوا عند ظن الإسلام بكم، وسيروا موفقين لصالح أعمالكم **{واصبروا وصابروا ورابطوا واتقوا الله لعلكم تفلحون}**[*]))[(1)].

وهذه توجيهات أخرى من الأستاذ العربي التبسي لإخوانه يحملهم فيها مسؤولية إعداد أجيال المستقبل والاضطلاع بمهمة البناء والامتثال بما جاءت به رسالة النبي (صلى الله عليه وسلم) والإقتداء به في تبليغ الحق والصدع به ((إخواني : إنكم في نظر شريعتنا الإسلامية، وأمتنا العربية، تشغلون من حياة أمتكم ومن ميراثنا الإسلامي، وظيفة من يعد الأجيال الآتية ، ويحمل مقدرات شعب تاريخي عربي، ووظيفة من يهدم الأوضاع الفاسدة الباطلة، ويقيم مكانها الأوضاع الصالحة الصحيحة، وبالتالي إنكم مكلفون إن كنتم أمناء على وظيفتكم، وأمناء على وراثة نبيكم (صلى الله عليه وسلم)، بتمثيل ما جاءت به رسالته من عقائد، كما في سلوككم الشخصي في إظهار تلك الرسالة إلى الناس بمظهرها الحقيقي الصادق الصادع بالحق))[(2)].

فالتكاليف كثيرة والأمة في أمس الحاجة إلى التغيير لذا وجدنا الخطيب يوجه كلامه لإخوانه يحملهم فيه أعباء الإمامة والظهور بمظهر القدوة الصالحة حتى تصلح الأمة وتؤدي دورها الرسالي على أكمل وجه وتفوز بالمستقبل السعيد ((وأنتم أيضا مكلفون بأن تقفوا من أمتكم التي تنظر إليكم نظر المأمومين من إمامهم، تصلح أعمالهم بصلاحهم، وتفسد بفسادهم، وتؤدي المهمة الإنسانية الدينية الشعبية على وجهها إذا أخلصتم أنتم في موقفكم، وإذا استوت ظواهركم وبواطنكم، وإذا سارعتم إلى الأعمال الصالحة بأنفسكم قبل أن تطالبوا بها غيركم، فيومئذ يفرح المؤمنون بكم، ويومئذ يشهد لكم الأشهاد

---

[*] **آل عمران / 200.**

[(1)] **المصدر السابق ، ص 206.**

[(2)] **المصدر نفسه ، ص 156.**

الصرحاء بأنكم للإسلام وللعروبة، وللجزائر وللإنسانية، والديمقراطية البريئة من عيوب المستعمرين))[1].

أخيرا يخلص الخطيب إلى حث إخوانه على الإصلاح ما بينهم وبين الله لأن في ذلك صلاح ما بينهم وبين الناس، كما يدعوهم إلى الامتثال لأوامر ربهم وأن يكونوا القدوة العملية في سلوكهم وأن يعلموا الناس دينهم الذي هو سر نجاحهم وفوزهم في حياتهم ((إخواني : أصلحوا ما بينكم وبين الله، يصلح الله ما بينكم وبين الناس، افعلوا ما أمركم الله به، يدافع عنكم من يريد بأمتكم شرا، اظهروا في أمتكم بأقوالكم وأعمالكم وسلوككم في خلوتكم وفي علانيتكم وفي حالة السراء وفي حالة الضراء، في المنشط وفي المكره، مبتلين أو معافين، بما كان يظهر به الذين أنعم الله عليهم من رجال سلفكم، من أول ظهور نبينا محمد (صلى الله عليه وسلم)، بدعوته الحقة بمكة إلى أيام القادسية واليرموك، اظهروا طلاب هداية ورجال مبادئ، ودعاة إصلاح، علموا الناس أن الإسلام عقائد صحيحة، ومبادئ إنسانية شريفة، وأخلاق فاضلة وتربية قوية، علموا شعبكم، أن عصركم هذا عصر يصلح لمبادئ الإسلام التي تجعل من الإنسانية كلها أسرة واحدة، وتدعو إلى الأخوة الإنسانية الصحيحة القائمة على وحدة العقيدة الحقة، ووحدة النظام الاجتماعي، ووحدة إدارة الحكم وأصول الحكم))[1].

وهذا خطاب الشيخ محمد خير الدين في افتتاح مسجد بني صاف يحث فيه الحضور بإحياء الدين في النفوس والقلوب لأن في ذلك حياة للأمة. وهذا طريقه لا يتم إلا بالدعوة التي يجب أن تشغل بال جميع المسلمين؛ إذ تعد واجبا على كل مسلم لتحقيق النصح والاتحاد والتراحم والتعاطف بين أبناء المجتمع ((لا حياة لهذا الدين إلا بالدعوة ولا حياة لكم إلا إذا قمتم بالدعوة مجتمعين كما سنها الله وكما قام بها أصحاب محمد (صلى الله عليه وسلم). ليست الدعوة واجبة على العلماء وحدهم، إذ الدعوة إلى دين الله واجبة على كل مسلم : الدعوة إلى النصيحة، إلى الاتحاد، الدعوة إلى التراحم والتعاطف))[2].

فمقاصد الدعوة إلى دين الله كثيرة أعلاها ضمان الحياة السعيدة، لذا وجدنا الخطيب يدعو إلى القيام بالدعوة في كل مكان والاستمرار

---

(1) المصدر السابق ، ص 156-157.

(1) المصدر السابق ، ص 157.

(2) محمد خير الدين ، مذكرات، جـ 1 ، ص 203.

عليها إقتداء بالرسول (صلى الله عليه وسلم) في إبلاغها لكل الناس حتى يفوزوا بالحياة السعيدة ((ولا يكون هذا منكم إلا إذا قمتم بالدعوة العامة فادعوا إلى الله في المتاجر والأسواق، وادعوا إلى أخذ نصيبكم من الحياة الدنيا، فالدنيا مطية الآخرة وطريق القوة، ولا قوة بلا اتحاد، ولا قوة بلا أخوة، فكل واحد منكم عليه أن ينوب الرسول في إبلاغ الدعوة.فإذا بلغتم الدعوة فابشروا بالحياة، فلا قوة تحول بينكم وبين الحياة ولا مانع يمنعكم))[1].

وفي ميدان العلم نجد الشيخ خير الدين يجعل أشرف المطالب وأغلاها طلب العلم الذي هو حياة الأمة وسر نجاحها وفوزها في الدنيا والآخرة.فالعلم قوة وطاقة هائلة تساعد الإنسان على اكتشاف أسرار الكون وإدراك سننه، كما يعد طريقا قويا لفهم العلاقة بين العبد وربه، وهذا سبيله إنما يكون بإحداث انقلاب شامل في حياة الأمة وفق ما يرضاه الله حتى يغير من حالها ((فإن العلم أشرف المطالب، وأسنى المقاصد والرغائب، فهو حياة الأمم وهو عزها ومجدها، وهو سعادتها في الدنيا والآخرة، إنه في الدنيا طريق معرفة أسرار الكون، به يهدي الله الإنسان إلى سر ما خلق له ليسخره لفائدته، وينتفع به في حياته))[2].

فالبون شاسع بين أمة تطلب العلم ولا تشبع من المعرفة، وبين أمة زاهدة في العلم غارقة في ظلمات الجهل، لذا وجدنا الكثير من آي القرآن الكريم تحث على طلب العلم وتحذر من الظن أن العلم والجهل سيان. فطلب العلم من أعظم الطاعات لله وطريق للسعادة في الدنيا والآخرة ((والأمة النهمة في ميدان العلم التي لا تشبع من المعرفة، ولا تكل من سلوك طرقها الوعرة هي الأمة التي تصل إلى المجد، الأمة العزيزة المنيعة الجانب، الأمة القوية المتفوقة السائدة، بينما الأمة الزاهدة في العلم القنوعة، بعكس ذلك، وقد أرشدنا القرآن الكريم إلى طلب المزيد من العلم بقوله تعالى يخاطب نبيه (صلى الله عليه وسلم) : **{وقل رب زدني علما}**[*]، كما حذرنا من الظن أن العلم والجهل سيان **{قل هل يستوي الذين يعلمون والذين لا يعلمون إنما يتذكر أولوا الألباب}**[**].وإذا كان العلم طريق سعادة الدنيا، فإنه طريق السعادة في

---

[1] المصدر السابق، جـ1 ، ص 204.
[2] المصدر نفسه، جـ1 ، ص 219.
[*] طه / 114.
[**] الزمر / 9.

الآخرة، طريق معرفة الله، وعبادته الصحيحة الحقة، والخوف منه والخشية الخاشعة **{إنما يخشى الله من عباده العلماء}***** وطالب العلم في أعظم طاعته في رضى من ربه ورحمة منه))[1].

فمعرفة ما أمر به الله وما نهى عنه لا يكون إلا بالعلم، هذا ما تحدث عنه الشيخ محمد بن صالح بن منصور في خطبته يحث فيها على طلب العلم من العلماء الذين هم ورثة الأنبياء، وذلك بملازمتهم والرغبة الدائمة في التحصيل قصد التزود النافع الذي يؤدي إلى كل خير ((أيها المسلم (يجب) أن تعرف ما أمرك به دينك وما نهاك عنه، ولا سبيل إلى ذلك إلا بالعلم، والعلم لا تجده إلا عند العلماء الذين هم ورثة الأنبياء، ورثوا العلم من أخذه أخذ بحظ وافر.فخذوا عنهم العلم وكونوا خير آخذ، وعضوا على ما أخذتموه بالنواجذ))[2].

فمن الخير تعليم الأبناء هذا ما دعا إليه الخطيب وأكد على أهميته محذرا الآباء من إهمال تعليم أبنائهم إذ هم مسؤولون أمام الله عن ذلك.والفقر ليس عذرا قاهرا أمام طلب العلم وفعل الخير. فكم من فقير يتعلل بعدم الاستطاعة وتجده ينفق فيما لا يعنيه الشيء الكثير ((واعلموا أن العلم وسيلة لكل خير يطلب، ومغنطيس لكل ما فيه مرغب، فعلموه أولادكم، وفلذة أكبادكم، فإنكم عنهم يوم القيامة مسؤولون، وعن إهمالهم مناقشون، ومن نوقش الحساب عذب ولا تقل أيها الفقير إني فقير، إذ لا عذر لك في هذا التقصير، فإنا نراك تبذر فيما لا يغنيك الشيء الكثير، الذي يكفيك في ضرورياتك وتعليم أبنائك، ونراك تؤثر الملاهي في المقاهي، وتركت فلاحة أرضك التي تصون بها ماء وجهك، وتذب بها عن عرضك، وأصبحت تشتغل بما لا يعنيك وعن طاعة ربك معرض، وإذا دعيت لأن تقرض ربك أقل شيء تأخرت ولم تقرض))[1].

هذا عن حال الفقراء، أما الأغنياء فإن مسؤولياتهم تزداد إذ هم مطالبون بالتصدق والمساهمة في أبواب الخير أكثر من غيرهم لكن الكثير منهم سقط في الاختبار، وذلك حين دعي إلى فعل الخير أمسك يده وأعرض عن قبول الحق ونسي ما أعد الله لأهل الإحسان من أجر عظيم ((ويا أيها الغني وأنت في الحقيقة مسكين طالما دعيت للتصدق

***فاطر / 28.

[1] المصدر السابق، جـ1 ، ص 219 - 220.

[2] سجل مؤتمر جمعية العلماء المسلمين الجزائريين ، ص 201-202.

[1] المصدر السابق ، ص 202.

فما تصدقت وطالما دعيت لأن تقرض ربك فما أقرضت، وأكلت أموال الفقراء والمساكين، وكم طردت أجيرا ولم تعطه عرق الجبين وإذا دعيت إلى ما فيه صلاحك ونجاحك تصاممت عن قبول الحق، واسترضيت المخلوق وأغضبت رب الخلق، فهلا صالحت مولاك بشيء من دنياك، ونظرت في القرآن، ما أعد الله لأهل الإحسان، في دار الرضى والرضوان، وهلا قدمت من مالك ما تجده هنالك، **{وما تقدموا لأنفسكم من خير تجدوه عند الله هو خيرا وأعظم أجرا}**[*]))[(1)].

والطريق الذي يوصل إلى الصلاح والسداد هو العلم مما جعل الخطيب يؤكد على اتخاذه سبيلا إلى كل أبواب الخير ويحث على تلقينه لكل الناس حتى ينالوا السعادة في الدنيا والفوز والنجاة في الآخرة ((وإن الطريق الذي يوصل إلى كل شيء هو العلم فاتخذوه سبيلا واجعلوه للخير دليلا. وعلموه الصغير والكبير، والجليل والحقير، واعتنوا بنشره وتعليمه وتلقينه وتفهيمه، حتى تغوص في القلوب بشاشته، وتستولي على المشاعر حلاوته، فعند ذلك تؤتي شجرة العلم أكلها في كل وقت وحين، وعليكم بالمسالمة، والإعراض عن كل من يريد مشاغبة فما خاب امرؤ جعل العلم دليلا والمسالمة ظلا ومقيلا، إلا أن تهان كرامته، وتداس مسالمته، فعند ذلك لا يحسن الصبر، إذ لا صبر على الوقوف على الجمر، بل هو أهون من ذلك الاضطجاع في القبر))[(2)].

وأخيرا نخلص إلى القول أن الخطب الدينية والتربوية من مقاصدها إحياء الدين الإسلامي الحنيف في النفوس والقلوب وبناء الإنسان الجزائري بناء متكاملا وذلك بإحداث انقلاب شامل في حياته حتى يغير واقعه ليتسنى له التخلص من قيود الاستعمار والتطلع إلى ضمان مستقبل سعيد لنفسه في الدنيا والآخرة.

---

[*] المزمل / 20.

[(1)] المصدر السابق ، ص 202.

[(2)] المصدر نفسه ، ص 203.

الفصل الرابع

خصائص الخطابة في النثر الجزائري الحديث

أولا : الالتزام والواقعية.

أ-الالتزام .

ب-الواقعية.

ثانيا : اللغة والأسلوب.

أ-اللغة.

ب-الأسلوب.

إن للخصائص المعنوية والفنية في الأعمال الأدبية أهمية كبرى؛ إذ لا يخلوا منها لون من ألوان الدرس الأدبي لما تحمله من التعبير عن القيم التي تعبر عنها عملية الإبداع الفني، كما أنها ليست عملا مستقلا عن ذلك، بل إن كل عمل فني شعرا كان أم نثرا ((لا بد أن ينطوي على حقائق نفسية أو كونية أو اجتماعية أو فلسفية، وأن هذه الحقائق ليست لها قيمة في ذاتها، كما أن أي مضمون داخل العمل الفني مهما تكن أهميته، لا يمكن أن يكون ذا قيمة فنية في ذاته، بل تظهر هذه الحقائق والمضامين موضوعات خارجية حتى تنتشر الرؤية الشعرية في جميع أطراف العمل الفني أو الفلسفي أو النفسي مفهوما خارجا عن نطاق العمل الفني بل تذوب كل أجزاء العمل الفني ويرتبط بعضها بالبعض الآخر كما تذوب قطعة السكر في كوب الماء

فتتحول على الرغم من وجودها إلى طبيعتها الأولى، وتصبح جزءا ملتحما بالكل لا يمكن فصله))[1].

وما الخطابة إلا عملا من الأعمال الفنية الأدبية التي كانت وما تزال سلاح المجتمع الإنساني في سلمه وحربه، ولها عظيم الأثر في حياته، فهي جديرة بالمكانة التي تتصدرها بين الفنون الأدبية الأخرى بما تتفرد به من خصائص اشتهرت بها. ففي النثر الجزائري الحديث وجدنا الخطابة قد تميزت بخصائص كثيرة تسترعي الانتباه نقف عند بعضها:

أولا-الالتزام والواقعية :

أ-الالتـزام : تختلف الأنواع الأدبية فيما بينها بنسبة الالتزام .فالخطابة تعد من ((أشد الأنواع الأدبية التزاما، لأنها تهدف أبدا إلى التأثير والإقناع، معبرة عن عقيدة الخطيب ورأيه في مشكلات الوجود، تشتد باشتداد الأزمات التي ترتبط ارتباطا جذريا بمصير الجماعة وتقرير مستقبلها، وترجحها بين النزاعات والتيارات التي تحدق بها، فهي ربيبة السلاح، تواكبه وتعوض عنه، وأحيانا كثيرة تشحذه وتحفزه وتقتحم ملاحم الدمار والتقتيل والمنكر وما إلى ذلك، مما ألف الناس دعوته بطولة ومجدا))[1].

والالتزام هو ((حزم الأمر على الوقوف بجانب قضية سياسية أو اجتماعية أو فنية، والانتقال من التأييد الداخلي إلى التعبير خارجيا عن هذا الموقف بكل ما ينتجه الأديب أو الفنان من آثار))[2].

وفكرة الالتزام في الأدب هي وليدة العصر الحاضر؛إذ لم تكن معروفة في نظر النقاد من قبل، إلا أن مفهومه ((قد ارتبط إلى حد بعيد بمفهوم الأدب نفسه، ومدى علاقته بالحياة، وبالدور الذي يقوم به الأدب في توجيه هذه الحياة))[3].

وهناك اختلاف شديد بين النقاد في قضية الالتزام، إلا أن أصحاب هذه الدعوة يرون أن الأديب صاحب رسالة ينبغي أن يؤديها

---

(1) محمد زكي العشماوي، قضايا النقد الأدبي بين القديم والحديث، دار النهضة، بيروت، سنة 1979م، ص 42،41

(1) إيليا حاوي ، فن الخطابة وتطوره عند العرب ، ص 8.

(2) جبور عبد النور ، المعجم الأدبي ، دار العلم للملايين ، بيروت ، ط2 ، سنة 1984م ، ص 31.

(3) د.عز الدين إسماعيل ، الشعر العربي المعاصر قضاياه وظواهره الفنية والمعنوية ، دار العودة ، ودار الثقافة ، بيروت ، ط3 ، ص 373.

ويمكنها في قلوب الناس وفق أهداف أمته التي لا يسمح أبدا لشاعريته أن تحيد عنها بل يجب أن يشارك ((بالفكر والشعور الفني في قضايا قومه الوطنية والإنسانية، وفيما يعانون من آلام وما يبنون من آمال))[1] ، فإذا تقيد الأديب بأهداف أمته وقضاياها وسخر نتاجه الأدبي خدمة لتلك الأهداف والقضايا كان أديبا ملتزما، أما الذي لا يتقيد بمقاصد أمته ولا يعيش قضاياها فهو أديب غير ملتزم.

الظاهر أن الدعوة إلى الالتزام ((تحمل في مضمونها الاعتراف بقيمة الفنون بعامة والأدب بخاصة، والاعتراف كذلك بتأثيرها البعيد في حياة المجتمعات الإنسانية، وفي نفوس الذين يعيشون فيها، لتنطلق في سبيل المبادئ ودعوات الإصلاح التي رسمتها أو التي رسمت لها، ولتحقق الغايات التي حددتها تلك الدعوات، وتبشر الناس بالسعادة التي يمنيهم بها الدعاة إليها إذا التزموا بها، وجروا في مضمارها))[2].

وقديما قد ارتبط الأدب بحياة الإنسان العربي ارتباطا وثيقا فاستطاع الشعر ((أن يلعب دورا حاسما في العلاقات بين الأفراد من جهة وبين القبائل من جهة أخرى))[3] ، بل كانت له أهمية بالغة وفضل كبير في حياة الناس، ومدى التزامه بقضاياهم واتخاذه موقفا من الحياة بأوسع مدلولاتها، وحسبنا في ذلك ما أورده ابن رشيق في ظاهرة احتماء القبائل بشعرائها، يقول : ((كانت القبيلة من العرب إذا نبغ فيها شاعر أتت القبائل فهنأتها وصنعت الأطعمة واجتمع النساء يلعبن بالمزاهر كما يصنعن في الأعراس ويتباشر الرجال والولدان لأنه حماية لأعراضهم، وذب عن أحسابهم، وتخليد لمآثرهم، وإشادة بذكرهم))[1].

ولما ظهر الإسلام وما أحدثه من تغيير في حياة العرب الروحية والاجتماعية والسياسية، رأينا شعرهم لم ينسحب من الحياة ويتخلى عن دوره، بل كان يرافق حياتهم في السلم والحرب، وكان الشاعر يرى من واجبه أن يشارك في أحداث مجتمعه.

---

[1] د.محمد غنيمي هلال ، النقد الأدبي الحديث ، دار العودة ، بيروت ، ط1 ، سنة 1982م ، ص 484.

[2] د.بدوي طبانة ، قضايا النقد الأدبي ، دار المريخ للنشر، الرياض ، سنة 1984م ، ص 376.

[3] د.بشير خلدون ، الحركة النقدية على أيام ابن رشيق المسيلي ، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع ، الجزائر، سنة 1981م ، ص 117.

[1] ابن رشيق ، العمدة ، تحقيق وشرح مفيد محمد قميحة ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، جـ1، ط1 ، سنة 1983م ، ص 364.

وقد اتخذه الرسول (صلى الله عليه وسلم) وسيلة عون في تبليغه الرسالة وجهاده لقريش وغيرها من كفار العرب، وهذا يدل على جدية الأدب ومدى التزامه بقضايا الأمة.

فالذي لا ريب فيه أن الأديب الحق في أمته هو المرآة الصافية التي تعكس آلامها وما هزها من أحداث ألمت بها، أما أن يعيش لنفسه وفرديته فهذا ضرب من الأنانية والانعزال من شأنه أن يصبح منفصلا عن مجتمعه بالتالي عن المجموع الإنساني.

وعلى هذا الأساس قد احتدم الخلاف بين النقاد حول غاية الأدب ووظيفته، فذهب بعضهم إلى أن الأدب غايته ((نشدان الحقيقة التي يبحث عنها الإنسان، ورسالة في الخير، أو تحقيق السعادة، وهي غاية الحياة الإنسانية لا يحققها الأديب أولا يحاول تحقيقها لذات الأديب فحسب، ولكن أيضا للجماعة التي ينتسب إليها، للإنسانية كلها إذا استطاع إلى ذلك سبيلا، وبذلك يستطيع الفن الأدبي أن يشارك في بناء المجتمعات، وصياغة حياتها صياغة جديدة))[1].

وذهب آخرون في نظرتهم لغاية الأدب ووظيفته إلى القول أن ((الأدب فن جميل يستثير الشعور بالجمال، وأن الجمال وسيلته التي يحقق بها فنيته، وأن هذا الجمال هو في الوقت نفسه غايته التي يسعى إلى تحقيقها))[2].

وفي مقابل هذين الرأيين يمكن القول أن الالتزام بمقاصد الحق، وما يوافق الفطرة السليمة لا يتعارض أبدا مع الجمال الذي يحقق المتعة الفنية، وهذا في حقيقة الأمر هو غاية الأدب ووظيفته لأن الأديب ((فنان يعيش لرسالة فنية واجتماعية في آن واحد، وهو لهذا الدور المزدوج الذي يجب أن يقوم به خير قيام بين مواطنيه أو بين الناس على اختلافهم تسقط قيمته كفنان إن لم يوفر لعمله المضمون الوطني أو الإنساني المطلوب والصورة الجمالية التي لا بد منها لكل فن))[3].

وما الخطابة في النثر الجزائري الحديث إلا لون من ألوان الفن الأدبي عبرت تعبيرا صادقا عن مشاعر الشعب الجزائري في جميع أحواله مما يدل على أن الخطباء كانوا يشاركون إخوانهم في مبادئهم

---

[1] د.بدوي طبانة ، قضايا النقد الأدبي ، ص 20.

[2] المرجع نفسه ، ص 20.

[3] د.محمد مصايف ، فصول في النقد الأدبي الجزائري الحديث ، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع ، الجزائر ، ط2، سنة 1981م ، ص 196.

ودعواتهم ويتفقون جميعا ((في تلك النزعة الدينية المسيطرة المتطلعة إلى صورة من الحكم الإسلامي المصفى من كل شوائب الرغبات الدنيوية التي يمكن أن تحيد بالحاكم عن طريق الحق والدين))[1].

ولسنا نجد من بين هؤلاء الخطباء من تفرد بذاتيته وسمح لها أن تحيد عن انشغالات إخوانه، بل كانوا مناضلي سياسة وإصلاح للواقع الاجتماعي.

هكذا كانوا مرتبطين بقضايا إخوانهم يستمدون ينبوعا واحدا، ومبادئ واحدة، ملتزمين بعقيدة آمنوا بها حتى أن كل ما يصدرونه من كتابات فهي تتكلم بلسان الإصلاح الديني في مختلف جوانب الحياة.

ولو حاولنا تتبع ذلك لاتضح لدينا أن الخطابة في النثر الجزائري الحديث تقوم على الالتزام الكامل بقيم المجتمع، ولذلك فلا عجب أن تصطبغ خطبهم بالدعوة إليها والحث على المحافظة عليها، يتبين ذلك من خلال ما سنتعرض له من أمثلة مختارة لبعض الخطباء.

فخطاب رئيس جمعية العلماء المسلمين الجزائريين (عبد الحميد بن باديس) الذي ألقاه في الاجتماع العام بنادي الترقي يتحدث فيه عن قضايا الأمة الكثيرة التي كانت تشغل بال رجال الجمعية، منها : الدعوة إلى العلم وتبليغ الدين يدل على مدى التزام الجمعية بالخط المتفق عليه، ويظهر ذلك في دعوتها إلى العلم النافع بين أبناء الأمة، وتبليغها الدين الخالص وتقوية وازعه في نفوس الأمة.

فالجمعية في وظيفتها هذه كالمعلم المخلص الناصح في تعليمه وإرشاده، الملتزم بما يخدم الصالح العام، ذلك ما نستشفه من خلال قول الخطيب : ((إن جمعيتكم جمعية دينية، تدعو إلى العلم النافع ونشره وتعين عليه، وتدعو إلى الدين الخالص وتبينه، وتعمل لتثبيته وتقوية وازعه في نفوس هذه الأمة،فوظيفتها هي وظيفة المعلم المرشد الناصح في تعليمه وإرشاده، الذي لا يبتغي من وراء عمله أجرا ولا محمدة، وقد أراد إخوانكم رجال مجلس إدارة الجمعية ـ وهم حاملو فكرة الإصلاح الديني والعاملون لها والمنفقون لأوقاتهم في سبيلها- أرادوا أن يكونوا أمثلة للأجيال المقبلة في التضحية في الثبات على الحق، في الجهر به، وكما كانوا أمثلة فقد ضربوا الأمثال بأعمالهم...))[1].

---

[1] د.عبد القادر القط، في الشعر الإسلامي والأموي، دار النهضة العربية، بيروت، سنة 1979م، ص 376.

[1] عبد الحميد بن باديس ، آثاره ، جـ4 ، ص 164.

وفي خطاب آخر للشيخ وجدناه يعرب فيه عن مدى التزامه بالدين وتمسكه باللغة العربية فيعاهد إخوانه بأن تكون حياته للإسلام ويهب وقته خدمة للغة القرآن، ويدعوهم إلى الأخوة وأن يكونوا رسل سلام حاثا إياهم على أن يموتوا في سبيل ذلك، يقول : ((إنني أعاهدكم على أنني أقضي بياضي على العربية والإسلام كما قضيت سوادي عليهما، وإنها لواجبات...وإني سأقصر حياتي على الإسلام والقرآن ولغة الإسلام والقرآن هذا عهدي لكم.

وأطلب منكم شيئا واحدا وهو أن تموتوا على الإسلام والقرآن ولغة الإسلام والقرآن .

أنا زارع محبة ولكن على أساس من العدل، والإنصاف، والاحترام مع كل أحد من أي جنس كان ومن أي دين كان (من كل جنس من كل دين) فاعملوا للأخوة ولكن مع كل من يعمل للأخوة فبذلك تكون الأخوة صادقة))[1].

أما الشيخ محمد البشري الإبراهيمي في كلمة له أمام المعلمين الأحرار كانت كلها إيمان بتحمل الواجب والتزام بما يصلح الأمة وينفعها؛ لذا وجدناه يذكر أبناءه المعلمين بعدم التقصير في الواجب، ويحثهم على تحمل المسؤولية الملقاة على كواهلهم وأنها أمانة ثقيلة لا بد من تحملها مهما كلفهم الأمر حتى تتحقق المقاصد المرجوة يقول : ((إن التقصير في الواجب يعد جريمة من جميع الناس، ولكنه في حقنا يضاعف مرتين، فيعد جريمتين، لأن المقصر من غيرنا لا يعدم جابرا أو غادرا، فقد يغطي على تقصيره عمل قومه أو حكومته، وقد يقوم له بالعذر حاله الجاري على كمال مقنع، أما نحن فحالنا حال اليتيم الضائع الجائع، إذا لم يسع لنفسه مات، فإذا قصرنا في العمل لأنفسنا ولما ينفع أمتنا ويدفعها، فمن ذا يعمل لها؟ آلحكومة؟ وقد رأينا من معاملتها لنا أنها تمنع الماعون، وتداوي الحمى بالطاعون، وتبارز الإسلام بالمنكرات، وتجاهر العربية بالعدوان، فمن ضل منا مع هذا فقد ضل على علم، ومن هلك فإنما هلك عن بينة))[2].

وهذه كلمة أخرى له أيضا يدعو فيها إخوانه إلى التضحية في سبيل الإسلام، وتحمل الأذى في الدعوة إليه مما يدل على مدى الالتزام الكامل بهذا الدين الذي يعيشه ويعيش له: ((أيها الإخوان : إن الإسلام لمفتقر في هذا الطور الأخير من حياته إلى ذلك الطراز العالي

---

(1) المصدر السابق ، جـ4 ، ص 214-215.

(2) محمد البشير الإبراهيمي ، آثاره ، جـ3 ، ص 263.

من البطولة التي عهدها في أبنائه الأولين، وإلى ذلك النوع السامي من التضحية في سبيله واستحلاء الأذى في الدعوة إليه، ومواصلة الكفاح للكائدين له، وهي الخلال التي قام بها بناؤه حينما قام بها أبناؤه، فكانت فئتهم القليلة في العدد، الكثيرة بما تستمده من عون الله وحده من المدد، هي طلائع الجهاد، والعوامل الممهدة للمهاد، في ميدان التضحية والاستشهاد))[1].

فالبعد عن روح الإسلام كان السبب الرئيس في الخور وتراجع الأمة عن دورها المنوط بها، الأمر الذي أدى إلى ما تشكو منه، وذلك لا يزول إلا بما تقدمه من أسباب تغير بها الواقع الاجتماعي.

فالخطيب يدرك مواطن الضعف؛ لذا وجدناه يحث على استنهاض الهمم وتحريك النفوس حتى تتمكن من استرجاع حقها الضائع.فهذه التوجيهات من الخطيب تدل على مدى التزامه بقضايا الأمة التي شغلت باله كثيرا، فهو لا يعيش لفرديته بل يسعى دوما من أجل إسعاد الأمة وإنقاذها من الشر الذي تتخبط فيه.فوجدناه يضع يده على مكمن الداء ويشخص له الدواء، ذلك ما نلمسه من خلال قوله : ((أيها الإخوان : إن بعد المسلمين عن روح القرآن وهدي القرآن غرس فيهم خصالا من الخور والفسولة أدت بهم إلى ما ترون وانتهت بهم إلى ما منه تشكون، وإن هذه الخصال التي تمكنت من النفوس لا تزال جراثيمها المميتة إلا بصاخة من الأحداث وقارعة من المصائب، تخرجها من حبس الخمول إخراجا، وتزعجها إلى ميدان العمل إزعاجا، فمرحا بالتطريد والتشريد، والإرهاق الشديد، والحبس ولو على الدوام والتأبيد، والنفي ولو إلى القرار البعيد، إذا كان كل ذلك يذيب زيف الأخلاق الخادعة، ويجتث غش النفوس الخامدة، ويشد وهن العزائم الراكدة، ويرخص عنا أوضار الضعف والخور والانحلال، ويجمع القلوب بعد ذلك على الإيمان بالحق، والوفاء للحق، والتناصر بين أصحاب الحق))[1].

وهذا الشيخ العربي التبسي في خطابه الموجه للأمة : القارئ له يدرك مدى اهتمام الخطيب بقضايا الأمة وانشغاله بمستقبلها مما يدل على التزامه بقيم مجتمعه الذي يعاني من مظالم في جميع أحواله، لكن الخطيب شعورا منه بالمسؤولية لم يستسلم للأمر الواقع فوجدناه يدعو

---

[1] المصدر السابق ، جـ2 ، ص 119-120.
[1] المصدر السابق ، جـ2 ، ص 120.

الشعب إلى عدم الاستسلام ويحثه على النهوض في وجه الظالمين الذين يحاولون إبعاده عن مقوماته التي لا حياة له إلا بها.

نستشف ذلك من خلال قراءتنا لبعض ما جاء في نص خطابه ((فانبعث أيها الشعب من المقبرة التي وضعك فيها الظالمون الذين أبعدوك عن العلم حين أرادوا إبعادك عن الإنسانية، وأبعدوك عن الدين حين أرادوا أن يجردوك من كل حق، وأبعدوك عن الله حين فصلوك عن المسجد.

وإن أمة لا تختار إمامها الديني، ولا تملك حق التعبد في مساجدها لهي أمة غائبة عن الوجود، وأن من يبعد جماعة المسلمين عن مساجدها جائر ظلوم والله وراء كل ظالم، وهو القادر على قصم ظهور الظالمين. وأن من يخشى في الله غيره، ويفر من جمعية العلماء، ويجامل هؤلاء المعتدين، لا يساوي عند الله جناح بعوضة.

أيها المسلمون الجزائريون.إن فرنسا لم تترككم أمة حين نزعت منكم اللغة، واحتلت منكم الإسلام وما فيه.فلم تقبض عليه لإحيائه، وإنما قصدت بذلك إلى التعفية على معالمه، ولكنها مغلوبة ومحكوم عليها سلفا بالهزيمة، لأن الإسلام دين الله، والعربية ترجمان السماء إلى الأرض والله يقول : **{إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون}**[*]))[1].

فالتزام الشيخ العربي التبسي دفعه إلى النصح والتوجيه للأمة من أجل المحافظة على كيانها، والوقوف في وجه العدو الذي يريد محو آثار ميراثها العظيم؛ لذا ينبغي على كل فرد من أفراد الأمة أن يتحمل مسؤوليته وأن يكون أنموذجا فذا يقتدى به في واقع الناس ليتم دحر العدو والتغلب عليه : ((يجب علينا أن نتعلم محاسبة أنفسنا قبل أن نحاسب الناس، وقبل أن يحاسبنا الناس.يجب علينا أن نكون أشداء على أنفسنا حتى نستطيع أن نحتفظ بهذا الميراث العظيم، وأن نبلغه سليما لأبنائنا من بعدنا...يجب علينا ونحن حاملو راية الدين والقرآن أن نكون أقوى روحا، وأعظم همة، وأكثر تضحية من أولئك المبشرين والمبشرات...))[2].

---

[*] **الحجر / 9.**

[1] **العربي التبسي ، مقالات في الدعوة إلى النهضة الإسلامية في الجزائر، ص 229 ، 230.**

[2] **المرجع نفسه ، ص 201 ، 202.**

وعن الالتزام أيضا ما جاء في خطب الشيخ (محمد خير الدين) حيث يمثل صورة حقيقية للالتزام بمبادئ الدين وأخلاقه، ويدعو إليها محذرا من الوقوع في تلك الآفات المهلكة، ويحث على الأخلاق الحميدة حتى تسترجع الأمة مكانتها، وذلك بإحياء مقوماتها لتنعم بحياتها، يقول : ((أيها الإخوان ما من أمة سرى في صفوفها التخاذل والتحاسد والتواكل إلا وسارت بدورها إلى الانحلال والاضمحلال، فمن اليوم يجب أن تودعوا الماضي بما فيه وتستأنفوا حياة جديدة ملؤها التحابب والتصافي والتعاون، والاعتماد على النفس، لأن حياة العربية في هذا القطر مرهونة بأعمالنا وجهودنا وتضحياتنا، ومن العبث أن ننتظر من الغير أن يقدم لنا ما يعود على أمتنا ولغتنا بالخير والسعادة))[1].

من مقاصد الجمعية التربية والتعليم، والخطيب ملتزم بتلك المقاصد أشد الالتزام. فهو يدعو إليها ويحث إخوانه بتقديم كل غال ونفيس في سبيلها لأن تحقيق ذلك يمكن الأمة من الفوز والنجاح ويترك أثرا طيبا للأجيال الصاعدة ((أيها الإخوان لا حياة لأمة إلا بالتربية والتعليم، وكل أمة أعرضت عن التربية والتعليم والثقافة إلا وكان مآلها الموت والفناء، فعضوا بالنواجذ على لغتكم ودينكم وقدموا في سبيلهما كل مرتخص وغال فستجدون جزاءكم عند الله أحسن الجزاء، وستذكركم الأجيال المقبلة بالإعجاب والإكبار))[2].

ومن خطب (أحمد توفيق المدني) خطابه الذي ذكر فيه القوم بمقوماتهم الأساسية، وحثهم على الالتزام بها لأن في ذلك حياتهم وسر نجاحهم، وما دفعه إلى ذلك هو التزامه بتلك القيم التي يرى فيها روح الأمة وشعارها، والعمل الجاد في سبيلها أمر لا مناص منه بل يعد سر النجاح والفلاح : ((أيها القوم إن لكم دينا هو أشرف الأديان، صالحا لكل زمان ومكان، ولكم لغة هي لغة القرآن، أنشأت المدنية وبنت أنوار المعرفة وبددت ظلمات العالم فحل محلها النور. ولكم وطن –أي والله- لكم وطن من أغنى الأوطان وأشرفها وأعزها وأمجدها، وطن رأى فيما سلف عز الرستميين وشرف الحماديين وجهاد الزيانيين وفخار العثمانيين وكرامة الأبرار المجاهدين.

فالدين واللغة والوطن هو شعاركم الذي تفتخرون به، وتعتزون به وتجاهدون في سبيله، ليؤمن كل واحد منكم بهذا الشعار : الإسلام

---

[1] **محمد خير الدين ، مذكرات ، جـ1 ، ص 190.**
[2] **المصدر نفسه ، جـ1 ، ص 190.**

ديننا، الجزائر وطننا، العربية لغتنا. وليعمل كل منكم العمل الجاد في سبيل أعداء هذا الشعار، والعمل به فمنه النجاح، وبه الفلاح))[1].

وفي خطبة أخرى وجدنا الخطيب يظهر بقوة، متحديا أعداء الأمة الذين يدعونها إلى الانسلاخ من مقوماتها حتى تتمكن من تجاوز حالة الفوضى والتراجع الذي تعيشه، لكن الخطيب بقوة إيمانه والتزامه بمبادئ الأمة وقف كالطود الأشم إزاء تلك الصيحات المغرضة حاثا قومه على تجاوزها وعدم الإصغاء لدعاتها يقول : ((يقولون لكم قولا كذبا وبهتانا من أجل الخروج من هذه الحالة يجب أن تتفرنسوا وأن تدخلوا العائلة الفرنسية الكبرى، وهذا كذب ونفاق، ودجل وتضليل.

فالفرنسيون لا يقبلونكم إطلاقا ولا يرضون أن تزاحموهم في ميادين الحكم والثروة، ثم إن من تفرنس وأضاع دينه وشرفه، وتنكر لمجد آبائه وأجداده، خسر دينه ودنياه، وألف طبقة جديدة من الناس، ينكره قومه وينكره الذين ادعى الانتماء إليهم))[1].

ومن الخطب التي خطب بها الشيخ (الطيب العقبي) بعد عودة وفد المؤتمر الإسلامي من باريس في أوت 1936م قوله في التحذير من الفرقة التي يعمل البعض على بثها وتأجيج نار الفتنة بين الجزائريين حتى يتسنى للمتآمرين الوصول إلى أغراضهم الخبيثة ودسائسهم المهلكة. ومثل هذا التحذير لا يصدر إلا من رجل مخلص ملتزم بقيم وثوابت الأمة، الأمر الذي دفعه إلى عدم الوقوف عند التحذير فحسب بل تجاوزه إلى النصح الأمين ((إياكم أن تأخذوا برأي من يريد التفريق بينكم يلزمنا أن نعيش جميعا في تعاون وتضامن واتحاد ووئام مع الحرية التي لا نقدر أن نعيش بدونها ونحن مسلمون ديننا الإسلام ولغتنا العربية ووطننا الجزائر فليحيى المسلمون ولتحيى العربية ولتحيى الجزائر))[2].

وفي مجال الحث على تعلم اللغة العربية نجد الشيخ رابح بن الأخضر السطيفي يلقي خطبة يعبر فيها عن مدى التزامه بقضايا الأمة ومدى تمسكه بخط جمعية العلماء المسلمين الجزائريين التي من مقاصدها الأولى تعليم الناس وربطهم بلغتهم العربية.

فالخطيب يدرك ذلك إدراكا كاملا فهو يعلم أن الأمة بدون لغتها تعد أمة مغلوبة لا يمكنها مقاومة عدوها، لذلك وجدناه يحث المسلمين

---

[1] أحمد توفيق المدني ، حياة كفاح (مذكرات) القسم الثاني، ص 43.
[1] المصدر السابق ، القسم الثاني، ص 76.
[2] سعيد (من صور حياة الجزائر)، الأمة ، ع 85، 11 أوت 1936 م.

الجزائريين وينادي فيهم بالإقبال على تعلم اللغة العربية والاستجابة لنداء الجمعية التي تدعو إلى تثقيف الأبناء وإخراجهم من ظلمات الجهالة حتى يتمكنوا من استرجاع هويتهم : ((أيها الإخوة الأعزاء الكرام فها هي جمعية العلماء المسلمين الجزائريين تناديكم فلبوا نداءها وتدعوكم لتثقيف أبنائكم وإخراجهم من ظلمات الجهل فاستجيبوا دعاءها وها هي أمكم الجزائر تحن إليكم حنين الثكلى مما أصابها من ألم الجهالة حتى أصبحت لا تراعى إلا بعين الاحتقار ولا يقام لها وزن من بين الأقطار الإسلامية فانصريها أيتها الأمة ينصرك الله وها هي لغتنا العربية قد أصبحت منا بجانب لا نشم لها رائحة ولا نعرف لها فضلا كأن لم تكن هي لغة نبينا (صلى الله عليه وسلم) التي أنزل القرآن على مقتضى أساليبها **{وإنه لتنزيل رب العالمين نزل به الروح الأمين على قلبك لتكون من المنذرين بلسان عربي مبين}*** فهيا بنا أيتها الأمة الجزائرية لنحيي لغتنا حتى ترتفع عن الجزائر تلك السحب الحالكة فتصبح مفتخرة بلغتها بارزة ما بين إخوانها))[1].

وأخيرا هذا الشيخ حمزة بوكوشة في خطبة له في الإصلاح الذي هو ضروري للمخلوقات في أطوارها التي تطرأ عليها بكر العصور، ومر الدهور.

فالحديث عن إصلاح المجتمع لا يعني سوى أن صاحب هذه الدعوة يريد خيرا لأمته، وأنه لا يعيش لذاتيته وإشباع أناه بل يسعى دوما من أجل الصالح العام مما يدل على صدق النية في السعي لتحقيق المقاصد والالتزام الكامل بمقومات الأمة وهذا ما نلاحظه في شخص الخطيب حمزة بوكوشة من خلال كلامه عن الإصلاح الذي يراه أولا وقبل كل شيء أن يبدأ المصلح بإصلاح نفسه وتزكيتها والصبر على ما يعترض طريقه من عوائق حتى يتسنى له تحقيق الإصلاح فيمن سواه ((والمصلح أيها الإخوة من اعتنى بإصلاح نفسه قبل سواها، وطهرها من أدران الإلحاد وزكاها.

المصلح من تحلى بالفضائل، وتخلى عن الرذائل، وأنذر عشيرته وجيرانه، عملا بقوله تعالى للسيد الأعظم (صلى الله عليه وسلم) **{وانذر عشيرتك الأقربين}***.

---

* **الشعراء / 192-193-194-195.**

(1) **سجل مؤتمر جمعية العلماء المسلمين الجزائريين ، ص 194.**

* **الشعراء / 214.**

المصلح من ثبت للعقبات التي تعترضه صباح مساء، وضحى بماله ونفسه في سبيل مبدإ اشرب قلبه حبه، وعادى من عاداه وأحب من أحبه.

وبذلك يستطيع إيقاظ أمته من غفوة الجهل، وإنقاذها من كبوة الفساد))[1].

وإصلاح الناس في رأي الخطيب يعتمد على اللين والشدة فالطريقة الأولى تخص أولئك العامة الذين لا ينكرون الإصلاح لذاته وإنما ينكرونه جهالة وتمسكا بالقديم ((فاللين يحمد مع من يكون في هدايتهم رجاء، وهؤلاء في غالب الأمر يكونون من العامة التي لم تنكر الإصلاح لذاته؛ وإنما تنكره جهالة وتقليدا للقدماء من الآباء، ولقد أنزل المولى جل وعلا في الذين على شاكلة هؤلاء من الأمم الأولى : **{وإذا قيل لهم اتبعوا ما أنزل الله قالوا بل نتبع ما ألفينا عليه آباءنا}**[*].

وبما أن النفوس البشرية مجبولة على حب الذات كان لزاما على المصلح إذا أومض له بارق أمل في إصلاحها أن يلاينها لئلا تنفض من حوله، قال تعالى **{ولو كنت فضا غليظ القلب لانفضوا من حولك}**[**]))[1].

أما الطريقة الثانية فتخص المكابرين المعاندين الذين أضلهم الله على علم.فهؤلاء لا يجمل إلا أن يؤخذوا بالشدة والوقوف أمامهم بكل حزم لأنهم يعترضون طريق الإصلاح ((أما الشدة أيها الإخوة فلا تحسن إلا مع من أضله الله على علم.ومن هؤلاء كثير في أمتنا المسكينة التي نسجت عليها عناكب الجهل والتضليل فضلت عن سواء السبيل لولا أن تداركها الله ببعض من رجال هذه الجمعية وهم رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه.فأرهقوا وأوذوا في سبيل الله وما ضعفوا وما استكانوا والله يحب الصابرين.

الذين أضلهم الله على علم –أيها الإخوة- قوم يعرفون الحق وينكرونه، والإصلاح ويذرونه، للبنات في النفوس، كحب الرياسة وجلب الفلوس.يعرفون هدي محمد صلى الله عليه وسلم كما يعرفون أبناءهم، وإن فريقا منهم ليكتمون الحق وهم يعلمون.هؤلاء لا ينبغي

---

[1] المصدر السابق ، ص 168 ، 169.

[*] آل عمران / 159.

[**] البقرة / 170.

[1] المصدر السابق ، ص 169.

المصلح أن تأخذه بهم رأفة أو هوادة؛ وليقف أمامهم بعزم شديد، وليضرب على أيديهم بمقامع من حديد، عملا بقوله تعالى : **{وأغلظ عليهم ومأواهم جهنم وبئس المصير}** *))[1].

ب-الواقعية :

إن الأدب الرفيع ((هو الذي يصف ما هو موجود فعلا، ويدعو إلى ما يجب أن يتواجد، فالأدب وسيلة لا غاية، ولذا فعليه أن يتحلى بنظرة جماعية وأن يتجاوز العوامل الخيالية لأنها تمزق صلة الشاعر بواقعه، وأن يضبط انفعالاته ضمن حدود النظرة الموضوعية التي يرونها في أفقها الرحيب))[2].

نفهم من هذا أن الأدب الواقعي يعتبر خادما للإنسان؛ أي أنه يمثل الالتحام الكامل والتفاعل المتبادل بين الأديب والمجتمع الأمر الذي يجعل ((مستقبل الأدب مرتبط بمستقبل المجتمع ارتباطا عضويا،فحياة الأدب، وقيمة الأديب، وخلود الأدب والأديب معا،كل ذلك متوقف على حياة المجتمع ومستقبله، وعلى مدى الصلة التي تربطه بمشاكل هذا المجتمع))[3]

فهذا الرأي في الواقعية تصحبه آراء أخرى مختلفة إلا أننا لا نود الخوض فيها ونكتفي بالقول –مستأنسين بالرأي السابق- أن الواقعية التي نقصدها هي تلك الأعمال الأدبية التي تعالج قضايا واقعية وأحداث فعلية تعيشها الأمة في مختلف مناحي حياتها، بمعنى آخر؛ على الأديب أن يؤدي دوره الرسالي في المجتمع الذي يعيش فيه، فهو هنا صاحب فكرة يعيشها ويعيش لها.

والدارس لفنون النثر الجزائري الحديث يجد أن الخطابة قد ساهمت بقدر كبير في تنشيط الحياة الثقافية والأدبية وأدت دورها الرسالي على أكمل وجه في المجتمع الجزائري بفضل واقعيتها وتناولها القضايا التي تهم أفراده في مختلف جوانب حياتهم ((ولعل الخطابة هي الفن الأدبي الوحيد الذي ظل قائما في جوهره على أساس موضوعي فهي تصور في كل عصر الجانب الواقعي من الفترة التاريخية التي عاش فيها الأديب ومن هنا يمكن أن تعتبر الخطابة

*** التحريم / 9.**

[1] المصدر السابق ، ص 169 - 170.

[2] مجد محمد الباكير البرازي ، في النقد الأدبي الحديث ، ص 201.

[3] د.محمد مصايف ، النقد الأدبي الحديث في المغرب العربي ، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع ، الجزائر ، سنة 1979م ، ص 273.

العمل الأدبي الصحيح في تقويم حياة الأمم في عملية كشف ظاهر ومباشر))[1].

وهذه بعض النماذج من الخطابة في النثر الجزائري الحديث نتتبعها قصد الوقوف على أهميتها في الواقع الاجتماعي ومدى مصاحبتها لأحداثه.

فالشيخ عبد الحميد بن باديس يعيش واقع الأمة يتأثر بأحداثها ويتابع باهتمام قضاياها.فحينما نقرا له وخاصة خطبه نجده كثيرا ما يتحدث عن الواقع الجزائري في مختلف جوانبه، ينقل لنا صورة حقيقية عن حياة الشعب الجزائري ومما يعانيه من مظالم الاستعمار الفرنسي.فالمساجد قد عطل دورها الرسالي، والمكاتب قد أعاق سيرها، والصحافة منعها، ورجال الجمعية العاملين ضيق عليهم الخناق.

هذه هي صورة الواقع كما نقلها إلينا الخطيب في كلامه : ((فالمساجد ما تزال موصدة الأبواب في وجوه الوعاظ والمرشدين، والمكاتب العربية ما زالت تلقى العراقيل الشديد، وصحيفة الجمعية ما تزال في نطاق المنع والتحجير، وما يزال رجال من أشخاص الجمعية البارزين تحت الرقابة والشدة بغير ذنب))[1].

فالشيخ ابن باديس كان واقعي في علاجه للقضايا.فكان كثيرا ما يراعي الظروف ولا يتجاوزها بل يحاول التكيف معها حتى لا يصطدم بالواقع وتتعطل مهامه ولا يحقق مقاصده .فهو هنا رغم ما حدث من مظالم وتجاوزات إلا أنه لم يقطع حبل الرجاء بينه وبين الإدارة المعنية علها تتراجع عن سلوكها الظالم، وهذا لا يعني أنه استسلم للأمر الواقع بل لا يزال يحتج ويرفع صوت الحق لتغيير هذه الحالة التي تعيشها الأمة ((غير أننا لا نقطع حبل الرجاء ما دام على رأس الإدارة رجل عالم خبير يقدر العلم وأهله ربما انفسح أمامه المجال للعمل في عهد الولاية الجديدة، ومع ذلك فإنني إبقاء لصوت الحق أرفع باسم جمعكم هذا إلى المراجع العليا الاحتجاج على بقاء هاته الحالة التي يحال فيها بين علماء الإسلام ومساجد الإسلام، ويحال فيها بين الأمة وتعلم دينها في أماكن دينها، ويعرقل فيها المسلمون على تعليم أبنائهم لغة وعقائد وآداب دينهم، ويخنق فيها صوت جمعية

---

[1] **عباس محمد، البشير الإبراهيمي أديبا، إشراف د.محسن جمال، كلية الآداب، جامعة بغداد، سنة 1983م، ص 188.**

[1] **عبد الحميد بن باديس ، آثاره ، جـ4 ، ص 180- 181.**

دينية علمية فيحال بينها وبين الصحافة التي هي الأداة المشروعة المعترف بها لكل جمعية لنشر دعوتها والدفاع عن نفسها))[2].

وفي الاجتماع العام لجمعية العلماء المسلمين الجزائريين الذي عقد بنادي الترقي بعاصمة الجزائر في سبتمبر 1936م ألقى الأستاذ محمد البشير الإبراهيمي خطبة تحدث فيها عن واقع الأمة الجزائرية التي لا يتم الإصلاح الديني فيها إلا بالإصلاح الاجتماعي.

الخطيب يدرك تمام الإدراك أهمية الإصلاح في المجتمع لأنه يعد الوسيلة الناجعة في تغيير الواقع الاجتماعي .فعملية التغيير تتطلب الإخلاص والصدق وفقه الواقع حتى يتم الوصول إلى المقاصد المرجوة.

فالجمعية التي ينشط فيها الخطيب ضمن صفوفها كانت كثيرا ما تعتمد الواقعية في الطرح ومراعاة الظروف وعدم خرق المراحل وهذا يعد من باب الواقعية في الإصلاح الاجتماعي نستشف ذلك من خلال قوله : ((وقد نجحت الجمعية إلى حد بعيد في إفهام الأمة هذه المعاني الاجتماعية وتوجيهها إلى مجاراة السابقين وتهيئتها لأن تكون أمة عزيزة الجناب مرعية الحقوق ثابتة الكيان محفوظة الكرامة صالحة للحياة مساوية للأحياء، وفي أعلامها أن بغي القوي على الضعيف قد طمس معالم الحق بينهما وردهما إلى نوع من الحيوانية كالذي بين الذئب والخروف، حتى أصبحت الاستطالة في الأقوياء طبيعة والاستكانة في الضعفاء طبيعة، وأن طبيعة الأولين لا تتبدل إلا بعد تبدل طبيعة الآخرين وأن الحقوق التي أخذت اغتصابا لا تسترجع إلا غلابا))[1]

وفي نفس الخطبة ينطلق الخطيب من الواقع في إصلاح الناس وإرشادهم فهو يواجه أولئك الذين يخلطون المفاهيم عن جهل ويحكمون بأحكام باطلة فيتصدى لهم ويبين وجه الصواب في قوله : ((ويا ويح الجاهلين، أيريدون من كلمة الإصلاح أن نقول للمسلم قل : لا إله إلا الله مذعنا طائعا وصل لربك أواها خاشعا، وصم له مبتهلا ضارعا، وحج بيت الله أوابا راجعا، ثم كن ما شئت نهبة للناهب، وغنيمة للغاصب، ومطية ذلولا للراكب، إن كان هذا ما يريدون فلا ولا قرة عين، وإنما نقول للمسلم إذا فصلنا : كن رجلا عزيزا قويا عالما هاديا محسنا كسوبا معطيا من نفسك آخذا لها عارفا بالحياة سباقا

---

[2] المصدر نفسه ، جـ4 ، ص 181.

[1] محمد البشير الإبراهيمي ، آثاره ، جـ 1 ، ص 283.

في ميدانها، صادقا صابرا هينا إذا أريك منك الخير، صلبا إذا أردت على الشر))[1].

وبمناسبة اندلاع الثورة التحريرية 1 نوفمبر 1954 م يستعرض الخطيب حالة الأمة الجزائرية مبينا حقيقة واقعها المعيش المفروض عليها من قبل الاحتلال الفرنسي، وهذا في صورة واقعية تدل على مدى التزامه بالواقع ونقله الأمس لأحداثه قصد استنهاض الهمم ودفع الناس إلى الثورة ضد الاحتلال ((لم تبقى لكم فرنسا شيئا تخافون عليه أو تدارونها لأجله، ولم تبق لكم خيطا من الأمل تتعللون به، أتخافون على أعراضكم وقد انتهكتها؟ أم تخافون على الحرمة وقد استباحتها؟ أم تخافون على الأموال وقد تركتكم فقراء تلتمسون قوت اليوم فلا تجدونه؟ أم تخافون على الأرض وخيراتها، وقد أصبحتم فيها غرباء حفاة عراة جياعا أسعدكم من يعمل فيه رقيقا زراعيا يباع معها يشترى، حظكم من خيرات بلادكم النظر بالعين والحسرة في النفس.أم تخافون على القصور وتسعة أعشاركم يأوون إلى الغيران كالحشرات والزواحف؟ أم تخافون على الدين؟ ويا ويلكم من الدين الذي لو تجاهدوا في سبيله، ويا ويل فرنسا من الإسلام الذي ابتلعت أوقافه وهدمت مساجده، وأذلت رجاله، واستعبدت أهله ومحت آثاره من الأرض وهي تجتهد في محو آثاره من النفوس))[1].

وفي نفس الموضوع خطب الأستاذ أحمد توفيق المدني موجها كلامه إلى الشعب الجزائري يدعوه إلى عدم الاستكانة والسكوت على جبروت وطغيان فرنسا.

الخطيب لم يسبح في فضاء الخيال بل كان واقعا في دعوته منطلقا من الواقع الملموس مستفيدا مما تعلمه من تجارب عاشتها الأمم مما أكسبه الثقة في النفس وعدم الرضوخ لإدارة الاحتلال؛ لذا وجدناه يثور على الواقع ويلح على تغييره، يقول : ((انظروا إلى المستقبل أيها السادة نظرة أمل، ونظرة عمل، لا تقولوا إننا غلبنا في الماضي، واندحرنا في الحاضر، بل قولوا إننا بإيماننا وبعملنا وبكفاحنا سننتصر في المستقبل، وسنرفع رايتنا خفاقة عالية.

ليس العار على من غلب وانكسر السلاح في يده، فتاريخ العالم كله سجل لانتصار أعقبه انكسار وانهيار أعقبه انتصار، وتلك الأيام

---

[1] المصدر السابق ، جـ1 ، ص 283.
[1] المصدر السابق، جـ5، ص 34.

تداولها بين الناس.إنما العار كل العار هو الاستكانة والمذلة والصغار، والرضى بحياة الهوان، والسكوت على الجبروت والطغيان))[2].

ومن الخطباء أيضا الطيب العقبي الذي تناول في خطبته أعمال المؤتمر الإسلامي وما توصل إليه من نتائج، وهذا في صورة عبرت تعبيرا دقيقا عن الواقع ((أما بعد، فإن المؤتمر الإسلامي الجزائري المنعقد يوم 7 جوان كان له أثر كبير في حياتنا الحاضرة وكان من أهم نتائج إيفاد هذا الوفد الماثل أمامكم إلى باريس يحمل إليها مطالب الأمة وآلامها ويعبر لديها بأفصح لسان عن آمال الأمة التي علقتها بالحكومة الحاضرة، ذلك المؤتمر الذي كان نتيجة طبيعية للحركة الإصلاحية القائمة بالجزائر منذ سنوات))[1].

ومما جاء في خطاب الشيخ العربي التبسي يوم الاحتفال بختم الدروس في معهد عبد الحميد بن باديس حديثه عن المساجد ووضعها في الجزائر.

الخطيب كان واقيا في حديثه عن المساجد في الجزائر وإلى ما آلت إليه من وضع يخدم مصالح الإدارة الاستعمارية؛ لذا وجدناه يرفع صوته في وجه الحكومة يدعوها إلى رفع يدها عن المساجد، ويدعو المسلمين إلى الاحتجاج وعدم الوقوع في سياسة فرنسا إزاء المساجد يقول : ((إننا ندعو الحكومة بحق وبقوة إلى الرحيل من المساجد، وإنه لمن الواجب أن يكون للمساجد ضحايا من المنكوبين والمساجين، إن المناصب الدينية كلها مغتصبة منا، فلنسع لاسترجاعها.

إن أئمتنا ومفتونا اليوم من أتباع (البريفي) وليسوا من أتباع محمد، ولا شك أنهم ناقصو آداب وهم وسادتهم يعلمون ذلك، و إلا فكيف يرتبطون (بالبريفي) ولا يرتبطون بالمصحف.ولو وجد من يعبد الله حقا لما دخل مسجدا يعلم أنه إمامه (بوليس) يتكلم باسم الدين، ورجال الإدارة من (قياد وباشغوات) يغلطون الأمة، ويحولون بينها وبين الحقيقة و إلا لما كان في الأمة من يدخل المسجد))[2].

وعن القدوة الصادقة وجدنا الخطيب ينطلق من الواقع المعيش لمعالجة الوضع.فواقع الجزائر يحتاج إلى منقذ مقتدر، ولكي يتم تحقيق ذلك لا بد من بديل، والبديل لا يكون إلا بالقدوة الصادقة؛ لذا وجدناه ينصح إخوانه بمراجعة أنفسهم وإصلاحها ليكونوا قدوة في واقع الناس

---

[2] أحمد توفيق المدني ، حياة كفاح (مذكرات) ، القسم الثاني ، ص 43.

[1] سعيد (من صور حياة الجزائر)، الأمة ، ع84، 4أوت 1936م ، ص 523.

[2] العربي التبسي ، مقالات في الدعوة إلى النهضة الإسلامية في الجزائر ، ص 196.

حتى يتمكنوا من قيادة الأمة وإصلاحها.((إخواني : أصلحوا ما بينكم وبين الله، يصلح الله ما بينكم وبين الناس، افعلوا ما أمركم به، يدافع عنكم من يريد بأمتكم شرا، أظهروا في أمتكم بأقوالكم وأعمالكم وسلوككم في خلوتكم وفي علانيتكم وفي حالة السراء وفي حالة الضراء، وفي المنشط وفي المكره، مبتلين أو معافين، بما كان يظهر به الذين أنعم الله عليهم من رجال سلفكم...))[1].

وفي مجال تربية الأولاد نجد الشيخ مصطفى حلوش في خطابه يتحدث منطلقا من الواقع المعيش في معالجة الحالة التي يعيشها أبناء الأمة مع أوليائهم.فيصف لنا الوضع كما هو وينقله إلى السامعين قصد علاجه. فولي الأمر إذا كان منحرفا أنانيا يصعب عليه تقويم سلوك أبنائه مهما حاول.

نقرأ ذلك من خلال قول الخطيب ((إن الذي يدخن وينهي ولده على التدخين ما أنصفه، وإن الذي يقامر ويضرب ولده على القمار أشهد أنه ظلمه، وإن الذي يكذب ويقول لولده لا تكذب؟ فليعلم أنه غشه وما نصحه، وإن الذي لا ير غب في مطالعة الكتب واكتساب المعرفة لا يرغب أبناؤه في ذلك إلا لبواعث من غير جهته، وأن الذي يقضي أوقاته في اللهو والمجون،لا يأمن على أولاده أن يكونوا أمعن منه في اللهو والمجون))[1].

والخلاصة أن هذه النماذج التي سقناها للاستدلال بها في باب الالتزام والواقعية نحسب أنها عبرت تعبيرا كافيا عن المقصود، علما بأن الخطابة في النثر الجزائري الحديث كان أصحابها ملتزمين بمقومات الأمة وقضاياها وواقعيين في المطالبة بها وبخاصة خطباء جمعية العلماء المسلمين الجزائريين الذين كانت بعض خطبهم محل الدراسة والتحليل والاستشهاد.

ثانيا : اللغة والأسلوب :

أ- **اللغة** : تعد اللغة وسيلة حتمية للحياة؛ إذ بدونها لا يتم التواصل بين الناس، وقد عرفها ابن جني بأنها ((أصوات يعبر بها كل قوم عن أغراضهم))[2] ، ويظهر ذلك في شتى مجالات الحياة الدينية والاجتماعية والاقتصادية والثقافية...

---

[1] الفضيل الورتلاني ، الجزائر الثائرة ، بيروت، لبنان ، سنة 1963م ، ص 157.

[1] سجل مؤتمر علماء المسلمين الجزائريين ، ص 172-173.

[2] أبو الفتح عثمان بن جني ، الخصائص ، حققه محمد علي النجار، دار الهدى للطباعة والنشر، بيروت، جـ1، ط2، ص 33.

ولكل أمة لغة تنطق بها وتفضلها على غيرها من اللغات الأخرى؛ إذ تعد ملكا خاصا بها ((وهي تأخذ بنصيب من الإيحاءات الذاتية الخاصة بفكرة الوطن والأسرة والدين وسائر العناصر التي يسميها علماء الأنثروبولوجيا باسم الثقافة))[3].

وهذا ولكل لغة غاية تتمثل في تحقيق الصلات بين الإنسان والإنسان أو معرفة الإنسان للأشياء.

أما عن علاقة اللغة بالعمل الأدبي فهي بمثابة الروح للجسد؛ إذ لا يمكن الفصل بينهما، لذا تعد عنصرا من عناصره المهمة في التعبير الفني، وقد اعتبرها كثير من النقاد في عصرنا الحاضر وسيلة الأديب للتعبير والإبداع ((فهي موسيقاه، وهي ألوانه، وهي فكره، وهي المادة الخام التي سوى منه كائنا خلقه الشاعر أو القاص أو المسرحي من ذاته، كائنا ذا صوت يحمل صورة، وكما يحمل الحجر صورة نابضة لمثال بارع فكذلك اللغة في يد الشاعر أو الكاتب قادرة على أن تحمل صورة نابضة حية))[1].

ويرى البعض الآخر أنه يصعب تقسيم العمل الأدبي إلى عناصر ((لفظ ومعنى، أو شعور وتعبير، فالقيم الشعورية والقيم التعبيرية كلتاهما وحدة لا انفصال لها في العمل الأدبي، وليست الصورة التعبيرية إلا ثمرة للانفعال بالتجربة الشعورية، وليست القيمة الشعورية إلا ما استطاعت الألفاظ أن تصوره وأن تنقله إلى مشاعر الآخرين))[2].

وأهمية عنصر اللغة ليس وليد اللحظة، وإنما يعود إلى بداية تاريخ النقد الأدبي عند العرب؛ فمن النقاد من رجح جانب اللفظ ومنهم من رجح جانب المعنى، ومنهم من يرى أنهما كالجسد والروح لا ينفصلان، ولعل الجاحظ من الأوائل الذين بوأوا اللغة مكان الصدارة في العمل الأدبي حين قال : ((المعاني مطروحة في الطريق يعرفها العجمي والعربي والبدوي والقروي، وإنما الشأن في إقامة الوزن وتخير اللفظ وسهولة المخرج، وكثرة الماء، وصحة الطبع وجودة السبك))[1].

---

[3] د.مصطفى ناصف، نظرية المعنى في النقد العربي ، دار الأندلس ، بيروت، ط2، سنة 1981م، ص 144-145.

[1] د.محمد زكي العشماوي، قضايا النقد الأدبي بين القديم والحديث ، ص 134.

[2] سيد قطب، النقد الأدبي ، أصوله ومناهجه، مطبعة دار الشروق ، بيروت ، ص 19.

[1] الجاحظ ، الحيوان ، تحقيق وشرح عبد السلام محمد هارون، مطبعة إحياء التراث العربي ، بيروت ، جـ3 ، ص 31.

وقد ذهب هذا المذهب أيضا أبو هلال العسكري في قوله : ((وليس الشأن في إيراد المعاني، لأن المعاني يعرفها العربي والعجمي، والقروي والبدوي، وإنما هو في جودة اللفظ وصفائه، وحسنه وبهائه، ونزاهته ونقائه، وكثرة طلاوته ومائه، مع صحة السبك والتركيب، والخلو من أود النظم والتأليف، وليس يطلب من المعنى إلا أن يكون صوابا))[2].

أما ابن جني فقد ذهب في كتابه الخصائص إلى القول أن اللفظ في خدمة المعنى، وأفرد بابا خاصا في هذا الموضوع عنوانه : باب في الرد على من ادعى على العرب عنايتها بالألفاظ وإغفالها المعنى، قال فيه : ((اعلم أن هذا الباب من أشرف فصول العربية وأكرمها وأعلاها وأنزهها، وإذا تأملته عرفت ما يؤنقك، ويذهب في الاستحسان له كل مذهب بك، وذلك أن العرب كما تعنى بألفاظها فتصلحها وتهذبها وتراعيها، وتلاحظ أحكامها بالشعر تارة وبالخطب أخرى وبالأسجاع التي تلتزمها وتتكلف استمرارها، فإن المعاني أقوى عندها وأكرم عليها وأفخم قدرا في نفوسها))[3].

ومن قوله أيضا : ((فإذا رأيت العرب قد أصلحوا ألفاظها (ألفاظ العربية) وحسنوا وحموا حواشيها وهذبوها وصقلوا غروبها وأرهفوها، فلا ترين أن العناية إذ ذاك إنما هي بالألفاظ، بل هي عندنا خدمة منهم للمعاني وتنويه بها وتشريف منها))[1].

فبعد هذا العرض الموجز لمسألة اللغة وما تبوأته من مكانة في العمل الأدبي بصفة عامة، يجمل بنا الآن الشروع في دراسة بعض خصائص لغة الخطابة في النثر الجزائري الحديث محاولين تتبعها من خلال بعض النماذج المختارة لبعض الخطباء:

-نبدأ بظاهرة السهولة والمباشرة في لغتهم لأنهم لم يكن همهم إبراز براعتهم اللغوية بقدر ما كان كل همهم توصيل آرائهم والوقوف على المقاصد مباشرة، لذا تعاملوا مع اللغة تعاملا مباشرا.

ومن هؤلاء الخطباء الأستاذ عبد الحميد بن باديس في خطاب ألقاه في الاجتماع العام بنادي الترقي، يقول بعد أن حمد الله وأثنى على نبيه وعلى آله وصحبه ومن والاه: ((أيها الإخوان : سأعرض

---

[2] أبو هلال العسكري ، الصناعتين ، الكتابة والشعر، تحقيق مفيد قميحة ، مطبعة دار الكتاب العالمية ، بيروت، ط2، سنة 1981م، ص 68.

[3] أبو الفتح عثمان ابن جني ، الخصائص، جـ1 ، ص 215.

[1] المصدر السابق، جـ1 ، ص 299.

عليكم في هذا الخطاب حالة الجمعية في السنة الماضية وأعمالها والحالة الحاضرة وموقفها فيها وما تنويه من الأعمال في المستقبل بإعانة الله.

فأما السنة الماضية فقد كانت منشطرة إلى شطرين، فأما شطرها الأول فقد أوفدت الجمعية من رجالها للوعظ والإرشاد وفودا لبلدان القطر في العمالات الثلاث، وقامت تلك الوفود بمهمتها خير قيام وكانت تتلقى من رجال الحكومة كما تتلقى من الأمة بكل إكرام، وأما الشطر الثاني منها وهو الذي يبتدئ بصدور قرار منع العلماء من الوعظ والإرشاد بالمساجد، فقد كان شطر بلاء وعناء على الجمعية ورجال مجلس إدارتها فمن تنمر وجرم إلى إلصاق تهم، إلى خلق عراقيل، إلى استثمار ذمم، ومن وعد وترغيب إلى وعيد وترهيب، كل هذا والجمعية ورجال مجلس إدارتها ثابتون ثبوت الجبال ثقة من أنفسهم بأنهم دعاة حق وقصاد خير، وعمال لصالح هذا الوطن بأمته وحكومته وجميع ساكنيه، فانسلخت هذه السنة وأعمال الجمعية هي هذه ! ما قام به وفودها من وعظ وإرشاد من وعظ وإرشاد، وما قام به رجالها من تعليم في عدة بلدان، وما نشره كتابها في جريدة الجمعية، جريدة السنة النبوية المحمدية التي لقيت -بحمد الله من المسلمين- غاية الإقبال.

هذا كله قام به رجال الجمعية ولا غرابة أن يقوموا به فهم من أهل العلم وما أهل العلم إلا الذين ينشرون العلم بدروسهم ومحاضراتهم وخطبهم ومنشوراتهم))[1].

الخطيب في كلامه هذا استطاع أن ينقل لنا صورة واضحة عن حالة الجمعية وما قدمته من أعمال جليلة للأمة رغم العوائق التي اعترضت سبيلها، وفي هذا كله وجدناه قد ابتعد عن الغرابة والعجمة في لغته فجاءت سهلة مباشرة ذلك ما نلحظه في بناء الخطبة؛ إذ لم يبذل كثير عناء في اختيار ألفاظها وتراكيبها لأنه لم يقصد إلى إبراز براعته اللغوية بقدر ما كان همه الوقوف على الغاية المرجوة وهي تبيان الحقيقة للمتلقي وتوضيحها.

ومن الخطباء الذين اعتمدوا أيضا على اللغة السهلة المباشرة الشيخ البشير الإبراهيمي في خطبته التي ألقاها صبيحة اليوم الأول من أيام الاجتماع العام الخامس لجمعية العلماء المسلمين الجزائريين الذي عقد بنادي الترقي بعاصمة الجزائر في سبتمبر 1936 م .منها قوله عما

---

[1] عبد الحميد بن باديس ، آثاره ، جـ1 ، ص 162-163.

قامت به الجمعية من أعمال : ((...نجحت في دعايتها إلى العلم النافع الصحيح وفي دعايتها إلى الأخوة الإسلامية الحقيقية –وبأنها انتصرت في حملتها على الخرافات والأوهام والدجل وانتصرت أو كادت في حربها للجمود والعوائق الضارة والتقاليد السخيفة- وبأنها أفلحت في تربية الأمة على عدم الخوف إلا من الله والرهبة إلا منه وأن تواصل فيه وتقاطع فيه وأن تبني حياتها على الأعمال والأسباب، وفي تربيتها على تقدير الكفايات وتقديم الأكفاء لشؤونها العامة. وفي إرشادها إلى وجوه البذل المشروعة المعقولة بعد أن كانت تبذر أموالها فيما يضر ولا ينفع، وفي تحبيب الدين وشعائر الدين إلى طوائف من الشباب المهمل وإشرابهم معنى العزة الإسلامية وكرامة النفس))[1].

القارئ لكلام الخطيب يلحظ بوضوح التحرر الظاهر من صفات الفخامة في الألفاظ، والغرابة في الانتقاء، والصعوبة في النطق، إلى إيثار لغة سهلة مباشرة ولعل السبب –فيما أعتقد- يعود إلى أن أكثر خطباء الجمعية كانوا منشغلين بالإصلاح، وهذا ظرف له لغة خاصة تتفق وسبيلهم في ذلك. فجاء نتاجهم الخطابي يخاطب النفوس مباشرة دون تعميق أو بحث عن حجة مقبولة أو برهان عقلي حتى يقنعوا السامعين.

ومثل هذه اللغة لها أثرها الفاعل في المتلقين وبخاصة في مثل الظروف التي تعيشها الأمة الجزائرية آنذاك؛ إذ الموقف يستدعي ذلك، وهذا لا يعني أن لغتهم فيها مظاهر لفظية غير ملائمة، بل إذا تأملت ما جاء في الخطبة وجدت ألفاظها وتراكيبها أدت المعنى المطلوب دون عنت؛ إذ الخطيب يريد بهذه اللغة المتسمة بالسهولة والمباشرة البعيدة عن التعقيد إلى إلهاب المشاعر وإثارتها فيمن حوله من المتلقين قصد مواصلة المسير والانضمام إلى الجمعية.

ومثل ذلك ما جاء أيضا في خطاب الشيخ العربي التبسي يوم 19 أوت 1951 م حديثه عن القضية الدينية الإسلامية في الجزائر، يقول : ((القضية الدينية الإسلامية في الجزائر قضية قديمة العهد، واعتداء الحكومة على حرية الدين الإسلامي وجد بوجود الاحتلال، ومخالفة الحكومة للقوانين الدستورية القاضية بالتفريق بين الدولة والدين بدأت على وجه التقريب في 7 سبتمبر 1830 م أي بعد الاحتلال مباشرة، في هذا التاريخ بدأ بدخل الحكومة في الدين الإسلامي بإصدار قرارات تدخلت بموجبها الحكومة في الدين، وشرعت تضع يدها على

---

[1] **محمد البشير الإبراهيمي، آثاره، جـ1، ص 286.**

مؤسساته وأوقافه، وتتصرف في رجال الدين كما تتصرف في شؤون الدنيا بدعوى أن الدين الإسلامي في الجزائر أمر دنيوي لأن هذا الدين مخلف من مخلفات الدولة العثمانية، وميراث يرثه الغالب من المغلوب، ذلك أن الاستعمار وجد الحكومة العثمانية في ذلك العصر هي التي تتصرف في الشؤون الإسلامية الدينية في العالم الإسلامي كله.فقالت فرنسا الغالبة : أن من حقها أن ترث كل شيء كانت تتصرف فيه حكومة الخلافة الإسلامية، لا فرق بين ما كانت تتصرف فيه باسم الخلافة كالشؤون الدينية وما كانت تتصرف فيه باسم الدولة كشؤون الدنيا))[1].

نلحظ في كلام الخطيب أنه اعتمد على الألفاظ الشائعة المشتركة بين الناس، فالموقف لا يحتاج منه البحث عن ألفاظ ذات قدرات خاصة في التصوير والتلوين والمفارقة.فجاءت لغته أقرب إلى السلاسة منه إلى التعقيد وإن حشد فيها كثيرا من القضايا يمكن أن تنسب إلى القضية الأم.القضية الدينية.

من هنا استطاع الخطيب أن يقترب من تلك اللغة السهلة المباشرة المعبرة عن مشاعره إزاء الواقع مما جعل كلامه بسهولة ألفاظه وحسن نسج تراكيبه أن يهز نفوس المتلقين ويؤثر فيهم.

وإذا مضينا في بحث أمر سهولة ومباشرة لغة الخطابة في النثر الجزائري الحديث وجدناها أيضا في خطب الأستاذ محمد خير الدين.ويظهر ذلك بجلاء في خطابه الذي ألقاه بمناسبة الاحتفال بالناجحين في الشهادة الأهلية بالمعهد سنة 1954 م منه قوله : بعد أن حمد الله وأثنى على نبيه محمد صلى الله عليه وسلم : ((أما بعد فإن العلم أشرف المطالب، وأسنى المقاصد والرغائب، فهو حياة الأمم وهو عزها ومجدها وهو سعادتها في الدنيا والآخرة، إنه في الدنيا طريق معرفة أسرار الكون، به يهدي الله الإنسان إلى سر ما خلق له ليسخره لفائدته، وينتفع به في حياته، ومصداق ذلك قوله تعالى : **{قال فمن ربكما يا موسى قال ربنا الذي أعطى كل شيء خلقه ثم هدى}**[*] ، وقد قيل في تفسير الآية الكريمة أنه سبحانه وتعالى أعطى كل شيء يوم خلقه كما هو، وأودع فيه سره ثم هدى إليه من شاء وأراد، إنما تكون الهداية بأسبابها، ولمن سلك طريقها وتوسل إلى غايتها **{إن الله**

---

[1] العربي التبسي، مقالات في الدعوة إلى النهضة الإسلامية في الجزائر، ص 179.
[*] طه / 49-50.

لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم}** ، والأمة النهمة في ميدان العلم التي لا تشبع من المعرفة، ولا تكل من سلوك طرقها الوعرة هي الأمة التي تصل إلى المجد.الأمة العزيزة المنيعة الجانب، الأمة القوية المتفوقة السائدة، بينما الأمة الزاهدة في العلم القنوعة، بعكس ذلك، وقد أرشدنا القرآن الكريم إلى طلب المزيد من العلم بقوله تعالى يخاطب نبيه صلى الله عليه وسلم : **{وقل رب زدني علما}*** ...))**[1].

القارئ بإمعان يلاحظ أن الخطيب في حديثه عن العلم والترغيب فيه قد آثر اللغة السهلة المباشرة الجارية على قواعد النحو، كما عمل على ألا يخرج مهمة ألفاظه عن إيصال المعاني إلى السامعين دون تعب أو عناء، وقد يعود ذلك إلى طبيعة السهولة التي تميزت بها الخطابة في النثر الجزائري الحديث.

فإذا تأملنا ألفاظ هذه الخطبة التي مضمونها تنبيه المسلمين إلى أهمية طلب العلم، فإننا نجد الخطيب قد تخير ألفاظا وتراكيب سهلة غير متكلفة ولا غريبة أدت المعنى المطلوب بسهولة ويسر دون عنت ولا مشقة، فكانت الخطابة بجملتها موحية لأنها صادرة عن نفس تعيش الواقع وتتألم لأحداثه منبهة إلى مراجعة الذات والحذر من الخطر المحدق بالأمة.

ولنقرأ خطبة أخرى للشيخ الطيب العقبي التي منها قوله : ((وصلنا باريس فألفينا أناسا ولاقينا رجالا لا كمن تعرفونهم هنا بين ظهرانيكم أناسا ورجالا مهذبين مثقفين متحلين بالآداب العالية والأخلاق الفاضلة من السراج والكناس إلى أرقى حاكم وأعلى شخصية.تلك الآداب والأخلاق لو كان المسلمون الذين جاء دينهم الإسلامي متمما لمكارم الأخلاق ومبشرا بأعلى الآداب، متحلين بأحسنها في كامل بلادهم لكانت حالهم غير الحالة...))[1].

من يقرأ قول الخطيب يلاحظ السهولة والمباشرة في لغته، ويظهر أنه اعتمدها قصدا لأن همه توصيل الفكرة إلى المتلقي دون عناء والوقوف على الغاية المرجوة مباشرة.فتأثره بما رآه في باريس من سلوك حضاري تجلى به أناسها ورجالها أثر فيه أبلغ الأثر مما

**** الرعد / 11.**

***** طه / 114.**

(1) محمد خير الدين ، مذكرات ، جـ1 ، ص 219-220.

(1) سعيد (من صور وفد المؤتمر الإسلامي الجزائري، استقبال الأمة لوفودها...خطاب الشيخ العقبي)، الأمة ، ع 84، 4 أوت 1936م .

دفعه إلى القول السهل المباشر حتى يفهم السامعين ويدعوهم إلى تلك الآداب والأخلاق التي حث عليها دينهم.

-والملاحظ أيضا على الخطابة في النثر الجزائري الحديث، اللغة التقريرية الوصفية؛ الأمر الذي يدفعنا إلى القول أنها تسجيل لأحداث تاريخية تعكس ما كان عليه الوضع آنذاك.

فالشيخ ابن باديس مثلا في خطاب له يتحدث عن صحف الجمعية يقول : ((أيها الإخوان : ها هي السنة الثالثة للجمعية قد مضت فماذا عملت الجمعية فيها؟ وأين بلغ أثرها؟ وماذا لقيت فيها الجمعية من الله تعالى ومن الناس؟.

نشرت الجمعية صحيفة السنة، فصحيفة الشريعة فصحيفة الصراط، فلقيت كلها من الأمة من الإقبال والرواج ما لم تلقه صحيفة قبلها، وما أحبها المؤمنون حتى أحبها الله، ولا يوضع الحب في الأرض حتى يوضع في السماء، ولكنها لقيت من ناحية إدارية خاصة البغض والتنكر والاضطهاد فسقطت الصحيفة الأولى ثم الثانية ثم الثالثة، وقرن تعطيل الثالثة بمنع الجمعية من إصدار أي صحيفة منعا سيبقى لطخة سوداء في جبين حرية القول والتفكير في تاريخ الصحافة في القرن العشرين الذي يسمونه عصر الحرية والنور))[1].

فالدارس حين يتأمل هذه الخطبة ويقرأ قول الخطيب يشعر وكأنه يتصفح كتابا تاريخيا ينقل أحداث تلك الفترة.فهنا يتعلق الأمر بصحف الجمعية وما لاقته من رواج وإقبال من محبيها، وفي المقابل ما لاقته من بغض وتنكر واضطهاد من قبل الإدارة الاستعمارية .فجاء هذا كله في لغة تقريرية وصفية استطاعت أن تنقل للمتلقي صورة كاملة عن صحف الجمعية وموقف الإدارة الخاصة منها، ومن حرية القول والتفكير في الجزائر.

وهناك خطيب آخر وهو الأستاذ محمد خير الدين الذي تناول في خطبة له الحديث عن الشباب بلغ فيها درجة عالية من صدق المعاناة، بيدأن لغته كانت تقريرية وصفية، يقول : ((...من المؤسف بل من المحزن أننا نرى شبابنا العاملين الذين هم عماد هذه الحركة في المستقبل لم يزالوا يقنعون من العلوم بنظرياتها السطحية، ولم ينفذوا ببصائرهم إلى الحقائق، ولم يزالوا جاهلين لقيمة الوقت، غير متخلقين بخلقي الصبر والجد، ولم يزالوا مضطربين في سلوكهم اضطراب المتحير المتردد، ولم يزالوا مرضى بالتقصير والكسل والفتور، فترى

---

(1) **عبد الحميد بن باديس، آثاره ، جـ4 ، ص 176.**

الواحد منهم يتحمس ولكن ما دامت دواعي التحمس موجودة، فإذا زالت تلك الدواعي خمدت الحماسة وبردت العزائم.وهذا عيب فاضح لا تتحقق لنا معه غاية، ولا نصل معه إلى مقصد ما دام سائدا في ربوعنا ومتسلطا على عقول أبنائنا...))[1].

مما يلاحظ على لغة هذه الخطبة أنها تقريرية وصفية عبر بها الخطيب عن صدق عاطفته، واستطاع من خلالها أن يصف لنا حالة الشباب في الجزائر وما أحدثه الاستعمارمن تغيير خطير في سلوكهم.فجاءت الصورة الوصفية كاملة يتلقاها المتلقي بكل تفاصيلها حتى أننا يمكن اعتمادها كوثيقة تاريخية في ضبط وضع الشباب في تلك المرحلة من تاريخ الجزائر الحديث.

وهذا أحمد توفيق المدني يلقي خطابا بالمسجد الحنفي منه قوله : ((إن هذا الاجتماع وهو الأول من نوعه يقع في ساعة سلط فيها الاستعمار سوط نقمته وعذابه على الشعب الباسل البطل، فالحقوق الإنسانية اضمحلت والأرض انتزعت من أصحابها، وأبواب الكسب الشريف أوصدت في وجه عموم الجزائريين، وأصبح اسمهم عند المستعمرين (البيكو) و(الترون دي فيقي) أي سيقان أشجار التين، وأصبحنا نرى جهات من الوطن مكتوب عليها دون حياء أو خجل؛ ممنوع دخول العرب والكلاب لقد أصبحوا في بلادنا، بلاد بني رستم وبني حماد وبني زيان، وبني عثمان، وعبد القادر والمقراني، أصبحوا كل شيء، وأصبح الجزائريون لا شيء، لقد وصلتم إلى أقذر دركات الذل والمهانة مع هذا الاستعمار الفضيع))[1].

الملفت للانتباه أن كلمة الخطيب قد اتسمت لغتها بالتقريرية والوصف، ويبدو أن تعامله بهذه اللغة يعود ربما إلى اعتبارها أداة لنقل أفكاره واضحة لجميع طبقات المجتمع ودعوته إلى مراجعة الذات، والنهوض ضد الاحتلال لرد مكائده ومظالمه الفضيعة، إلى جانب ما يمكن اعتباره تمكنا من التعبير المباشر والتصوير الواضح لواقع الأمة، ومدى تعامله مع ما يراه من أحداث وما يعيشه من تسلط الاستعمار على الشعب الجزائري.

ومن بين الذين اعتمدوا أيضا اللغة التقريرية الوصفية الشيخ العربي التبسي في خطبته يوم الاحتفال بختم الدروس في معهد عبد الحميد بن باديس، منها قوله : ((...إننا ندعو الحكومة بحق وقوة إلى

---

[1] **محمد خير الدين ، مذكرات، جـ 1، ص 150.**
[1] **أحمد توفيق المدني ، حياة كفاح، (مذكرات)، القسم الثاني، ص 76.**

الرحيل عن المساجد، وأنه لمن الواجب أن يكون للمساجد ضحايا من المنكوبين والمساجين، إن المناصب الدينية كلها مغتصبة منا، فلنسع لاسترجاعها.

إن أئمتنا ومفتونا اليوم من أتباع (البريفي) وليسوا من أتباع محمد، ولا شك أنهم ناقصو آداب وهم وسادتهم يعلمون ذلك، و إلا فكيف يرتبطون (بالبريفي) ولا يرتبطون بالمصحف.

ولو وجد من يعبد الله حقا لما دخل مسجد يعلم أنه أمامه (بوليسي) يتكلم باسم الدين، ورجال الإدارة من (قياد وباشغوات) يغلطون الأمة، ويحولون بينها وبين الحقيقة وإلا لما كان في الأمة من يدخل المسجد.

إن المجلس الجزائري مجلس زائف، الأمة كلها تعلم أنه زائف.والحكومة قبل غيرها تعلم أنه زائف.فلا حكومة فرنسا، ولا إدارة الجزائر.ولا حتى هذا المجلس البئيس يرجع إلينا مساجدنا، و إنما يرجعها إلينا عزمنا على أخذ حقنا، وعزم فرنسا على عدم احتقار الإسلام والاستهتار به والسخرية من أهله))[1].

ففي هذه الكلمة نجد الخطيب ينقل حقيقة الواقع الجزائري وما يعانيه من اعتداء على مقدساته، وحرمان الأمة من دينها وذلك باغتصاب مساجدها.

فمن يقرأ بإمعان قول الخطيب يلاحظ نقله الأمين لمجريات الأحداث في الواقع وذلك باتكائه على لغة تقريرية وصفية استطاع من خلالها إعطاء صورة واضحة للمتلقي، وهذا ما نلاحظه عند غالبية الخطباء الجزائريين لتمكنهم من أصول اللغة.الأمر الذي جعل وصفهم للواقع ينبض بالإشراق والحيوية، وهذا يؤثر إيجابا في السامع وينقله إلى المواجهة والنهوض ضد المحتل المغتصب لمقدساته.

وفي كلمة للشيخ محمد البشير الإبراهيمي تحدث فيها عن واقع المسلمين الذين صيرهم التفرق قليلا مستضعفين في الأرض، يقول : ((إن المسلمين كثير، ولكن التفرق صيرهم قليلا مستضعفين في الأرض، يشقون لإسعاد غيرهم، ويموتون في سبيل إحياء عدوهم، وإنها لخطة من الهوان يأباها أكثر الحيوانات العجماء، فكيف الخلائق العقلاء.

---

[1] العربي التبسي، مقالات في الدعوة إلى النهضة الإسلامية في الجزائر، ص 196-197.

لـو صـدقت نـسبة المـسلمين إلـى الإسـلام، وأشـربوا فـي قلـوبهم معانيـه الـسامية ومثلـه العليـا، واتخـذوا مـن كتابـه ميزانـا، ومـن لـسانه العربـي ترجمانـا، واتجهـوا إلـى هـذا الكتـاب الخالـد بأذهـان نقيـة مـن أوضـار المـصطلحات، وعقـول صـافية لـم تعلـق بهـا أكـدار الفلـسفات، لسعدوا به كما أراد الله، ولأسعدوا به البشر كما أمر الله، ولأصبح كل مسلم بالخير والصلاح سفيرا، ولكان المسلمون في أرض الله أعز نفرا وأكثر نفيرا، ولكان التقاء المسلم بالمسلم كالتقـاء الـسالب بالموجـب فـي صناعة الكهرباء ينتج النور والحرارة والقوة))[1].

مـا يلاحـظ علـى هـذه الكلمـة أن الخطيـب سما بلغتـه فيهـا إلـى مستوى فنـي رفيـع وجعلهـا موحيـة بأحاسيسه إزاء مـا يؤلمـه مـن واقـع المسلمين؛ إذ أن حديثه عن ذلك يوحي إلينا بمعنى الأخوة فـي الإسـلام، وهـذا الإحـساس زاد فـي إشـعاع لغـة الخطيـب وتعبيرهـا عـن مـدى ارتباطه بإخوانه المسلمين وانشغاله بقضاياهم.

وممـا تجـدر الإشـارة إليـه أن هـذا كلـه جـاء بتعاملـه مـع اللغـة التقريرية الوصفية، الأمر الذي جعل المستمع يتفاعل مع النص ويتـأثر لحال المسلمين في العالم.

وإذا مضينا في الحديث عن اللغة التقريريـة الوصـفية نجد أيضا الخطيب العقبي فـي خطابـه بمناسبة عودة وفد المؤتمر الإسلامي من فرنسا، منه قولـه : ((سرنا على بركة الله إلى أم العواصم مشرق أنـوار الحرية، وشـعرنا إثـر وصـولنا فـي قضاء مهمتنـا بدون أن نأخذ راحـة لأنفـسنا مـن أعبـاء الـسفر، زرنـا م (مـوريس فيوليـت) أب الجزائـر وحبيبها الوفي منذ كان في الجزائر ورأينا منـه مـا قصه عليكم رئـيس المؤتمر وأعظم زيارة كان لها الأثر في نفسي زيارتنا لرئيس الـوزراء (مسيو ليون بلوم) الذي يمثل الأمـة الفرنـسية، قابلنـا بمـا أثلـج الـصدور وسرت به القلوب كل السرور مقابلـة لا يمكـن أن تفسر بغيـر ظـاهرهـا وقـد شـرع فـي تنفيـذ بعـض مطالبنـا واعـدا تنفيـذ غيرهـا فـي القريـب العاجل، وأن قانون غلق المساجد الذي يهمنا أمره بصفة خاصـة ذهـب أدراج الرياح رغم أنف المعارضين المقترحين له))[1].

من يقرأ قول الخطيب يلاحظ أنـه استطاع أن ينقل لنـا صـورة موجزة عن تلك الرحلة التـي قـام بهـا وفـد المؤتمر الإسـلامي المبعـوث

---

[1] محمد البشير الإبراهيمي، آثاره ، جـ4، ص 60.

[1] سعيد (من صور حياة الجزائر، يوم مشهود في الملعب البلدي، بيانات وفد المؤتمر)، الأمة ، ع 85، 11 أوت 1936م.

إلى باريس قصد نقل مطالب الأمة ، وقد وجدناه اعتمد لغة تقريرية وصفية تحررت من صفات أسلوب الفخامة في الألفاظ والغرابة في الانتقاء والصعوبة في النطق فجاءت واضحة عبرت تعبيرا دقيقا عن رحلة الوفد ونقلت أحداثها نقلا أمينا للمتلقي وهذه كانت غاية الخطيب الذي وفق في تبليغ رسالته ، وأعانه على ذلك نوع اللغة التي اعتمدها في خطابه.

وأخيرا من الخطباء الذين اعتمدوا أيضا اللغة التقريرية الوصفية في حديثهم عن واقع المجتمع الجزائري، نجد الشيخ إبراهيم أبو اليقظان في خطبة له، منها قوله :

((نحن نريد رضوان الله، ولكن في الإخلاص لعدوه الشيطان.

نريد نعم الله الضافية؛ ولكن في استنزال نقمه بالمعاصي والموبقات.

نريد عزة الحق؛ ولكن في إتباع الباطل.

نريد جادة الصواب؛ ولكن في تعاريج الأخطاء.

نريد فضاء اليقين؛ ولكن في زعزعة الإيمان وضعف النفس.

نريد جنة الخلود؛ ولكن في السلوك في طرق الهلاك والفناء.

نريد السلامة والهناء؛ ولكن في أدغال الفتن والبلاء.

نريد الفوز في معترك الحياة؛ ولكن في الجزع وقلة الصبر وعدم التبصر.

نريد سمو المكانة والاحترام؛ ولكن في عدم احترام أنفسنا ووزنها بميزانها.

نريد القوة والعزة القومية؛ ولكن في تخاذلنا ودس بعضنا البعض.

نريد أنس الأخوة وصفاءها؛ ولكن في حقد وبغض، وحسد وظغينة.

نريد المناصرة والمؤازرة والتأييد؛ ولكن في إذاية بعضنا البعض، وامتهان هذا لهذا، وتجاهل ذاك بوجود الآخر...))[1].

وظف أبو اليقظان لغة تصويرية تحمل رؤيته للواقع، وتعبر عن تجربته التي تقوم أساسا على ذوقه الرفيع وإحساسه العميق ووعيه للكلمات وأبعادها، وتلك ميزة تدل عن روح الأصالة وانعكاس مباشر لها تنطبع في لغته وعمله الفني.

---

[1] **سجل مؤتمر جمعية العلماء المسلمين الجزائريين، ص 164-165.**

وباعتماده اللغة التقريرية الوصفية استطاع أن ينقل إلينا صورة حية عن واقع الأمة في عبارة بسيطة لكنها تحمل في طياتها جميع معاني الإشفاق والتطلع إلى التغيير الذي يراه من أقدس الواجبات.فحالة الأمة تستدعي الرجوع إلى الذات واستنهاض الهمم ومعرفة مكمن الداء ليتم العلاج، فهو هنا يثير في نفس المتلقي استشعار المسؤولية وواجب العودة إلى الله لتجاوز هذه الأمراض الاجتماعية التي تحيط بالأمة وأقعدتها عن أداء واجبها المنوط بها.

-ومما يلفت الانتباه أيضا أن لغة الخطابة في النثر الجزائري الحديث تمثلت الدين الإسلامي وفكره؛ وهذا ليس بدعا في مثل هؤلاء الخطباء الذين تشبعوا بروح الإسلام ومبادئه منذ الصغر.

فمن يتأمل كتاباتهم وبخاصة منها الخطابة يلاحظ أنها استلهمت عناصرها من العقيدة الإسلامية التي امتزجت بها امتزاجا كبيرا فأشرقت ألفاظها واستضاءت معانيها بالقرآن الكريم، وهذا أمر طبيعي لكثرة مدارستهم له والاسترفاد منه والتمثل بآياته؛ إذ قلما نجد خطبة تخلو من ذلك، وهذه بعض الشواهد التي تنهض دليلا على ما نقول :

فإذا أخذنا مثلا قول ابن باديس : ((...ليس الإنسان مطبوعا على الخير فقط، ولا على الشر فقط، ولا صقيلا غير مطبوع على شيء، بل هو بجزئه الروحي النوراني خير محض، ولكن باتصال ذلك الجزء الروحي بهذا الجزء الترابي تكونت غرائزه، فكانت منها أصول خير وأصول شر، ونهضة هذه الغرائز بمقاومة ما فيه من أصول شر، وإنماء ما فيه من أصول خير، والقرآن –يا سادة- معلم أخلاقي عظيم، فقد تضمنت آياته ذكر أصول الخير وما ينميها، وذكر أصول الشر وما يميتها وينجيها، وكل ما يزكي النفس وما يدسيها، ببيان منافع طريقة تلك لتركب، ومضار طرائق هذه لتجتنب))[1].

نلحظ في كلمة الخطيب أن لغتها تمثلت الدين الإسلامي وفكره مما جعل في نص خطابه ملامح دالة على تفهمه القرآن الكريم واستمداده منه.

لو رصدنا أكثر الأفكار المطروحة التي عبر عنها الخطيب لوجدناها تلتقي بمقاصد القرآن، ولعل ذلك يعود إلى ثقافته القائمة على النهل من ينبوعه، وهذا ما نلحظه من خلال قوله الآنف الذكر المستنبط مما يقرؤه من القرآن الكريم، بيدأن هذا التأثر لم يكن عن طريق الاقتباس مباشرة وإنما بتمثل الدين الإسلامي وفكره، غير أننا

---

[1] **عبد الحميد بن باديس ، آثاره، جـ 4، ص 48.**

نجده أحيانا يتعمق أكثر في مثل قوله : (وكل ما يزكي النفس وما يدسيها).

وهذا محمد البشير الإبراهيمي يلقي كلمة بمناسبة اندلاع الثورة يوم 1 نوفمبر 1954 م، منها قوله : ((إنكم مع فرنسا في موقف لا خيار فيه، ونهايته الموت، فاختاروا ميتة الشرف على حياة العبودية التي هي شر من الموت.

إنكم كتبتم البسملة بالدماء في صفحة الجهاد الطويلة العريضة، فاملأوها بآيات البطولة التي هي شعاركم في التاريخ، وهي إرث العروبة والإسلام فيكم.

ما كان للمسلم أن يخاف الموت وهو يعلم أنها كتاب مؤجل، وما كان لمسلم أن يبخل بماله أو بمهجته في سبيل الله والانتصار لدينه، وهو يعلم أنها مبايعة مع الله، وما كان له أن يرضى الدنية في دينه إذا رضيها في دنياه.

اخلصوا العمل لله، واخلصوا بصائركم في الله، واذكروا دائما وفي جميع أعمالكم ما دعاكم إليه القرآن من الصبر في سبيل الحق، ومن بذل المهج والأموال في سبيل الدين، واذكروا قبل ذلك كله قول الله : **{وجاهدوا بأموالكم وأنفسكم في سبيل الله}*** وقول الله **{كم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة بإذن الله والله مع الصابرين}****))[1].

فالبشير الإبراهيمي استولت على شعوره الروح الإسلامية فملكت نفسه بما تركت فيه من أثر واضح.

فالمتأمل لما جاء في خطبته يلحظ مدى اعتماده على آي القرآن وأفكاره، هذا ما يظهر بجلاء عند قراءتنا قوله الآنف الذكر؛ إذ لا يخطر على بالنا إلا تمثله الدين الإسلامي وفكره في قوله الذي جاء فيه حديثه عن الموت في سبيل الله والانتصار لدينه.

فهذه الأفكار مستقاة من الدين الإسلامي وقد اعتمدها الخطيب في لغته قصدا لما للدين من أثر بالغ في نفوس السامعين لكي ينهضوا ضد المحتل ويستجيبوا لله رب العالمين لينالوا شرف الحياة.

أما خطاب أحمد توفيق المدني فمنه قوله : ((عدوكم لم يتمكن منكم إلا بتفرقكم وخلافاتكم. فكونوا وحدة قوية تدحر الأعداء، إن

---

* **التوبة / 41.**

** **البقرة / 249.**

(1) **محمد البشير الإبراهيمي ، آثاره ، جـ 5، ص 35.**

الإسلام الطاهر الشريف الذي يقول: **{أقيموا الدين ولا تتفرقوا فيه}***، لا يرضى لكم أن تتفرقوا طرائق قددا، حول طرق صوفية مضلة ظاهرها الرحمة وباطنها من قبلها العذاب، فرقت الشعب، وشتت الشمل، ومزقت عرى الدين حتى أصبح كل منتسب لطريقة ما، وما أكثر الطرق، يلعن ويسب ويشتم، بل يخرج من الدين، كل المنتسبين للطرق الأخرى، وبذلك تحكم الاستعمار وساد))[1].

يتجه الخطيب في حديثه عن سبب تمكن الاستعمار من رقاب الناس اتجاها واقعيا؛ إذ كان السبب الرئيس في ذلك هو التفرق والخلاف الذي عمت أجواؤه كافة المجتمع الجزائري.

وهذا ما دفع بالخطيب إلى تمثل الدين الإسلامي وفكره في لغته لما له من سلطان قوي على النفوس، فجاءت معانيه التي ألم بها كلها من المعاني التعبيرية الموحية التي تجسد حالة المجتمع رجاء علاجها.

ومن المواقف التي وقفها علماء الإصلاح في بناء المجتمع الجزائري نجد الشيخ العربي التبسي في موقفه الداعي إلى الإنفاق في سبيل الله وذلك في خطاب له منه قوله:((...وكفر بالشعب الجزائري أن يشح بماله على الإسلام وهو يعلم أن الإسلام يربي الإنسانية على مكارم الأخلاق.

أيها المسلمون، إنكم تورثون الأحفاد والحفيدات معاني الإسلام السماوية الصافية، وأنواره الوضاءة المشرقة، ولكنه أن فقد الأهل والأكفاء مرتحل لا محالة، وإذن فالشح عليه تشويه لنصاعته، ومسخ لحقائقه، وتحقير لمبادئه، ويجب أن نعلم أن الفقر مع الإسلام خير من الغنى مع الكفر، هذا الكفر الذي نكاد نقع فيه إن سرنا هذا السير))[1].

ما نلاحظه في قول الخطيب شيوع أفكار إسلامية، مما يدل دلالة أكيدة على أنه تمثل في لغته آي الذكر الحكيم، وهذا من شأنه أن يبعث في المتلقي روح الاستجابة لأمر الله والعمل من أجل تغيير الوضع الذي تحياه الأمة.فذلك ما يريده الخطيب من الشعب الجزائري حتى يتم تحقيق معاني الإسلام السماوية الصافية ويعيشها الأحفاد والحفيدات على أرض الواقع.

---

* **الشورى / 13.**

(1) **أحمد توفيق المدني ، حياة كفاح ، (مذكرات)، القسم الثاني ، ص 76-77.**

(1) **العربي التبسي ، مقالات في الدعوة إلى النهضة الإسلامية في الجزائر، ص 228.**

وفي مجال إحياء الدين وإحياء الأمة ما جاء في خطاب الشيخ محمد خير الدين منه قوله : ((أيها الإخوان لا أعظكم بموعظة أكثر مما وعظ بها محمد وأصحابه.

{قل إنما أعظكم بواحدة أن تقوموا لله مثنى وفرادى}* لا حياة لهذا الدين إلا بالدعوة ولا حياة لكم إلا إذا قدمتم بالدعوة مجتمعين كما سنها الله وكما قام بها أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم. ليست الدعوة واجبة على العلماء وحدهم، إذ الدعوة إلى دين الله واجبة على كل مسلم، الدعوة إلى النصيحة ، إلى الإتحاد، الدعوة إلى التراحم والتعاطف.

ولا يكون هذا منكم إلا إذا قمتم بالدعوة العامة فادعوا إلى الله في المتاجر والأسواق، وادعوا إلى أخذ نصيبكم من الحياة الدنيا، فالدنيا مطية الآخرة وطريق القوة، ولا قوة بلا إتحاد، ولا قوة بلا أخوة،فكل واحد منكم عليه أن ينوب الرسول في إبلاغ الدعوة.فإذا بلغتم الدعوة فابشروا بالحياة.فلا قوة تحول بينكم وبين الحياة ولا مانع يمنعكم.والحمد لله الذي هدانا لهذا. فسيروا على بركة الله، وحرام أن تقفوا وسط الطريق، سيروا في كل ميدان حافظوا على أخوتكم، فهذه قواعد إن نحن حافظنا عليها ضمنت لنا الحياة السعيدة وإذا فرطنا أو تواكلنا فلا منجاة لنا، وكل مفرط سيدفع الثمن غاليا، وكل من باع حريته وكرامته فهو المسؤول))[1].

من يتأمل قول الخطيب ويراجعه يتبين له أنه ذو منهج تمثل الدين الإسلامي وفكره.ففاضت ينابيعه مصورة تلك العقيدة الراسخة التي كانت الأساس لكيانه وما يصدر عنه، وأشرقت بذلك لغته بألفاظ ومعاني قرآنية، وهذا ليس بدعا في مثل خير الدين وذلك لكثرة مدارسته للقرآن والاسترفاد منه والتمثل بآياته لتحقيق ما يصبو إليه من إصلاح أوضاع الأمة.

فاعتماده في لغته على التمثل بالدين وفكره جعله ينجح في تبليغ رسالته المبنية على الحث والترغيب في الدعوة إلى الله فرادى وجماعات وفي جميع الأحوال لأنها إحياء للدين وإحياء للأمة وسر الفلاح في الدنيا والآخرة.

وما جاء في باب حسن المعاملة قول الطيب العقبي في خطابه الذي منه : ((أيها الناس يلزمنا أن نعمل للخير العام، يلزمنا أن نكون

*** سبأ / 46.**

[1] محمد خير الدين، مذكرات ، جـ1 ، ص 203-204.

دائما متحدين متعاونين على كل خير حتى مع الفرنسي واليهودي ومن باب أولى وأحرى مع أهل المذاهب الإسلامية نحن المسلمين تجمعنا كلمة التوحيد ورابطة الإسلام فلا فرق بين مذهب ومذهب وبين عنصر وآخر والميزابيون إخواننا ولا يسوغ أن نعاملهم بغير ما نعامل به بعضنا البعض من الإحسان والتعاون فقد أعانونا في هذه المهمة واقتبلنا رؤساؤهم عند رجوعنا وهم حاضرون اليوم معنا يبهجهم ما يبهجنا ويحزنهم ما يحزننا))[1].

الناظر في قول الخطيب يلاحظ اعتماده الكامل في لغته على تمثل الدين الإسلامي وفكره فأشرقت ألفاظه وجاءت تراكيبه اللغوية معبرة تعبيرا يتناسب وأفكار الدين. بذلك استطاع نقل أفكاره واضحة تقنع المتلقي الذي يريده أن يتأسى بتعاليم الدين في باب المعاملة مع الناس جميعا.

وهذا يدفعنا إلى القول أن الخطيب كان قوي الصلة بالقرآن وتعاليمه مما جعله يتأثر بلغته وأسلوبه، الأمر الذي جعله يتمثله لتحقيق مقاصده.

وعن التقليد الفاسد يحدثنا الشيخ علي بن سعد القماري في خطبة منها قوله : ((إن الله عندما أبرزنا إلى الوجود خلقنا أحرارا في ذواتنا أحرارا في أفكارنا، أحرارا في عقيدتنا وما ذاك إلا لبعدنا عن الوقوع في هاوية التقليد لأن المقلد لا إيمان له وهب أن له بعض الإيمان فهو ليس بقادر على النضال والدفاع عنه وقت الخصام -وكفانا على ذلك شاهدا ودليلا- قول المولى جل وعلا :**{لا إكراه في الدين قد تبين الرشد من الغي}*** وعدم الإكراه في الدين هو عدم إلزام أحد بإتباعه إتباعا تقليديا لا عن تبصر وتفكير.

وما عصم كفار قريش عن الاهتداء بالوحي المحمدي إلا وجود أغلال التقليد في رقابهم **{وإذا قيل لهم اتبعوا ما أنزل الله قالوا بل نتبع ما ألفينا عليه آباءنا أو لو كان آباؤهم لا يعقلون شيئا ولا يهتدون}****.وكثيرا ما نجد هذه العقيدة الفاسدة في بعض المسلمين الجامدين فإذا ما دعوتهم إلى نبذ ما هم عليه من الخرافات والأوهام واتباع ما جاء به سيد الأنام قالوا حسبنا ما وجدنا عليه آباءنا منذ زمان، فإذا قلت لهم قال الله كذا، أجابوا بأن الشيخ الفلاني قال كذا مما

---

[1] سعيد، (من صور حياة الجزائر)، الأمة ، ع 85، 11 أوت 1936م.

*** البقرة / 256.**

**** البقرة / 170.**

هو معارض تمام المعارضة مع قول المولى جل وعلا فلو أنهم أدركوا قولهم غاية الإدراك لحكموا على أنفسهم بالإشراك))[1].

الخطيب في هذه الكلمة تعرض لمرض التقليد الذي يوقع صاحبه في الإشراك، ويهوي به في الضلال ويجعله أسيرا لهواه، وهذا المرض الفتاك قد ابتليت به الأمة، فكان لزاما على رجال الإصلاح في الجزائر التصدي له وتبيان مخاطره على عقول الناس وحياتهم.

ومن هؤلاء المصلحين الشيخ علي بن سعد القماري الذي ساهم في علاج هذا المرض. استطاع من خلال توظيف لغة تمثلت الدين الإسلامي وفكره في خطبته أن يجسد دواعي التقليد ومخاطره على المتلقي وأن يتوصل إلى حل يعتمد على استقراء التاريخ وأعمال الفكر لقهر هوى الذات واتباع ما أمر به الدين واجتناب ما نهى عنه حتى يتم تجاوز حواجز الوقوع في هاوية التقليد.

ونقف أخيرا عند خطبة الأستاذ الفضيل الورتلاني يدعو فيها إلى نصرة جمعية العلماء المسلمين الجزائريين منها قوله : ((...فإن كنتم أيها الإخوان موافقين لي في هذا النذر، فقولوا إننا معك وسجلوا على أنفسكم أنكم من أنصاره، فإن أعانني الله وإياكم على تحقيق هذا النذر، فلنبشر برحمة الله العاجلة وكمال رضوانه، وإن شئتم الدليل فاقرأوا قوله تعالى : **{لقد رضي الله عن المؤمنين إذ يبايعونك تحت الشجرة فعلم ما في قلوبهم فأنزل السكينة عليهم وأثابهم فتحا قريبا ومغانم كثيرة يأخذونها وكان الله عزيزا حكيما}*** تلك سنة الله القديمة ولن تجد تبديلا لسنته، وليس محالا ولا مستبعدا ولا ممتنعا أن نعيد لهذا الدين شبابه ونجني من ثماره، لكن إن كان صحيحا وحقيقا ما نزعم من أننا من أتباع محمد وأهل ملته، ذلك الرسول العظيم القائل لأبي طالب عمه، والقائم بالدفاع عنه حتى لا يناله سوء من أعدائه {يا عم والله لو وضعوا الشمس في يميني والقمر في يساري على أن أترك هذا الأمر الذي جئت به أو أهلك دونه ما تركته}** ...هذا ضرب من

---

[1] سجل مؤتمر جمعية العلماء المسلمين الجزائريين، ص 197-198.

*** الفتح / 18.**

**** ابن هشام ، السيرة النبوية، حققها وضبطها وشرحها ووضع فهارسها، مصطفى السقا وآخران، دار التراث العربي ، بيروت ، لبنان، جـ1 ، ص 285. والحديث (...حتى يظهره الله أو أهلك فيه، ما تركته).**

ثبات الأنبياء الداعين إلى الله بإذنه، وليس هذا الثبات من خصوصياتهم فقد كان لغيرهم نصيب في ذلك وشيء كثير من نوعه))[1].

الفضيل الورتلاني في خطابه هذا اعتمد لغة تمثلت الدين الإسلامي وفكره فجاءت مفعمة بألفاظ وتراكيب مسترفدة من آي القرآن الكريم لما لهذا الاسترفاد من قوة التأثير في نفوس المتلقين.

فالأوضاع التي تعيشها الأمة في البلاد أوضاع أفسدها الاحتلال الفرنسي .فدب الخلاف وتفرقت الكلمة، لكن هناك نداء حبيب في المجتمع الجزائري يدعوها إلى مراجعة الذات ونبذ الخلافات والإقبال على نصرة جمعية العلماء المسلمين الجزائريين التي تبذل جهودا معتبرة من أجل إنقاذ الأمة، لذلك ارتفع صوت الخطيب داعيا إلى مؤازرتها ومبايعتها من أجل تحرير النفوس من قيود الاستعمار.

أخيرا يمكن القول أن هذه النماذج الخطابية التي سقناها في باب اللغة كانت للتمثيل لا الحصر. ونحسب أنها عبرت عن الفكرة تعبيرا كافيا، لأن اللغة التي اعتمدتها استطاعت تحقيق مقاصد الإصلاح في الجزائر لدى هؤلاء الخطباء.

ب - الأسلوب :

تكتسي دراسة الأسلوب أهمية عند القدماء والمحدثين.وقد عرفه من القدماء عبد القاهر الجرجاني بقوله : ((والأسلوب الضرب من النظم والطريقة فيه، فيعمد شاعر آخر إلى ذلك الأسلوب فيجيء به في شعره فيشبه بمن يقطع من أديمه نعلا على مثال نعل قد قطعها صاحبها))[1].وهذا يعني أن الأسلوب عند الجرجاني هو الطريقة التي يختارها الأديب ويعتمدها في نظمه مشيرا إلى ظاهرة التقليد والاحتذاء عند البعض لأساليب غيرهم فتأتي مطابقة لها.

وعرفه من الغربيين مارسيل بروست بقوله : ((أن الأسلوب ليس بأي حال نوعا من الزينة أو زخرفا لها كما يعتقد بعض الناس، كما أنه ليس مسألة (تكنيك) إنه مثل اللون في الرسم، إنه خاصية الرؤية التي تكشف عن العالم الخاص الذي يراه كل منا ولا يراه غيره))[1].

---

[1] **سجل مؤتمر جمعية العلماء المسلمين الجزائريين ، ص 212-213.**

[1] **عبد القاهر الجرجاني، دلائل الإعجاز، وقف على تصحيح طبعه وعلق حواشيه السيد محمد رشيد رضا، دار المعرفة ، بيروت ، لبنان ، سنة 1981م ، ص 361.**

[1] **سمير أبو حمدان ، الإبلاغية في اللغة العربية، منشورات عويدات، بيروت، باريس، ط1، سنة 1991م ، ص 34.**

أي أن الأسلوب عنده هو بمثابة ذلك اللون الزاهي الذي يخالط ألوان اللوحة الفنية فيساهم بقدر كاف في تشكيلها وإخراجها رسما جميلا يكشف ويعبر عن رؤية خاصة للعالم.

وعرفه من المحدثين الدكتور عبد المطلب مصطفى بقوله : ((هو الطريقة الفنية التي يتبعها الأديب في التعبير عما يجول في أعماقه من أحاسيس، بحيث ينظم عبارته تنظيما خاصا كي يتمكن بذلك من نقل ما في داخله إلى قرائه فيفهم ويؤثر))[2].

أي أن الأسلوب هنا يعتمد الجانب الجمالي في التعبير عما يختلج في النفس.فتأتي العبارة منظمة تنظيما خاصا بحيث تمكنه من نقل أفكاره واضحة إلى المتلقي فتؤثر فيه.

من هنا يمنك القول أن تعريف الأسلوب يختلف من مدرسة أدبية إلى أخرى، لما تتفرد به كل منها بمواقف ورؤى خاصة بها إزاء الحياة والأشياء وطريقة التعامل معها. فمثلا الكلاسيكية تركز على الرصانة والأحكام وحسن التدبير، بينما نجد الرومنسية تعتمد العفوية والانطلاق والسباحة مع الخيال واستلهام الوجدان والعيش مع الأحلام.وإذا كانت الكلاسيكية عمادها التأمل والخيال المتعقل، فالرومنسية تذهب مع الخيال المجنح.وإذا كانت الكلاسيكية أكثر ما تهتم بالعالم الموضوعي الخارجي للإنسان والأشياء ومظاهر الوجود، فإن الرومنسية أكثر ما تهتم بالعالم الداخلي للإنسان وما يعتلج فيه من أحاسيس ومشاعر ووجدانيات[1].

وهذا يدفعنا إلى التأكد من اختلاف أساليب الكتابة في المدرستين السابقتين، كما اختلفت في مدارس أخرى تبعا لاختلاف المرجعية وتباين نظرتها إلى الوجود والإنسان والأشياء.

وحديثنا عن الأسلوب ينصب أساسا على العمل الأدبي وبخاصة منه الخطابة في النثر الجزائري الحديث التي تتميز بكونها ذات صلة وثيقة بمجاهل النفس الإنسانية، وما يدور حولها من مؤثرات خارجية، تكسبها مجمل الأبعاد التي تختزل من خلالها النطاقات الظرفية والسابقة واللاحقة والمتطلع إليها، لتكون منها مجموعة تفاعلات إرهاصية تعبيرية تظهر في أشكال متعددة تتقاسمها الفنون الأدبية،

---

[2] د.محمد عبد المطلب مصطفى، اتجاهات النقد خلال القرنين السادس والسابع الهجريين، دار الأندلس ، بيروت ، لبنان، ط1 ، سنة 1984م ، ص 124.

[1] أنظر د.مجد محمد الباكير البرازي، في النقد الأدبي الحديث ، ص 181...197.

وتمتلك أبرع وأسرع الطرق للتعبير والتجاوب مع الذات المنفعلة أو الأخرى التي تتجاوب معها في نطاق التأثر والمتعة.

وقد وضع أبو هلال العسكري للفنون النثرية مقاسات أسلوبية تكتب وتنضوي خلالها حتى تتسم بما يجب أن يكون عليه حال النص.

فأسلوب السجع والدوران معه في الخطبة مثلا إن كان بالجرعة المناسبة في التوظيف، فإن ذلك يزيد النص حركية وينشط فيه الحياة ويرفع المعنى أكثر والفنية إلى أجمل، أما إن كان أسلوب السجع في تصنيع واستكراه فإنه مدعاة للنفور والاستهجان، يقول : ((واعلم أن الذي يلزمك في تأليف الرسائل والخطب هو أن تجعلها مزدوجة فقط، ولا يلزمك فيها السجع، فإن جعلتها مسجوعة كان أحسن، ما لم يكن في سجعك استكراه وتنافر وتعقيد، وكثير ما يقع ذلك في السجع، وقل ما سلم إذا طال من استكراه وتنافر))[1].

والمقصد الذي يبتغيه الأديب هو الحاصل بالمعنى المراد إيصاله إلى المخاطبين بدقة متناهية، وأيضا تجميل هذا النص بما يستوعبه من أساليب تدفع فيه الحركة وترسمه بأحسن ما يمكن أن يجمل به من التعابير الأنيقة والأساليب الساحرة والخيال الممكن الحدوث والتصور، لأن المسائل في النثر لها جوهر العقل ومكمنه مقصدا أساسيا، ومن ثمة يأتي النص الخطابي في ديباجة حسنة المطالع دقيقة البنية في العرض موصوفة النتائج في بنية الخواتم، وهذا مبتغى الكتابة الأدبية الفنية ((فالكتابة الفنية تجنح إلى جمال العبارات وتقسيم الجمل وتحلية التعبير ببعض المحسنات البديعية، ويدخلها أيضا شيء من خيال الشعر...لهذا تعتمد على التوضيح والإبانة...مع مراعاة الأناة وقواعد الإلقاء))[1].

من هنا يجمل بنا أن نقف على بعض النصوص الخطابية في النثر الجزائري الحديث لنبين أنواع أساليبها، علما بأن هذه الأساليب الخطابية تتفرد بخصائص تميزها عن كثير من أساليب الفنون الأخرى لأنها تستمد روحها من طبيعة هذا الفن الذي يجمع بين الإقناع والاستمالة.فجاء الأسلوب متنوعا جامعا يثير العواطف ويحرك العقول لينفذ إلى استنهاض الهمم وشحذ العزائم ((ولذلك تسمى الخطابة الفن العملي، كما تسمى الفن الكامل لجمعه –في الإلقاء- بين شخصيتي الخطيب الحسية والمعنوية، ولاستخدامه جميع مواهب السامعين، فإن

---

(1) أبو هلال العسكري، كتاب الصناعتين، (الكتابة والشعر) ، ص 176.

(1) د.عبد الجليل عبده شلبي، الخطابة وإعداد الخطيب ، ص 23.

الخطيب يستخدم جسمه في الخطابة، فيشير بيديه، ويحرك رأسه، ويشكل أسارير وجهه،وكل هذه الحركات عنصر هام في التأثير الخطابي، حتى إذا قرئت الخطبة المكتوبة كانت فاقدة هذا العنصر الجثماني، مع صوت الخطيب وحسن إلقائه، فيذهب شيء من روعتها وقوتها الإنشائية))[2]، وهذا لا يعني أن الخطابة المكتوبة في الجزائر قد فقدت كل مقوماتها الأخرى، بل القارئ لها قراءة واعية يجدها تنبض بالحياة وتهز نفسه رغم غياب كثير من عناصر الخطابة التي تلقى مباشرة، وهذا ربما يعود إلى قوة التفاعل الإيماني والانسجام الكامل مع الموضوع الذي يلقيه الخطيب.

وأساليب الخطابة في النثر الجزائري الحديث متنوعة تنوع الموضوعات التي تناولتها، نقف عند بعضها لنبين مقاصدها في النص الخطابي .

-الوضوح :

يتسم أسلوب الخطابة في النثر الجزائري الحديث بسهولة العبارة ووضوح المعنى، وهذا كان يقصد إليه قصدا لأن فهم المعاني أساس الإقناع للمتلقي واستمالته.

وهنا لا نعني بالسهولة والوضوح أن الكلام يأتي مبتذلا سوقيا لا يوافق بناء اللغة العربية ومقاصدها، بل المقصود ((أن يكون سهلا في قوة، وساميا في وضوح وسهولة، يفهمه أنصاف المتعلمين ولكنهم يعجزون عن الإتيان بمثله))[1].

وكذلك يخاطب السامعين على قدر عقولهم، ويتكيف مع الظروف التي يعيشونها، وأن لا يقع في خطأ الغريب في الأسلوب، والمبالغة في التسامي في التعبير الذي يحدث فجوات عدم الفهم لدى السامعين.

فإذا تحاشى كل ذلك تحققت المقاصد المرجوة من الخطبة، يقول الجاحظ في الكلام : ((وأحسن الكلام ما كان قليله يغنيك عن كثيره، ومعناه في ظاهر لفظه...وكان صحيح الطبع بعيدا من الاستكراه ومنزها عن الاختلال مصونا عن التكلف))[2].

---

[2] أحمد الشايب، الأسلوب، دراسة بلاغية تحليلية لأصول الأساليب الأدبية، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، ط7، سنة 1976م، ص 94.

[1] أحمد محمد الحوفي، فن الخطابة، ص 178.

[2] الجاحظ، البيان والتبيين، دار الكتب العلمية ، بيروت ، لبنان، جـ 1 ، ص 47.

بمعنى أن الغريب والتعقيد في القول لا يناسب السامعين، بل يدفعهم إلى التفكير في المعاني، والتأويل للكلام، فيحدث النفور وعدم الانسجام والاستجابة لما يطرحه الخطيب.

ومما يدفع إلى السهولة والوضوح لدى الخطباء أن الكلمات السهلة الواضحة التي يعتمدونها في بناء أساليبهم أنسب وأبلغ في التأثير على شعور وعواطف السامعين.

والجنوح إلى الوضوح والسهولة لا ينافي أبدا قوة الأداء ودقة العبارة، وفي حديثنا عن هذا النوع من الأسلوب الذي اعتمده الخطباء وبخاصة منهم خطباء جمعية العلماء المسلمين الجزائريين، نكتفي بذكر نماذج خطابية لبعضهم قصد التمثيل.

فهذا عبد الحميد بن باديس في خطبة له تعرض فيها للحديث عن موقف الجمعية من الجهات التي تعاصرها وتلتقي بها في محجة السير وميدان الحياة، يقول موضحا موقف الجمعية من الحكومة : ((أما موقفها من الحكومة فهو هو، المطالبة والاحتجاج من ناحية الجمعية، والصد والإعراض من الناحية الأخرى. ولقد كنت في خطاب السنة الماضية علقت رجاء الجمعية على الحكومة الشعبية وحسنت الظن بها.

وأنا أعلن اليوم –مع الأسف المر- خيبة ذلك الظن ووهن ذلك الرجاء فحسبنا إيماننا بالله وثقتنا بأنفسنا فذلك –والله- أجدى لنا وأعون بالخير علينا))[1].

الخطيب لم يغرب في أسلوبه، بل جنح إلى الوضوح والسهولة في مخاطبة السامعين،((وفي هدأة من النفس تحتاج إلى إعمال العقل أكثر مما تحتاج إلى استفزاز العاطفة))[1]، يوضح موقف الجمعية من الحكومة التي أعرضت عن مطالب الأمة وتجاهلها.فعبر عن ذلك بكلمات مألوفة درج الناس على استعمالها، وعبارات لم يتسام فيها يغلق على السامعين فهم معانيها، مما أدى إلى وضوح الأسلوب الذي كان السبب الرئيس في رفع الملابسات وكشف الحقائق للناس.

هذا عن موقف الجمعية من الحكومة.أما عن موقفها إزاء الأحزاب فكان الأسلوب المستعمل في التعبير عن الموقف أكثر وضوحا وأدق تعبيرا عن نسبة الجمعية إلى الإسلام؛ إذ تخير الخطيب

---

(1) عبد الحميد بن باديس ، آثاره، جـ 4 ، ص 206.

(1) محمد عبد الغني حسن، الخطب والمواعظ، دار المعارف ، مصر ، ط4، سنة 1980م، ص 49.

كل ما هو واضح من الكلمات والتراكيب وبناء الأسلوب لإيصال أفكاره إلى المتلقي واضحة لا تحتاج إلى كبير عناء لفهمها أو تفسح مجالا للشك والتأويل، وليس بدعا أن يلجأ الخطيب إلى مثل هذا النوع من الإفصاح والوضوح في أسلوبه لأن من مقاصده إفهام الناس وإقناعهم.ذلك ما يلحظه القارئ من خلال قوله : ((وأما موقف الجمعية مع الأحزاب فأعيد فيه نص ما قلته بالسنة الماضية :(إن الإسلام عقد اجتماعي عام فيه جميع ما يحتاج إليه الإنسان في جميع نواحي الحياة لسعادته ورقيه وقد دلت تجارب الحياة كثيرا من علماء الأمم المتمدنة على أن لا نجاة للعالم مما هو فيه إلا بإصلاح عام على مبادئ الإسلام، ومن أحدث ذلك ما قرره مؤتمر القانون الدولي العام في حق الفقه الإسلامي وصلوحيته لأمور الحياة.فالمسلم الفقيه في الإسلام غني به عن كل مذهب من مذاهب الحياة.فليس للجمعية إذن من نسبة إلا إلى الإسلام، وبالإسلام وحده تبقى سائرة في طريق سعادة الجزائر، والبلوغ بها –إن شاء الله- إلى أرقى درجات الكمال))[1].

وهذا محمد البشير الإبراهيمي في خطاب ألقي بنادي الترقي يحدثنا فيه عن الأمة الجزائرية في أسلوب واضح لم نر فيه إغراب أو غريب في الألفاظ أو معنى صعب يحتاج إلى الاستخراج؛ إذ الأمر لا يحتاج إلى تخير الألفاظ وانتقائها ولا إلى التسامي الزائد في العبارات، وهذا لا يعني أن الخطيب سقط في الركاكة والكلام المبتذل، بل استطاع من خلال ذلك الأسلوب الواضح إعطاء صورة حقيقية عن الأمة الجزائرية وعلاقتها بمقوماتها الإسلامية ورغبتها الملحة في الأخذ بالأسباب لتجاوز محنتها.

والناظر بإمعان في قول الخطيب يلاحظ كما هائلا من المفردات السهلة والعبارات الدالة اعتمدت في أسلوبه فأضفت مسحة غالبة من الوضوح أدت إلى إفهام المتلقي وإقناعه، تأمل قوله : ((أيها الإخوة الكرام : إن هذه الأمة الجزائرية أمة واحدة ولا كلام، ربها الله وإمامها القرآن ونبيها محمد ولغتها العربية ودينها الإسلام، وأنها تحمل ما تحمله الأمم من المقومات الكلية، وإن كانت لا تحمل ما تحمله الأمم من المؤهلات للحياة.وقد أخذت تشعر بنقائصها الاجتماعية وأخذت تتلمس سبل الهداية لسد تلك النقائص، وتجلى هذا الشعور في رغبتها الصادقة في العلم، ورغبتها الصادقة في التعارف والاجتماع، ومن الشواهد التي لا تنكر والبينات التي لا يكابر فيها على هاتين الرغبتين

---

[1] **عبد الحميد بن باديس ، آثاره، جـ4، ص 206.**

ما رأيتموه بأعينكم في هذا النادي من اجتماع علماء الأمة ومتعلميها ومؤيدي العلم فيها، وما سمعتموه بآذانكم من الصرخات الداوية في رحاب هذا النادي))[1].

أما العربي التبسي في افتتاح دروس المعهد الباديسي، قال من خطبة له بعد أن حمد الله وصلى على نبيه : ((...وإنه من العجيب حقا أن تريد فرنسا بتجنيسها محو جنس إنساني كامل في وقت تمنع فيه القوانين الدولية إبادة أنواع الحيوان والطيور.

فماذا بقي إذن إلا أن نعتمد على أنفسنا متوكلين على الله، مستعينين بالصالح من أمتنا على تلافي الخلل، وإصلاح الفاسد، والمطالبة برفع مظلمة القرن العشرين الأولى...! وإن عملنا هذا الذي نقوم به، ونسعى من ورائه لتحقيق هذه الأهداف لهو جنس ودين لا سياسة وقوانين لأن تلك معركة أخرى لا ندري متى يحين أوانها، لأن الله خلق العباد ليكونوا عبيدا له، لا عبيدا لمخلوق آخر.ولذا فإننا لا نسلم في كرامتنا ولا نتهاون في الخطر الذي يهدد جنسنا وديننا، والله معنا، والقوانين العادلة الحكيمة تؤيدنا، وسنخرج بحول الله من الذل إلى العز، ومن الهمجية إلى المدنية، ومن النار إلى الجنة، وأن فرنسا لم تعمل أية مزية في الجزائر سوى أنها لم تقتلنا بدون سبب في الظاهر))[2].

القارئ بإمعان لما جاء في قول الخطيب يلاحظ أن أفكاره المطروحة تتسم بالجدية والعمق في معالجة الواقع الاجتماعي الذي تعيشه الأمة.إلا أنه تخير لها أسلوبا واضحا مناسبا صب فيه أفكاره، وليس بدعا أن يكون العمق في طرح الأفكار والوضوح في الأسلوب لدى الخطيب.فهذه خاصية تنم على مدى تمكنه من ناصية اللغة وأساليبها، وحسن استعماله لآلياتها في التعبير عن المقاصد.فجاءت المفردات سهلة مألوفة، والتراكيب انسيابية معبرة، والمعاني دالة دقيقة في بناء أسلوبه وهذه ميزة يشترك فيها كثير من خطباء الإصلاح في الجزائر، بل تعد من نقاط التلاقي بينهم عند تناولهم الموضوعات التي يعالجون فيها قضايا الأمة في أسلوب واضح وضوح الأفكار المطروحة.ذلك ما نلحظه ونلمسه بجلاء من خلال قول الخطيب الآنف الذكر.

---

(1) **محمد البشير الإبراهيمي، آثاره، جـ1، ص 141.**

(2) **العربي التبسي ، مقالات في الدعوة إلى النهضة الإسلامية في الجزائر، ص 233-234.**

ونقف أيضا عند محمد خير الدين لنبين من خلال أنموذج من خطبه عن مدى جنوحه إلى السهولة والوضوح في أسلوبه لما في ذلك من قوة التأثير في السامعين وبلوغ المقاصد يقول في خطبة له مبينا حقيقة العمل والانتساب لجمعية العلماء المسلمين الجزائريين : ((أيها الإخوة الكرام : إن انتسابنا لهذه الجمعية معناه التعاهد والتعاون على تنفيذ المرامي التي ترمي إليها، والمبادئ التي تسعى لها، وأصول هذه المبادئ هي :

إحياء الإسلام الصحيح بإحياء الكتاب والسنة ونشرهما بين الناس، حتى يرجع إليهما سلطانهما على نفوس المسلمين، ونشر فضائلهما وآدابهما، وإحياء اللغة العربية وآدابها، وإحياء التاريخ الإسلامي، وتاريخ رجال العز الميامين.وإحياء هذه الأصول يتوقف على عزائمكم الصادقة معشر الشباب العلمي العامل، وعلى ما تبذلونه من جهود في هذه السبيل، فأنتم أنتم رجال المستقبل، فأدوا أمانة الدين التي حملتموها إلى أهلها، وما أهلها إلا من يأتي بعدكم من الأجيال))[1].

الناظر في قول الخطيب يلاحظ بالرغم من توجيه كلامه للشباب المتعلم إلا أنه عمد إلى الأسلوب الواضح لأنه الأجدى والأنفع في عملية التواصل التي كانت الهدف الذي يقصده الخطيب؛ لذا وجدناه قد تحاشى الغريب والتعقيد الذي لا يلائم السامعين، بل جنح إلى أسلوب واضح في مفرداته ومعانيه وجيد غاية الجودة، وواف بالغرض الذي يقصده وهو تحميل المسؤولية للشباب في تبليغ الأمانة.

و أخيرا هذا الخطيب العقبي في خطابه بمناسبة عودة وفد المؤتمر الإسلامي من فرنسا، يقول : ((ذهبنا إلى فرنسا وبأيدينا المطالب التي قررتها الأمة يوم 7 جوان وقد عرفها العام والخاص فلم نذهب لنطلب استقلال الجزائر لأنه يلزمنا قبل هذا أن نستقل أولا في عقولنا وفي اقتصادياتنا، يلزمنا قبل ذلك أن نحرر عقولنا ونفكها من المرابطين الذين استعبدوها واستغلوها لأغراضهم الخسيسة بأبخس الأثمان إذا تباعدتم عن هؤلاء وعمرتم أدمغتكم بالمعارف أمكن لكم ذلك أما أن نطلب الاستقلال ونحن جهال فقراء مستعبدون باختيارنا للانتفاعيين من المرابطين وغيرهم فذلك فساد في الرأي))[1].

---

[1] **محمد خير الدين ، مذكرات ، جـ1، ص 149.**

[1] **سعيد (من صور حياة الجزائر) الأمة ع85، 11 أوت 1936م.**

القارئ بوعي لما جاء في الخطبة يلاحظ أنها اعتمدت أسلوبا واضحا مفهوما يرمي إلى إفادة المستمعين وتزويدهم بأخبار تلك الرحلة إلى فرنسا.فهنا يجب على الخطيب ((أن يكون فاهما ما يرد أداءه فهما دقيقا جليا، ثم يحرص على أدائه كما هو، ولذلك أثره البعيد في قيمة الأسلوب؛ لذلك كان الوضوح صفة عقلية قبل كل شيء))[1]، مما ترتب عنه الفهم والاقتناع لدى المتلقي حين حدد الخطيب مقاصد الوفد في ترتيب أولويات المطالب التي رفعت إلى الحكومة الفرنسية.

- **الموسيقى :**

من صفات أسلوب الخطابة أنه يتميز بجرس موسيقي رنان، ليكون خفيفا على اللسان، حسن الوقع في الآذان، وذلك بانسجام حروفه وعذوبة جرسها الموسيقي، وائتلاف الكلمات وتلاؤم الفقر وإيقاعها.

وجمال الأسلوب صفة لازمة له وبخاصة في الأعمال الأدبية التي لا غنى لها عنه.فالأديب المبدع ((يدرك ما في المعاني من عمق وما يتصل بها من أسرار جميلة إدراكا رائعا))[2] وبذلك تتحقق الصفة الفنية لأسلوبه، ويأتي جميلا إيجابيا يعبر عن الحالة النفسية التي تصدر عن خياله وذوقه وصدق عاطفته.

وهذه الصفات تظهر في الشعر بوضوح إلا أنه لم يختص بها وحده ((فإن النثر وجميع الفنون تشارك الشعر هذه الصفات فالموسيقى والتصوير والنحت والعمارة والأوبرا والسينما والرقص كلها يمكن أن تكون في الوقت نفسه قوية ومعقدة وهامة))[3].

ومن بين الفنون النثرية نجد أن فن الخطابة يمثل حقلا فكريا ((يتخذ من الكلمة الوسيلة الجمالية، لأن عنايته لا تقتصر على الإفهام والتعبير المباشر، بل تتعدى هذا إلى مستوى فاعليته في المتلقي))[1] الذي يتفاعل ويتأثر بما يسمعه من أساليب جميلة.

والشيء الذي يساعد على موسيقى الأسلوب؛ انسجام الحروف وحلاوة جرسها، وظهور السجع غير المتكافئ الذي تتميز به الخطابة، وهذا ليس بدعا؛ إذ له وقع حلو في الأذن، وسلطان على النفس،

---

(1) أحمد الشايب ، الأسلوب ، ص 186.

(2) أحمد ياسوف، جماليات المفردة القرآنية في كتب الإعجاز والتفسير ، دار المكتبي ، دمشق سوريا، ط1 ، سنة 1994م، ص 25.

(3) أحمد الشايب ، الأسلوب ، ص 199.

(1) د.عزالدين إسماعيل ، الأسس الجمالية في النقد العربي، عرض وتفسير ومقارنة، دار الفكر العربي ، ط3، سنة 1974م، ص 363.

((واعلم أن السجع لو كان عيبا لكان كلام الله معيبا؛ لأنه مسجوع كله ذو فواصل وقرائن...وأكثر خطب رسول الله صلى الله عليه وسلم مسجوع، كقوله : {إن مع العز ذلا، وإن مع الحياة موتا، وإن مع الدنيا آخرة، وإن لكل شيء حسابا، ولكل حسنة ثوابا، ولكل سيئة عقابا}...فأكثر هذا الكلام مسجوع كما تراه، وكذلك خطبه الطوال كلها.

فأما قولهم إن السجع يدل على التكلف فإن المذموم هو التكلف الذي تظهر سماحته وثقله للسامعين، فأما التكلف المستحسن فأي عيب فيه؟ ألا ترى أن الشعر نفسه لا بد فيه من تكلف إقامة الوزن، وليس لطاعن أن يطعن فيه بذلك))[2].

وللموسيقى قيمة كبرى في فن الخطابة، بل تعد عنصرا هاما من عناصره وترتبط به ارتباطا وثيقا لأنها الخاصية الجمالية الجذابة التي ((تضفي عليه ذلك الوزن الجميل المتمثل في النغم المتزن))[1]. مما جعله أكثر إ ثارا للقارئ و للمستمع على حد سواء، وهذا ليس بدعا في مثل هذا اللون من النثر الفني لأن الموسيقى ((لغة العواطف والوجدان، ولنغماتها درجات في الشدة أو في الضعف، واللين أو القوة، والسرعة أو البطء، ونحو ذلك من الصفات التي تصحبها آثار وجدانية و ألوان عاطفته من نشاط أو فتور))[2].

والخطابة في النثر الجزائري الحديث تحظى كغيرها من الخطب الكثيرة في الأدب العربي بجمال الموسيقى، ذلك ما نحاول تتبعه من خلال بعض النصوص الخطابية المختارة

إن ائتلاف الكلمات، وتناسب العبارات، وتلاؤم الفقرات، يضفي على الأسلوب نغمة عامة تستطيع إرضاء ذوق السامع أو القارئ، وهذا سبب رئيس في دفع الخطيب إلى الاعتناء بجمال الأسلوب وموسيقى العبارة.يظهر ذلك بجلاء في خطبة ابن باديس التي منها قوله : ((أما بعد، فسلام عليكم يا أعضاء جمعية العلماء المسلمين الجزائريين أجمعين، وسلام على مساجينكم في المساجين، وسلام على متهميكم في المتهمين، وسلام على منكوبيكم في المنكوبين، سجون

---

[2] ابن أبي الحديد ، شرح نهج البلاغة ، منشورات دار مكتبة الحياة ، بيروت ، تحقيق الشيخ حسن تميم، جـ1، سنة 1963م، ص 42.

[1] د.مفيد قميحة ، الأخطل الصغير حياته وشعره، دار الآفاق الجديدة ، ط1 ، سنة 1982م ، ص 298.

[2] عبد الحميد حسن ، الأصول الفنية للأدب ، مكتبة الأنجلو المصرية، ط2، سنة 1964م ، ص 23.

واتهامات ونكبات، ثلاث لا تبنى الحياة إلا عليها، ولا تشاد الصروح السامقة للعلم والفضيلة والمدنية الحقة إلا على أسسها، فاليوم –وقد قضى الله للجمعية بهذه الثلاث- أثبتت الجمعية في تاريخ الإسلام وجودها، وسجلت في صفحات الخلود رسمها، ونقشت في قلوب أبناء المستقبل اسمها، وبرزت في ذلك كله أسماء أولئك المسجونين والمتهمين والمنكوبين نجوما متألقة تأخذ بالأبصار))[1].

القارئ لقول الخطيب يلاحظ أنه تخير أسلوبا تخللته نغمة موسيقية متنوعة استطاعت إرضاء ذوق السامع بما فيها من إيقاع موسيقي جميل هادئ.

فالسجع الذي عمد إليه الخطيب جاء عفوا لا أثر فيه للتكلف والتعمل، مما زاد لكلامه حسنا وبهاء، يظهر ذلك من خلال ائتلاف الكلمات وتناسب العبارات وتنوع جرسها الموسيقي، أنظر كلمات أواخر الجمل يتبين لك ما نقول : (المساجين، المتهمين، المنكوبين، عليها، أسسها، وجودها، رسمها، اسمها).وهذا يدل على مدى اعتناء الخطيب بجمال أسلوبه قصد استقطاب المتلقي واستيعابه.

وقريبا من هذا ما جاء في خطبة أخرى لنفس الخطيب حين جنح إلى أسلوب يزخر بجرس موسيقي متنوع منها قوله : ((حوربت فيكم العربية حتى ظن أن قد مات منكم عرقها، ومسخ فيكم نطقها، فجئتم بعد قرن تصدح بلابلكم بأشعارها فتثير الشعور والمشاعر، وتهدر خطباؤكم بشقاشقها فتدك الحصون والمعاقل، ويهز كتابكم أقلامها فتصيب الكلا والمفاصل))[2].

الواضح من قول الخطيب أنه جنح إلى كلمات ((ذات مفهوم واضح في أذهان الناس..(حيث جاءت) متداخلة متشابكة يرتبط بعضها ببعض..ارتباطا وثيقا))[3] مما ساعد على ائتلافها وتناغم موسيقاها التي أضفت على الأسلوب رنة موسيقية متجانسة غير متكلفة خدمت الموضوع.

وهذا خطاب محمد البشير الإبراهيمي يبدؤه بأسلوب مفعم بنغمة موسيقية مؤثرة، يقول : ((نبتدئ الكلام باسم الله وحمده، وبالصلاة والسلام على سيدنا محمد بن عبد الله رسول الله وعبده، وبالرضى عن آله وأصحابه أنصار الحق وجنده، المؤمنين بعهده، المصدقين لوعده،

---

(1) عبد الحميد بن باديس ، آثاره ، جـ4 ، ص 208-209.
(2) المصدر نفسه ، جـ 4 ، ص 203.
(3) د.إبراهيم أنيس ، دلالة الألفاظ، مكتبة الأنجلو المصرية، ط4، سنة 1980م، ص 39.

وباستنزال الرحمة الشاملة على أئمة الهدى ونجوم الإقتداء الذين طالما ساورهم الباطل بسلطانه وأيده، وكاثرهم بمجموعه وحشده، ودمدم عليهم بهزيمه ورعده –فما وهنوا عند إرخائه، وما استكانوا عند شده، وما انخدعوا بهزله ولا لعبوا عند جده- وعلى عباد الله الصالحين المصلحين الذين وقفوا عند شرعه وحده، وأخلصوا عملهم لله بيقين القلب وعقده، وابتلاهم الله بالشر والخير فتنة فقالوا كل من عنده، ووفقهم لفهم حقائق الأشياء مما التبست عليهم المعاني ولا سموا الشيء باسم ضده))[1].

تخير الإبراهيمي لكلامه أسلوبا موسيقيا حسن الوقع في الآذان فجاء أكثره مسجوعا كما تراه، وقد أدى ذلك إلى إيجاد جرس موسيقي عام، ربما كان مقصودا من الخطيب في بداية خطبته قصد جلب انتباه المتلقي؛ لذا نلاحظ فيه بعض التعمل إلا أنه لم يكن فيه استكراه أو تنافر أو تعقيد، بل غلبت عليه نغمة موسيقية لها سلطان على النفس، وهذا من دواعي الخطابة ومقاصدها، لأن ذلك يأسر القلوب ويغذي العقول ويبعث في النفس الرغبة في الاستزادة وتقبل الأفكار التي تدفع إلى النهوض والتغيير في الواقع المعيش.

أما أحمد توفيق المدني نجده هو الآخر في خطابه يعتمد أسلوبا موسيقيا منه قوله: ((أيها القوم إن لكم دينا هو أشرف الأديان، صالحا لكل زمان ومكان، ولكم لغة هي لغة القرآن، أنشأت المدنية وبنت أنوار المعرفة وبددت ظلمات العالم فحل محلها النور. ولكم وطن –أي والله- لكم وطن من أغنى الأوطان وأشرفها وأغزها وأمجدها، وطن رأى فيما سلف عز الرستميين وشرف الحماديين وجهاد الزيانيين وفخار العثمانيين، وكرامة الأبرار المجاهدين))[1].

فهذا الأسلوب الذي تخيره الخطيب جاءت كلماته متآلفة ومتجانسة في جرسها الموسيقي فعبرت تعبيرا جميلا يرضي الأسماع.تأمل قوله حين قراءته تجده قد عمته نغمة جميلة تظهر بوضوح في الكلمات المسجوعة التي اعتمدها الخطيب قصد إضفاء إيقاع موسيقي جميل على عباراته للتأثير في المتلقي ودفعه إلى تحمل مسؤوليته إزاء أمته.

وفي نفس الخطبة وبنفس الأسلوب الموسيقي يقول ((انظروا إلى المستقبل أيها السادة نظرة أمل، ونظرة عمل، لا تقولوا إننا غلبنا

---

[1] **محمد البشير الإبراهيمي ، آثاره ، جـ 4، 132.**
[1] **أحمد توفيق المدني، مذكرات ، القسم الثاني ، ص 43.**

في الماضي، واندحرنا في الحاضر، بل قولوا إننا بإيماننا وبعملنا وبكفاحنا سننتصر في المستقبل، وسنرفع راياتنا خفاقة عالية.ليس العار على من غلب وانكسر السلاح بيده. فتاريخ العالم كله سجل لانتصار أعقبه انكسار وانهيار أعقبه انتصار، وتلك الأيام نداولها بين الناس.إنما العار كل العار هو الاستكانة والمذلة والصغار، والرضى بحياة الهوان، والسكوت على الجبروت والطغيان))[1].

فهذه النغمة الموسيقية التي عمت أسلوب الخطيب وردت قصدا لكن في غير استكراه مما أكسبه جرسا موسيقيا خفيفا على اللسان حسن الوقع في الآذان،وهذا النوع من الأسلوب المفعم بالنغم الموسيقي يؤكد انسجاما مع المعنى الدال على صدق الخطيب في دعوته إلى التفاؤل وعدم الاستكانة والسكوت على الطغيان.

وقريبا من هذا الأسلوب ما جاء في خطاب العربي التبسي الذي أعرب فيه عن استنكاره لتصرفات الحكومة الاستعمارية إزاء المسلمين في الجزائر، منه قوله : ((تريد الحكومة من هؤلاء المسلمين أن يحمدوها على شرها وظلمها وعدوانها عليهم، والويل كل الويل لمن توجع من ضرباتها، أو تألم من عذابها، أو شكا من جورها، أو طالبها بالإنصاف ومعاملة المسلمين بنفس ما تعامل به غيرهم، أو ذكرها بالديمقراطية، أو طالبها باحترام دستور بلادها واحترام قوانينها، تريد الحكومة الاستعمارية منهم أن يتجردوا من صفات الآدميين، وأن لا يطالبوها بحقوق الإنسان في جماعته وأفراده، تريد من صغارهم أن ينشأوا على الأمية، وأن يحرموا الثقافة، وأن تكون عقولهم ومداركم بعيدة عن عقول أهل زمانهم وأبناء وقتهم، لا يشبهون أبناء من يعيش معهم في هذا الوطن))[2].

لقد تعمد الخطيب تكرار بعض الكلمات الواردة في النص من مثل (تريد) واعتمد أيضا على السجع، وهذا قصد إيجاد أسلوب موسيقي يعبر عن الحالة المزرية التي تعيشها الأمة جراء تعسف الحكومة الاستعمارية في استعمال السلطة، وعلى كل حال فإن هذا النوع من الأسلوب الموسيقي يلائم الموضوع المطروح الذي يرمي الخطيب من ورائه استنهاض الهمم ويحفزها لمراجعة الذات والتصدي لإرادة الحكومة الاستعمارية.

---

(1) **المصدر السابق ، القسم الثاني ، ص 43.**
(2) **العربي التبسي ، مقالات في الدعوة إلى النهضة الإسلامية في الجزائر ، ص 182.**

ويتأكد لنا ما قلناه عن أسلوب الخطيب ما جاء أيضا في قوله : ((تريد منهم أن يحيوا حياة غريبة شاذة في أخلاقهم الفردية والجماعية . ففي نظر الاستعمار وفهمه ليس من حق هؤلاء التعساء أن يتحلوا بالفضائل والمكارم الفردية والاجتماعية التي يتحلى بها غيرهم.فحرام عليهم أن يلبسوا شعار الوطنية، وحرام عليهم أن ينتسبوا إلى آبائهم وأجدادهم العرب، وحرام عليهم أن يطالبوها باحترام كرامتهم الإنسانية، وحرام عليهم أن يطالبوها بالمساواة مع غيرهم من سكان هذا الوطن))[1].

فالتكرار كما قلنا لبعض الكلمات والسجع الوارد في كلام الخطيب يخدم موضوعه ويضفي على أسلوبه نغما موسيقيا جميلا يعبر عن مدى تمكنه من ناصية اللغة وحسن اختياره لأساليب مناسبة لما يطرحه من قضايا وأفكار يريد من خلالها الوصول إلى قلوب سامعيه والتأثير فيهم، وحثهم على مواجهة الإدارة الاستعمارية التي بالغت في ظلمها لهذه الأمة.

ومن المهتمين أيضا بالأسلوب الموسيقي في خطبهم نجد الفضيل الورتلاني في خطبة له يستهلها بقوله : ((الحمد الذي رفع السماوات بغير عمد، وأودع فيها شيئا عجبا بل فوق العجب، كيف لا ومنها نزل الوحي على من هدى الخلق ورشد، وحطم شوكة كل من تجبر وعاند، وفيها رزقكم وما توعدون من والد وولد، نحمده حمد شكر واعتراف بنعمه الجمة وفضله المتزايد الذي منه جوده علينا وتوفيقه إيانا للقيام بخدمة هذه البناية التي لم يسبق لها نظير –فيما أعلم- في العالم الإسلامي وأحرى في هذا البلد))[1].

إن ما يلفت الانتباه في أسلوب الخطيب أن موسيقاه تنبع من اختياره لكلماته وما فيها من تلاؤم في الحروف والحركات أضفت على قوله جرسا موسيقيا متميزا يعبر عن الحالة النفسية للخطيب التي تدل على النفس المطمئنة المتفائلة الداعية إلى خدمة المجتمع عن طريق جمعية العلماء المسلمين الجزائريين التي أسست من أجل ذلك.

وعلى كل من أراد خدمة الأمة أن يربط التفكير بالقول حتى يكون عضوا فاعلا يساهم في تغيير أوضاع المجتمع ((إننا كنا أمواتا بيدأن التكليف عنا لم يرتفع، وبما ذرأه الباري في بطن هذا الأديم من نعم للإنسان الكامل لم ننتفع، وأعجب من ذا أنه قد عد جميعنا في

---

[1] **المصدر السابق، ص 182.**

[1] **سجل مؤتمر جمعية العلماء المسلمين الجزائريين، ص 209.**

الإحصائيات الرسمية حتى كملت بنا ستة ملايين ودخلنا في السابع، ونحن بجهلنا وأميتنا لسنا سوى جثث هامدة في الحقيقة والواقع، حتى إذا ما تم البلاء ونادى لسان الحال البئيس التعيس وهو مشفع وشائع رحماك اللهم رحماك بخلقك إنه متحير وظمآن وجائع، فكان الكريم أقرب من حبل الوريد فاستجاب حينا وأزال كل مانع، ففتح منافذ الفكر فتحا مرضيا بعد أن كانت موصدة بحكم خرافات ديوان الصالحين، وعلى رؤوسهم الأقطاب الستة والغوث النافع، هنا انفتح الباب الأول على مصراعيه، باب التفكير في تكوين حياة لهذا القطر ونفخ الروح في أفراد شعبه...))[1].

فالمتأمل في قول الخطيب يكتشف أنه كان بارعا في اختيار نوع الأسلوب المناسب للموضوع، ويتجلى ذلك في السجع المعتمد الذي جاء عفوا لا أثر فيه للتكلف مما أكسبه نغما موسيقيا ينسجم مع المعنى الدال على صدق عاطفة الخطيب وإخلاصه في دعوته لتحمل مسؤولية التغيير لتكوين حياة أفضل لأفراد هذا الشعب.

وأخيرا هذا علي بن سعد القماري في خطبة له موضوعها التقليد وحرية الفكر شارك بها في مؤتمر جمعية العلماء المسلمين الجزائريين استهلها بقوله : ((أما بعد، فيا إخوان الصفا وخلان الوفاء أعضاء جمعية العلماء العاملين والمؤيدين لها، وفي طليعتهم حضرة الأستاذ الرئيس أحييكم، وأحيي فيكم تلك الهمة القعساء والغاية العلياء والأيادي البيضاء على الإنسانية جمعاء وعلى الإسلام بمحاربتكم المبتدعة))[2].

الخطيب هنا اختار أسلوبا مناسبا اعتمد فيه ألفاظا حروفها تحدث في آذاننا إيقاعات موسيقية معبرة، الشيء الذي أضفى على كلامه جرسا موسيقيا خاصا يناسب الحال والموضوع.

ويتضح ذلك أكثر في قوله : ((أيها الإخوان : إن الله عندما أبرزنا إلى الوجود خلقنا أحرارا في ذراتنا أحرارا في أفكارنا -أحرارا في عقيدتنا وما ذلك إلا لبعدنا عن الوقوع في هاوية التقليد لأن المقلد لا إيمان له وهب أن له بعض الإيمان فهو ليس بقادر على النضال والدفاع عنه وقت الخصام- وكفانا على ذلك شاهدا ودليلا قول المولى جل وعلا : **{لا إكراه في الدين قد تبين الرشد من الغي}*** وعدم

---

[1] المصدر السابق، ص 210-211.

[2] المصدر نفسه ، 197.

*** البقرة / 256.**

الإكراه في الدين هو عدم إلزام أحد بإتباعه إتباعا تقليديا لا عن تبصر وتفكير))[1].

فتشكيل موسيقى أسلوب الخطيب جاء معتمدا على حروف اللين وبخاصة حرف (الألف) في مثل (ذراتنا، أفكارنا، عقيدتنا، الإيمان، النضال، الخصام) كلمات تدل على مدى أهمية القضية المطروحة، كما لها وقع خاص وتأثير موسيقي يناسب إحساس الخطيب ويخدم الموضوع.

من هنا يمكن القول أن الاختيار لهذا الأسلوب المفعم بهذا اللون من النغم الموسيقي كان موفقا، وذلك ما كان يرمي إليه الخطيب للوقوف على المقاصد التي يصبو إليها، وهي التأثير في المتلقي وتنبيهه إلى مخاطر التقليد الذي يفسد عليه حياته، وقريبا من هذه القضية المطروحة ما جاء في خطبة الشيخ محمد بن صالح بن منصور منها قوله: ((أما بعد، فإن كل أمة تأخرت، وعن إدراك ما فيه خيرها وصلاحها عجزت، تجدها لا يقر لها قرار، ولا تهدأ لها أفكار، بل هي آناء الليل وأطراف النهار، تتطلب ضالتها المنشودة، وجوهرتها المفقودة، إلى أن تصل إلى غايتها المطلوبة، ومسألتها المرغوبة، فإن وصلت إلى مناها ونجحت في مسعاها، كان كل من ساعدها في سبيلها صديقا حميما إن شط به المزار، ومن تعرض لها بعكس ذلك وإن عد في الجوار، وإن غايتك المطلوبة ومسألتك المرغوبة، أيها المسلم هي أن تعرف ما أمرك به دينك وما نهاك عنه، ولا سبيل إلى ذلك إلا بالعلم، والعلم لا تجده إلا عند العلماء الذين هم ورثة الأنبياء، ورثوا العلم من أخذه أخذ بحظ وافر))[1].

فالخطيب يريد من الأمة أن تعود إلى دينها، وهو يعلم أن سبيل ذلك لا يتحقق إلا بطلب العلم؛ لذا وجدناه يعتمد في خطبته على الإقناع.

فتخير لذلك أسلوبا مناسبا اعتمد فيه نغما موسيقيا متنوعا له القدرة على استمالة المستمعين، وهذا السبيل ليس بدعا، بل اعتمده كثير من خطباء الإصلاح في الجزائر وقصدوا إليه قصدا إلا أنه قصد لا تكلف فيه مما أضفى على النص الخطابي جانب جمالي أثر في عواطف الناس، وهذا في حقيقة الأمر يعد من المقاصد الأساسية في الخطابة.

---

[1] **المصدر السابق ، ص 198-199.**

[1] **المصدر السابق ، ص 201.**

- **إثارة الشعور :**

الأسلوب الخطابي في حاجة ماسة إلى إثارة الشعور :

ونقصد بإثارة الشعور؛ التأثير في المتلقي باستشارة كوامن الرغبة لديه في تحمل مسؤولياته إزاء الواقع الذي يعيش فيه.لأن ذلك من مقاصد الخطابة، والخطيب الناجح هو الذي يتخير أساليبه، ويعمد إلى لغة يفهمها الناس ويستطيعون إدراكها.

ويحسن بالخطيب هنا ((الاستعانة بالعناصر الشارحة، أو المقيدة، أو المخيلة، كالنعت، والمضاف إليه، والحال، والتمييز، والاستثناء.فذلك من عوامل إيضاح المعاني وتحديدها))[1].

وهذه العناصر بمثابة الدافع القوي الذي يمزج بين مشاعر السامعين بمشاعر الخطيب، لذلك لا ينبغي على الخطيب أن يكتفي بالإقناع وحده دون التحميس وإثارة الشعور، فكلاهما يكمل الآخر ويحقق المطلوب.

ويظهر ذلك بجلاء في كثير من خطب الجزائريين وبخاصة منهم خطباء جمعية العلماء الذين رفعوا لواء الخطابة واعتمدوها كسلاح فاعل في تبليغ دعوتهم الإصلاحية في المجتمع الجزائري.

وإذا أردنا معرفة قيمة إثارة الشعور ومقاصده في المتلقي يجمل بنا أن نتتبع ذلك من خلال بعض النماذج الخطابية المختارة لبعض أعلام الخطابة في الجزائر، منهم :

الشيخ عبد الحميد بن باديس في خطبة له عن سر الضحية ، منها قوله : ((فتدبروا أيها المسلمون في هذا السر العظيم ومرنوا أنفسكم على التضحية في كل وقت في سبيل الخير العام بما تستطيعون، ولا تنقطعوا عن التضحية ولو ببذل القليل، حتى تصير التضحية خلقا فيكم في كل حين.واجعلوا قصة هذا النبي الجليل نصب أعينكم، وتدبروا دائما ما قصه الله منها في القرآن العظيم عليكم، وأحيوا هذه السنة ما استطعتم، واسلموا لله رب العالمين))[2].

من مقاصد الخطيب هنا إثارة مشاعر المسلمين نحو فعل الخير العام؛ لذا تخير أسلوبا يثير مشاعر السامعين بقوة عاطفته، وحماسته إلى دعوته، ((لأن الخطيب المنفعل، الصادق العاطفة، الحار الشعور، تلتهب كلماته، وتصل إلى القلوب عباراته، فسرعان ما تمتزج نفوس

---

[1] أحمد الشايب ، الأسلوب ، ص 188.

[2] عبد الحميد بن باديس ، آثاره ، جـ4 ، ص 173-174.

السامعين بنفسه، وتندفع إلى الوجهة التي يريدها))[1]، وهذا ما استطاع الخطيب الوصول إليه من خلال قوله الذي ترك بصمات واضحة في نفسية المتلقي، وذلك بإثارة مكامن الرغبة في تحمل مسؤولياته للتضحية في سبيل الخير العام امتثالا لأوامر الله.

وهذا محمد البشير الإبراهيمي في خطابه المطول يوم الاحتفال بتكريم الشيخ عبد الحميد بن باديس، منه قوله : ((أيها الإخوان : قارنوا بين هذه الأمة الإسلامية المطوية في بطن الأرض وفي بطون الكتب، وبين هذه الأمة الإسلامية التي تدب على وجه الأرض تجدوا الفرق بعيدا جدا، ووجوه الشبه مفقودة البتة مع وجود الاشتراك في الاسم والنسبة.ثم التمسوا السبب تجدوه قريبا منكم، وما هو إلا هذا القرآن أقامه الأولون وجمعوا عليه قلوبهم وراضوا نفوسهم على أخلاقه، فعلمها الإيمان والأمان والإحسان، واتخذه الآخرون مهجورا فحقت عليهم كلمة الله في أمثالهم.فمن لي بمن يرسلها في مسلمي الدعوى والعصبية صيحة داوية : يا أهل القرآن لستم على شيء حتى تقيموا القرآن؟))[2].

من وسائل الإثارة اختيار المفردات والعبارات التي تثير في النفوس أخيلة وذكريات تبعث صورا ذهنية محفزة وأفكارا سليمة تدفع الفكر إلى الاستجابة والتغيير، ذلك ما نلحظه من خلال قراءتنا الواعية لما جاء في قول الخطيب حين عمد إلى اختيار أسلوب يتسم بإثارة مشاعر السامعين لتغيير أحوالهم.

فالخطيب انطلق من الواقع الذي يعيشه المسلمون من فوضى وتناقض غير وجه الحياة لديهم، مذكرا إياهم بماضيهم المجيد وبحياة أسلافهم التي ملؤوها بالقرآن يعيشونه ويعيشون له؛ إذ يعد السر الوحيد في تمكنهم وتفوقهم الحضاري.

فمثل هذا الأسلوب الذي تخيره الخطيب حري أن يثير شعور المتلقي ويلهب عواطفه ويحفزه إلى مراجعة الذات والرجوع إلى جادة الصواب ليقيم حياته على القرآن كما أقامها أسلافه.

وقريبا من هذا الموضوع ما جاء في خطاب العربي التبسي، منه قوله : ((لنلبس أيها الإخوان جلباب المحن، ولنعمل قلبا وقالبا على أننا جنود الله، ننصر دينه، ونبشر بتعاليمه، ونصلح حال أمته.فالأمانة التي وضعها الله سبحانه وتعالى على أعناقنا عظيمة شاقة، إن البدع

---

[1] أحمد محمد الحوفي ، فن الخطابة ، ص 188.

[2] محمد البشير الإبراهيمي ، آثاره، جـ1، ص 363.

الضالة كادت تستولي على العامة، والأمة كادت تنحل.فلا لغة جامعة، ولا قضاء جامع، حتى كاد أضدادنا أن يقولوا : أن هناك جماعة من البشر تسكن قطر الجزائر، لا أمة تسكن الأرض الجزائرية.

وبين ظهرانينا، دعايات لا دينية، إلحادية، ودعايات تبشيرية، فلنكن نحن قائمين بواجباتنا الكاملة في الدعاية لديننا بأقوالنا وأعمالنا، وبمساعينا المستمرة التي يجب أن لا تنقطع ليلا أو نهارا))[1].

كلمات الموضوع هنا قوية نفاذة إلى القلوب وهي قصد التحميس وإثارة الشعور،لأن الأمر يتعلق بمصير الأمة التي أحاط بها العدو من كل جانب يريد محوها.

وقد استطاع الخطيب أن يوظف أسلوبا مناسبا للموضوع يزخر بكلمات معبرة وتراكيب وافية تثير في النفس مشاعر الإحساس بثقل المسؤولية وتحمل أعباءها لتغيير واقع الأمة الجزائرية، ذلك ما جاء في قوله الآنف الذكر.

أما أحمد توفيق المدني يقول من خطبة له قصد إثارة شعور السامعين : ((انظروا إلى المستقبل أيها السادة نظرة أمل، ونظرة عمل، لا تقولوا إننا غلبنا في الماضي، واندحرنا في الحاضر، بل قولوا إننا بإيماننا وبعملنا وبكفاحنا سننتصر في المستقبل، وسنرفع راياتنا خفاقة عالية.

ليس العار على من غلب وانكسر السلاح بيده.فتاريخ العالم كله سجل لانتصار أعقبه انكسار وانهيار أعقبه انتصار، وتلك الأيام نداولها بين الناس.إنما العار كل العار هو الاستكانة والمذلة والصغار، والرضى بحياة الهوان، والسكوت على الجبروت والطغيان.**{إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم}***، فغيروا ما بأنفسكم يغير الله ما بكم، ولا تعتمدوا على أحد، بل على أنفسكم فاعتمدوا، وعلى سواعدكم فشمروا، وعلى أعمالكم فعولوا))[1].

المتأمل في قول الخطيب يجد أنه تخير لموضوعه أسلوبا عمد فيه إلى التأثير السريع في السامعين وذلك بتوظيف جمل جاءت وسطا بين الطول والقصر ((لأن العبارات الطويلة بطيئة التأثير محلة

---

[1] العربي التبسي ، مقالات في الدعوة إلى النهضة الإسلامية في الجزائر ، ص 203.
*** الرعد / 11.**
[1] أحمد توفيق المدني ، مذكرات ، القسم الثاني ، ص 43-44.

للسامع، مجهدة للخطيب في إلقائها، والعبارات القصيرة المفرطة في القصر متلاحقة مفاجئة مجهدة للسامع في تتبعها))[2].

فاختياره لهذا النوع من الجمل المتوسطة الطول كان اختيارا موفقا ومناسبا لأنها غير مجهدة في الأداء وسريعة الفهم مما يمكن من إثارة شعور المتلقي وتحفيزه إلى النهوض باتخاذ أسباب تغيير الذات وتغيير واقع الأمة.

وأخيرا نقف مع الخطبة التي ألقاها محمد خير الدين بمناسبة الاحتفال بالناجحين في الشهادة الأهلية بالمعهد سنة 1954 م ، منها قوله : ((فقد فهم أسلافنا العظام هذه الحقائق فأقبلوا على العلم بجميع فنونه وتهافتوا على مناهله العذبة يكرعون منها فسادوا في الدنيا وقادوا الأمم وفتحوا –مع البلدان- القلوب ورفعوا مشعل الحضارة والمدنية، فأناروا الطريق أمام الإنسانية وأدوا لها خدمات جلى يوم كان العالم في ظلمات من الجهل وظلام من العمى، وبذلك بنوا لنا مجدا لا نزال إلى اليوم نعيش على ذكراه، ولكن ليت شعري ماذا تنفعنا الذكرى وحدها؟ وما يجدي بنا الحديث عن أولئك الأمجاد فقد خلف من بعدهم خلف أضاعوا المعرفة، وزهدوا في الثقافة، وتعللوا بشتى العلل لقتل العلم وقبر العلماء))[1].

ففي قول الخطيب إخبار بما كان عليه الأسلاف من الإقبال على العلم والأخذ بأسباب التفوق الذي مكنهم من رفع مشعل الحضارة والمدنية، وقدموا خدمات جليلة للإنسانية.

فمثل هذا الموضوع شغل بال الخطيب وأثار فيه الرغبة في النصح والتنبيه مما دفعه إلى الحديث عنه.فتخير له أسلوبا ملائما ليكون له عونا على التوضيح وإثارة شعور السامعين علهم يأخذون العبرة وينطلقون انطلاقة حر في الرجوع إلى الذات والإقتداء بأسلافهم في بناء حاضرهم والتطلع إلى مستقبلهم.

وختاما يمكن القول أن الخطابة في النثر الجزائري الحديث جاءت واضحة مفعمة بالحس الموسيقي مستثيرة لمشاعر المتلقي مما مكنها من بلوغ مقاصدها.

---

[2] د.أحمد محمد الحوفي ، فن الخطابة ، ص 188.
[1] محمد خير الدين ، مذكرات ، جـ 1 ، ص 220.

خاتمة

ليس من حق المرء أن يدعي في مجال الدراسات الإنسانية، أن ما ذهب إليه من قول هو حق، وما عداه فباطل، وإلا فمن المحال أن تتطور تلك الدراسات وتتنوع إلى حقول مختلفة وكثيرة متباينة فيما بينها تباين المناهج المتبعة عند كل دارس، والدراسات الأدبية في ذلك سواء.فهي تختلف نتائجها اختلاف مناهج الدراسة المتبعة لدى كل باحث.

وتبعا لذلك لقد حاول هذا البحث أن يقرأ الخطابة في النثر الجزائري الحديث قراءة عساها أن تضيف جديدا لما تم من دراسات سابقة لهذا اللون من الفن النثري، في انتظار قراءات أخرى يمكن أن تضيف جديدا تبنى عليه أعمال أخرى.

والنتائج التي توصل إليها البحث في هذه الدراسة ليست نهائية؛ إذ مثل هذا الظن يعد قدحا وتعطيلا لقدرات من سيأتي من الدارسين والباحثين.

وهذا لا يمنع من التنويه والتأكيد على بعض النتائج المستخلصة من هذه الدراسة التي يمكن إجمالها فيما يلي :

-خلص البحث إلى أن أجناس النثر الفني في الجزائر منها الخطابة قد عرفت تغيرا في الصياغة والشكل، وتحررت من القوالب المحفوظة ومالت إلى السهولة والبعد عن التعمية، وبخاصة في الفترة التي ظهرت فيها جمعية العلماء المسلمين الجزائريين.

-بين البحث من خلال القراءة التاريخية أن احتلال فرنسا للجزائر وبسط نفوذها الضاغط على مقومات الأمة أدى إلى تغير صورة الحياة العامة، مما أوقعها في أتون مكائد الإدارة الاستعمارية فعمت بذلك البلوى في جميع نواحي حياتها.

-وخلص البحث أيضا إلى أن الخطابة في النثر الجزائري الحديث قد تعرضت لهزات عنيفة ومضايقات خانقة عبر مراحلها المختلفة، إلا أنها استطاعت في فترة ظهور جمعية العلماء المسلمين الجزائريين أن تواكب الأحداث وتؤدي دورها الرسالي في الواقع المعيش آنذاك.

-كما خلص البحث إلى أن الخطابة في النثر الجزائري الحديث لم تقف عند موضوع واحد، بل عالجت أكثر من موضوع حتى أننا لا نكاد نجد نصا خطابيا تفرد بقضية واحدة، بل تزاحمت فيه قضايا مختلفة وذلك قصد تعرية الواقع ومعالجته.

-وقد قرأ البحث خصائص الخطابة في النثر الجزائري الحديث قراءة فنية، انتهى إلى أن الالتزام والواقعية سمة بارزة في النص الخطابي لدى خطباء الجزائر وبخاصة خطباء جمعية العلماء المسلمين الجزائريين.

-وانتهى أيضا إلى أن اللغة المستعملة في خطبهم يغلب على ألفاظها السهولة والمباشرة؛ إذ كان همهم الوقوف على المقاصد مباشرة لذا تعاملوا مع اللغة تعاملا مباشرا.

-كما سجل البحث التقريرية والوصفية في لغتهم الأمر الذي يدفع إلى القول أنها تسجيل لأحداث تاريخية تعكس ما كان عليه الوضع آنذاك.

-وما يلفت الانتباه أيضا في لغة الخطابة في النثر الجزائري الحديث أنها تمثلت الدين الإسلامي وفكره فأشرقت ألفاظها واستضاءت معانيها بالقرآن الكريم.

-أما عن الأسلوب فقد توصل البحث إلى أن الوضوح سمة بارزة فيه لتعلقه بإقناع المتلقي واستمالته.

-كما توصل البحث إلى أن الأسلوب الموسيقي صفة لازمة لفن الخطابة؛ إذ يعد الوسيلة الجمالية في الإفهام والتعبير المباشر، ومدى أثره في المتلقي الذي يتفاعل ويتأثر بما يسمعه من أساليب جميلة.

-وأخيرا وقف البحث على أسلوب إثارة الشعور وانتهى إلى أن الخطابة في حاجة ماسة إليه لاستثارة كوامن الرغبة لدى المتلقي في تحمل مسؤولياته إزاء واقعه المعيش.

ومن هذا العرض لنتائج هذا البحث يمكن القول أن الخطابة في النثر الجزائري الحديث قد تبوأت مكانة رفيعة وذلك بما تفردت به من خصائص لا نجدها في غيرها من الفنون الأدبية الأخرى.

فهرس الموضوعات

قائمة المصادر والمراجع

القرآن الكريم

1-إبراهيم أنيس، دلالة الألفاظ، مكتبة الأنجلو المصرية، ط4، سنة 1980م.

2-ابن أبي الحديد، شرح نهج البلاغة، منشورات دار مكتبة الحياة، بيروت، تحقيق الشيخ حسن تميم، جـ1، سنة 1963م.

3-ابن رشد، تلخيص الخطابة، تحقيق وتقديم عبد الرحمن بدوي، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، سنة 1960م.

4-ابن رشيق، العمدة، تحقيق وشرح، مفيد محمد قميحة، دار الكتب العلمية، بيروت، جـ1، ط1، سنة 1983م.

5-ابن عبد ربه، العقد الفريد، شرحه وضبطه وعنون موضوعاته ورتب فهارسه أحمد أمين وآخران، دار الكتاب العربي، بيروت، سنة 1983م.

6-ابن هشام، السيرة النبوية، حققها وضبطها وشرحها ووضع فهارسها مصطفى السقا وآخران، دار التراث العربي ، بيروت، لبنان، جـ1.

7-أبو الصفصاف عبد الكريم، جمعية العلماء المسلمين الجزائريين ودورها في تطور الحركة الوطنية الجزائرية (1931م-1945م)، دار البعث للطباعة والنشر، قسنطينة، الجزائر.

8-أبو الفتح عثمان بن جني، الخصائص، حققه محمد علي النجار، دار الهدى للطباعة والنشر، بيروت، جـ1، ط2.

9- أبو القاسم سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، دار الغرب الإسلامي، بيروت، جـ1،(1500-1830)، ط1، سنة 1998م.
10-// // ، الحركة الوطنية الجزائرية (1900م-1930م)، دار نافع للطباعة، جـ2، ط2، سنة 1977م.
11- //// ، الحركة الوطنية الجزائرية (1900م-1930م)،معهد البحوث والدراسات الوطنية القاهرة، جـ3، ط2، سنة 1977م.
12-أبو هلال العسكري، الصناعتين، الكتابة والشعر، تحقيق مفيد قميحة، مطبعة دار الكتاب العالمية، بيروت، ط2، سنة 1981م.
13-أحمد بن النعمان، فرنسا والأطروحة البربرية في الجزائر، مطبعة دحلب، الجزائر.
14-أحمد توفيق المدني، حياة كفاح (مذكرات) القسم الثاني في الجزائر(1925م-1954م)، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر.
15-// // ، (مذكرات)، الجزء الأول في تونس (1905م-1925م)، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر.
16-// // ،كتاب الجزائر، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، سنة 1984م.

17-أحمد الخطيب، حزب الشعب الجزائري، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، جـ1، سنة 1986م.
18-// // ، جمعية العلماء المسلمين الجزائريين وأثرها الإصلاحي في الجزائر، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1985م.
19-أحمد الشايب، دراسة بلاغية تحليلية لأصول الأساليب الأدبية، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، ط7، سنة 1976م.
20-أحمد محمد الحوفي، فن الخطابة، دار نهضة مصر للطباعة والنشر، الفجالة، القاهرة، ط4.
21-أحمد الهاشمي، جواهر الأدب في أدبيات وإنشاء لغة العرب، تحقيق وتصحيح لجنة من الجامعيين، مؤسسة المعارف، بيروت، جـ1.

22-أحمد ياسوف، جماليات المفردة القرآنية في كتب الإعجاز والتفسير، دار المكتب، دمشق، سوريا، ط1، سنة 1994م.
23-إحسان النص، الخطابة السياسية في عصر بني أمية، دار الفكر ، دمشق، سوريا.
24-أرسطو طاليس، الخطابة، تحقيق وتعليق عبد الرحمن بدوي، وكالة المطبوعات، الكويت، دار القلم، بيروت، لبنان، سنة 1979م.
25-إليا حاوي، فن الخطابة وتطوره عند العرب، دار الثقافة، بيروت، لبنان.
26-أندري بريتان وآخران، الجزائر بين الماضي والحاضر، ترجمة اسطنولي رابح ومنصف عاشور، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، سنة 1984م.
27-أنطوان القوال، فن الخطابة، دار العلم للملايين، بيروت، لبنان، ط1، سنة 1996م.
28-أنيسة بركات درار، نضال المرأة الجزائرية خلال الثورة التحريرية، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، سنة 1985م.
29-بدوي طبانة، قضايا النقد الأدبي، دار المريخ للنشر، الرياض، سنة 1984م.
30-بسام العسلي، عبد الحميد بن باديس وبناء قاعدة الثورة الجزائرية، دار النفائس، بيروت، ط3، سنة 1983م.
31-بشير خلدون، الحركة النقدية على أيام ابن رشيق المسيلي، الشركة الوطنية للنشر و التوزيع، الجزائر، سنة 1981م.
32-الجاحظ، البيان والتبيين، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، جـ1.
33-// //، الحيوان، تحقيق وشرح عبد السلام محمد هارون، مطبعة إحياء التراث العربي، بيروت، جـ3.
34-جبور عبد النور، المعجم الأدبي، دار العلم للملايين، بيروت، ط2، سنة 1984م.
35-جورج غريب، صدر الإسلام، دار الثقافة، بيروت، لبنان، ط4، سنة 1983م.
36-جونسون وآخران، الجزائر الثائرة، ترجمة محمد علوي وآخران، وزارة الإرشاد القومي، القاهرة، سنة 1957م.

37-حكمة أبو زيد، التربية الإسلامية وكفاح المرأة الجزائرية، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة.
38-خديجة بقطاش، الحركة التبشيرية الفرنسية في الجزائر (1830م-1871م)، مطبعة دحلب، الجزائر.
39-رابح تركي، التعليم القومي والشخصية الوطنية، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، سنة 1975م.
40-// //، دراسات تربوية للشخصية الجزائرية، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، ط2.
41-سليمان الصيد، صالح بن مهنا القسنطيني، حياته، تراثه، دار البعث، قسنطينة، الجزائر، ط1، سنة 1983م.
42-سمير أبو حمدان، الإبلاغية في اللغة العربية، منشورات عويدات، بيروت، باريس، ط1، سنة 1991م.
43-سيد قطب، النقد الأدبي أصوله ومناهجه، مطبعة دار الشروق، بيروت.لبنان.
44-شارل أندري جوليان، افريقيا الشمالية تسير، ترجمة المنجي سليم وآخرون، مراجعة فريد السوداني، الدار التونسية للنشر، تونس، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، سنة 1976م.
45-شوقي ضيف، العصر العباسي الأول، دار المعارف، مصر، ط9.
46-طاهر درويش، الخطابة في صدر الإسلام، دار المعارف، مصر، جـ2، ط2، سنة 1968م.
47-الطاهر محمد توات، أدب الرسائل في المعرب العربي في القرنين السابع والثامن، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، سنة 1993م.
48-عباس محمد، البشير الإبراهيمي أديبا، إشراف د.محسن جمال، كلية الآداب، جامعة بغداد، سنة 1983م
49-عبد الجليل عبد شلبي، الخطابة وإعداد الخطيب، دار الشروق القاهرة، ط2، سنة 1986م.
50-عبد الحميد بن باديس، آثاره، من مطبوعات وزارة الشؤون الدينية، دار البعث، قسنطينة، جـ1-2-4-5-6 ، ط1، سنة 1985م.
51-عبد الحميد حسن، الأصول الفنية للأدب، مكتبة الأنجلو المصرية، ط2، سنة 1964م.

52-عبد الرحمن الجيلالي، تاريخ الجزائر العام، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، جـ3، ط7، سنة 1994م.
53-عبد الرحيم عنبر الطهطاوي، هداية الباري إلى ترتيب صحيح البخاري، دار الرائد العربي، بيروت، لبنان، جـ2، ط5، سنة 1982م.
54-عبد الله الركيبي، تطور النثر الجزائري الحديث (1830م-1974م)، دار نافع، سنة 1976م.
55-عبد القادر القط، في الشعر الإسلامي والأموي، دار النهضة العربية، بيروت، سنة 1979م.
56-عبد القاهر الجرجاني، دلائل الإعجاز وقف على تصحيح طبعه وعلق حواشيه السيد محمد رشيد رضا، دار المعرفة، بيروت، لبنان، سنة 1981م.
57-عبد الملك مرتاض، فنون النثر الأدبي في الجزائر (1931م-1954م)، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، سنة 1983م
58-العربي التبسي، مقالات في الدعوة إلى النهضة الإسلامية في الجزائر، جمع وتحقيق د.شرفى أحمد الرفاعي، دار البعث، قسنطينة، الجزائر، ط1، سنة 1981م.
59-عزالدين إسماعيل، الشعر العربي المعاصر قضاياه وظواهره الفنية والمعنوية، دار العودة ودار الثقافة، بيروت، ط3.
60-// // ، الأسس الجمالية في النقد العربي، عرض وتفسير ومقارنة، دار الفكر العربي، ط3، سنة 1974م.
61-علي بن محمد الشريف الجرجاني، كتاب التعريفات مع فهرست، مكتبة لبنان، ساحة رياض الصلح، بيروت، سنة 1985م.
62-علي موملحم، في الأدب وفنونه، المطبعة العصرية، صيدا، لبنان، سنة 1970م.
63-فرحات عباس، ليل الاستعمار، ترجمة أبو بكر رحال، المغرب، جـ1.
64-الفضيل الورتلاني، الجزائر الثائرة، بيروت، لبنان، سنة 1963م.
65-مبارك محمد الميلي، رسالة الشرك وظاهره، مكتبة النهضة الجزائرية،الجزائر، ط3، سنة 1966م.
66-مجاهد مسعود، تاريخ الجزائر، المكتبة الوطنية الجزائر، جـ1، سنة 1966م.

67-مجد محمد الباكير البرازي، في النقد الأدبي الحديث، مكتبة الرسالة الحديثة، عمان، الأردن، ط1، سنة 1986م.
68-محمد البشير الإبراهيمي، آثاره، جمع وتقديم د.أحمد طالب الإبراهيمي، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ج-1-2-3-4-5، ط1، سنة 1997م.
69-// // ،سجل مؤتمر جمعية العلماء المسلمين الجزائريين، المطبعة الجزائرية الإسلامية ، قسنطينة.
70-// // ، عيون البصائر، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، ط2، سنة 1971م.

71-محمد بن عبد القادر الجزائري، تحفة الزائر في تاريخ الجزائر والأمير عبد القادر، شرح وتعليق د.ممدوح حقي، دار اليقظة العربية للتأليف والترجمة والنشر، بيروت، جـ1-2، ط2، سنة 1964م.
72-محمد بن عبد الكريم الجزائري، الثقافة ومآسي رجالها، شركة الشهاب، الجزائر.
73-محمد خير الدين، مذكرات، مطبعة دحلب، حسين داي، الجزائر، جـ1، سنة 1985م.
74-// //، مذكرات، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، جـ2.
75-محمد عبد الغني حسن، الخطب والمواعظ، دار المعارف، مصر، ط4، سنة 1980م.
76-محمد عبد المطلب مصطفى، اتجاهات النقد خلال القرنين السادس والسابع الهجريين، دار الأندلس، بيروت، لبنان، ط1، سنة 1984م.
77-محمد علي دبوز، نهضة الجزائر الحديثة وثورتها المباركة، المطبعة العربية الجزائرية، جـ2، سنة 1971م.
78-// // ، أعلام الإصلاح في الجزائر، مطبعة البعث، قسنطينة، الجزائر، جـ4، ط1، سنة 1974م.
79-محمد زكي العشماوي، قضايا النقد الأدبي بين القديم والحديث، دار النهضة، بيروت، سنة 1979م.
80-محمد غنيمي هلال، النقد الأدبي الحديث، دار العودة، بيروت، ط1، سنة 1982م.

81-محمد مصايف، فصول في النقد الأدبي الجزائري الحديث، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، ط2، سنة 1981م.
82-// // ، النقد الأدبي الحديث في المغرب العربي، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، سنة 1979م.
83-محمد ناصر، الصحف العربية الجزائرية من(1847م-1939م)، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، مديرية الإنتاج، مطبعة أحمد زبانة، الجزائر، سنة 1980م.
84-محمد الطمار، تاريخ الأدب الجزائري، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، سنة 1981م.
85-محمد العيد محمد علي خليفة، الديوان، مطبعة البعث، قسنطينة، الجزائر، سنة 1967م.
86-محمود قاسم، الإمام عبد الحميد بن باديس الزعيم الروحي لحرب التحرير الجزائرية، دار المعارف، مصر، سنة 1968م.
87-مصطفى الأشرف، الجزائر الأمة والمجتمع، الترجمة من الفرنسية د.حنفي بن عيسى، المكتبة الوطنية للكتاب، الجزائر، سنة 1983م.
88-مصطفى الزباخ، فنون النثر الأدبي بالأندلس في ظل المرابطين، الدار البيضاء، المغرب، الدار العالمية، بيروت، لبنان، ط1، سنة 1987م.
89-مصطفى ناصف، نظيرة المعنى في النقد العربي، دار الأندلس، بيروت، ط2، سنة 1981م.
90-مفيد قميحة، الأخطل الصغير حياته وشعره، دار الآفاق الجديدة، ط1، سنة 1982م.
91-ميشال عاصي، الفن والأدب، مؤسسة نوفل، بيروت، لبنان، ط3، سنة 1980.
92-يحيى بوعزيز، ثورة 1871م دور عائلتي المقراني والحداد، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر.

المراجع الأجنبية :

93-CHR AGERON, Histoire de l'Algerie, Contemporaine que sais-je? PUF, PARIS, 1987.

المجلات والجرائد:

94-الأمة، ع84، 4 أوت 1936م.
95-الأمة، ع85، 11 أوت 1936م.
96-جريدة البصائر، السنة الثانية، ع80، ديسمبر 1937م.

97-جريدة الصراط السوي، السنة الأولى، ع11، 27 نوفمبر 1933.
98-الشهاب، م6، جـ11، ديسمبر 1930م.
99-الشهاب، م6، جـ11، أوت 1935م.
100-الشهاب، م1، جـ12، أفريل 1936م.